جامعة القدس المفتوحة

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

برنامج ماجستير اللغة العربية

عنوان الرسالة :أثر التّراكيب النّحوية في صورة المعركة في القرآن الكريم(بدر وأُحد والأحزاب)

إعداد الطالبة : شروق جمال يحيى طويل

الرقم الجامعي (0330011710026)

إشراف : أ.د عمر عتيق

قُدِّمت هذه الرّسالة استكمالاً لمتطلّبات الحصول على درجة الماجستير من كلية الدراسات العليا والبحث العلمي/جامعة القدس المفتوحة في برنامج اللغة العربية وآدابها

2020

فلسطين

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة الموسومة بـ

أثر التراكيب النحوية في صورة المعركة في القرآن الكريم(بدر و أُحد و الأحزاب)

أقر بأنَّ مضمون الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء الاقتباسات والإشارات الواردة في الحواشي، وأن الرسالة لم تقدم من قبل للحصول على درجة علمية أو بحث علمي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

اسم الطالبة شروق جمال يحيى طويل

Students name:

التوقيع : Signature

التاريخ : Date :

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة

أثر التراكيب النحوية في صورة المعركة في القرآن الكريم(بدر و أُحد والأحزاب)

وأجيزت بتاريخ .....

أعضاء لجنة المناقشة

1-أ.د عمر عتيق (رئيساً ومشرفا).

التوقيع .....

2-د.أحمد بشارات (ممتحناً داخلياً).

التوقيع .....

3-د. بسام القواسمي(ممتحناً خارجياً).

التوقيع .....

(تفويض)

أنا شروق جمال يحيى طويل ، أفوض جامعة القدس المفتوحة بتزويد المكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص بنسخ من رسالتي عند طلبها، بما يتفق وتعليمات الجامعة.

اسم الطالب: شروق جمال يحيى طويل

التوقيع : ....

التاريخ : ....

الإهداء

أُهدي هذا البحث إلى كلّ من يحترم جهود الباحثين ولو كانت متواضعة...

إلى كل من يعلم أنَّ النَّبتة لا تُؤتي ثِمارها إلا بَعدَ سُقيا كريمة...

إلى نفسي التّي تَعبتْ وحاولت وما زالت تحاول....

إلى صغيراتي اللواتي صَبَرَن على انشغالي وابتعادي...

إلى زوجي الذي ساندني في عزِّ موجات الانسحاب...

إلى أُمي وأَبي اللذين لا تزال صدى دعواتهما تصدح في أُذنيَّ...

إلى عائلتي... وأحبتي... وزملائي...

إلى كل من يبحث عن العلم ويساند الباحثين حتى يصبحوا علماء....

إلى أُستاذي الكريم خُلقاً وعلماً الدكتور عمر عتيق....

إلى جامعتي العريقة جامعة القدس المفتوحة ...

الشكر والتقدير

أحمد الله عز وجل القائل في محكم تنزيله العزيز: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، الذي هداني وأعانني ووفَّقني إلى سُبل العلم، ويسَّر لي إتمام هذه الرّسالة، والصَّلاة والسَّلام على رسولنا الحبيب محمد صلَّى الله عليه وسلَّم معلم الأمة، السِّراج المُنير وصاحب الخلق العظيم .

ويسرّني أن أتقدم بوافر شكري وامتناني إلى صاحب العلم والرّسالة والخلق الرفيع أستاذي المشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور عمر عبد الهادي عتيق ، الذي لم يدَّخر جهدا في إرشادي ونصحي وتوجيهي لإتمام العمل، فلولا فضله ما لاح هذا البحث في الأفق ولا سطع له نور، فبارك الله فيه ووفقه لكل خير.

وأقدم جلّ الامتنان والتقدير والمحبة إلى الذين حملوا أقدس رسالة في الحياة، إلى الذين مهدوا لنا طريق العلم والمعرفة، إلى الأساتذة الأفاضل الذين نهلنا من بحر علمهم وسبغوا علينا فضلهم.

ملخص البحث

أثر التَّراكيب النحوية في صورة المعركة في القرآن الكريم (بدر و أُحد و الأحزاب)

اسم الباحثة: شروق جمال يحيى طويل.

اسم المشرف: الأستاذ الدكتور عمر عبد الهادي عتيق.

احتوى البحث على ثلاثة فصول موزعة على النحو التالي: الفصل الأول : صورة معركة بدر الكبرى، اشتمل على ثلاثة مباحث: (مقدمات معركة بدر- وصف معركة بدر- نتائج المعركة). الفصل الثاني: صورة معركة أحد وتضمن ثلاثة مباحث:(الاستعداد للمعركة- وصف أحداث المعركة-النكسة والمواساة).الفصل الثالث: صورة معركة الأحزاب(الخندق) موزعا على أربعة مباحث: (الصورة العامة للمعركة- صورة المنافقين في المعركة- موقف المؤمنين- نتائج المعركة).

هدفت الدراسة إلى رصد تأثير الأساليب النحوية في صورة المعركة في القرآن الكريم، والكشف عن الأبعاد النفسية والوجدانية النّاجمة عن التشكيل النحوي لصورة المعركة في القرآن الكريم، وإبراز تشكيل الفضاء المكاني للمعركة في القرآن الكريم، ودراسة تأثير السِّياق الدلالي على اختيار لفظ دون غيره من الألفاظ المناظرة، ورصد المادة المُعجمية للمفردة ودراسة علاقتها بالسِّياق الدلالي.

اعتمدت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي الذي رصد ظاهرة تأثير النَّسيج النحوي في صورة المعركة وأتاح للباحثة التحليل والتعليل والاستنتاج والرّبط .

تتمثل أبرز النتائج التي توصلت إليها الباحثة: أنّ صورة المعركة في النص القرآني دقيقة شاملة لمقاصد الله، فيها تحليل للأسباب والنتائج، وحيوية في التَّصوير والإيحاء وبيان لخلجات النفس، ومعالجة للفكر الإنساني، وأنّ الألفاظ القرآنية لها دلالتها في سياق التركيب فلا يمكن أن يرادف لفظ لفظا آخر، والألفاظ المناظرة لا يمكن أن تُؤدي أحدها الدلالة التي تؤديها أختها.

كلمات مفتاحية: صورة، المعركة، السياق، الأبعاد الدلالية.

Abstract

The effect of grammatical structures on the battle image in the Holy Quran (Bader–Uhud–Al–Ahzab)

Researcher name: Shurooq Jamal Tawil.

Supervisor's name: Prof. Dr. Omar Abdel–Hadi Ateeq.

The research contains three chapters distributed as follows: The first chapter: The picture of the Great Badr Battle. It included three sections, namely: (Preludes to the Battle of Badr – Description of the Battle of Badr – Results of the Battle). Chapter Two: Picture of the Battle of Uhud, which included three topics: (Preparing for the battle – Description of the events of the battle – Setback and consolation). The third chapter: the picture of the battle of AL–Ahzab (the trench), and it was distributed in four sections, which are: (the general picture of the battle – the image of the hypocrites in the battle – The position of the believers – the results of the battle).

The study aimed to monitor the effect of grammatical methods on the image of the battle in the Noble Qur'an, to reveal the psychological and emotional dimensions resulting from the grammatical formation of the battle image in the Holy Qur'an, to highlight the formation of the spatial space of the battle in the Holy Qur'an, and to study the effect of the semantic context on the choice of a word without other corresponding terms And

monitoring the lexical material of the singular and studying its relationship with the semantic context.

One of the most prominent findings of the researcher was: : That the battle image in the Qur'an text is accurate and comprehensive in which an analysis of the causes and consequences, vitality in depiction and revelation, an explanation of the sins of the soul, and a treatment of human thought, and that Qur'anic expressions have their significance in the context of the composition, so it cannot be synonymous with another word. The debate could not be the same as her sister.

المقدمة

الحمدلله الذي هدانا ويسّر لنا الإبحار في كتابه الكريم والوقوف على لطائفه وإعجازه، والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أمّا بعد,

أهمية البحث

فالقرآن الكريم يُشكّل المستوى الأعلى من اللغة والبيان والبديع والمعاني. والوقوف عليه وتدبّره يحتاج إلى أعلى الهمم العالية العون والتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وإنطلاقا من إيماني الراسخ أنّ دراسة القرآن أَولى ما يجب دراسته، والعلم به من أوجب العلوم وأشرفها، أقدمت على هذه الدراسة، التي تحرص على إبراز وظيفة التّشكيل النحوي في بلاغة صورة المعركة في القرآن الكريم، من خلال رصد الآيات القرآنية المتعلقة بمعارك بدر وأُحد والأحزاب، ورصد وظيفة الأساليب النحوية في إبراز الأبعاد الفنِّية لصورة المعركة في القرآن الكريم من خلال السِّياقين الأصغر والأكبر.

أهداف البحث

من أهداف الدراسة رصد تأثير الأساليب النحوية على صورة المعركة في القرآن الكريم، والكشف عن الأبعاد النفسية والوجدانية الناجمة عن التشكيل النحوي لصورة المعركة في القرآن الكريم، وإبراز لتشكيل الفضاء المكاني للمعركة في القرآن الكريم، ودراسة تأثير السياق الدلالي على اختيار لفظ دون غيره من الألفاظ المناظرة، وربط المادة المعجمية للمفردة بالسياق الدلالي، وأسأل الله القدير أن يسهم موضوع الدراسة في فتح آفاق جديدة في الدراسات القرآنية.

أسباب اختيار البحث

تتمثل مسوِّغات اختيار الموضوع بأسباب عدة : منها أسباب فكرية تدحض فكرة عدم شمولية القرآن الكريم في عرض وتصوير المعارك، ومنها أسباب جمالية فنّيّة تبرز الملامح البلاغية والبيانيّة في التراكيب النحوية التي تشكّل صورة المعركة في القرآن الكريم، ومنها أسباب اجتماعية وإيمانيّة تكشف عن أسباب النّصر للأخذ بها وتبيين لأسباب الهزيمة للابتعاد عنها. ومنها أسباب لغوية فنية تتمثل في تعزيز العلاقة التكامليّة بين النّحو والصُّورة الفنيّة أي بين النحو وعلم البلاغة اعتمادا على التكامل بين علوم اللغة العربية كافة .

الدراسات السابقة

لم تجد الباحثة دراسة متخصصة بتأثير الأَساليب النحوية في صورة المعركة في القرآن الكريم. واطّلعت الباحثة على مجموعة من الدراسات التي تتصل بجوانب جزئية ذات علاقة غير مباشرة بموضوع الرسالة، ومن أبرزها:

أطروحة دكتوراة بعنوان النّظم القرآني في آيات الجهاد لناصر عبد الرحمن خنين ، 1996م، إشراف: فريد النكلاوي جامعة الأزهر الشريف. قامت الدراسة على تحليل مدلول ألفاظ الآيات الكريمة المتعلقة بالجهاد مستحضرا الغرض من سياقها ، وأدوات البلاغة وأساليبها التي تعمر بها مستجليا لدقائق نظمها ولطائف بيانها، مستندا على المنهج الوصفي التحليلي، ومن أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث أن أساليب التوكيد في آيات الجهاد عصبا أساسا في نظمه؛ ولعل من أسباب ذلك أن طبيعة الجهاد شاقة على النفوس؛ والتوكيد يزيد من يقينها ويعلّي همّتها.

رسالة ماجستير بعنوان التراكيب المتضمنة لألفاظ الجهاد والشهادة والأنفال في القرآن الكريم (دراسة دلالية) للباحثة أمان حسن، المشرف: دلدار أمين، من جامعة الموصل، 2010م . هدفت الدراسة إلى تلمّس الدلالة في التراكيب، ووظيفتها في التعبير وتوضيح علاقة كل

تركيب بما يجاوره من تراكيب أخرى، واعتمدت المنهج الوصفي التحليلي في تحليل التراكيب المتضمنة لألفاظ الجهاد والشهادة والأنفال في القرآن الكريم، ومن أبرز النتائج أن الخطاب القرآني يعمد إلى استعمال صيغة (فاعَل) التي تدل على المشاركة بين اثنين للقيام بالفعل وذلك في التراكيب المختصة في الجهاد، وغلبة التراكيب الفعلية لأنّ الفعل هو اللفظ المعبر المؤدّي لأهمّ معنى في التركيب.

تميّزت أطروحتي في دراسة أثر التراكيب النحوية في صورة المعركة في القرآن الكريم(بدر وأُحد والأحزاب)، لبيان مجمل الصورة التي أوردها الله –سبحانه وتعالى– في كتابه، مستعينة بتراكيب اللغة والنحو ودراسة مدى تأثير هذه التراكيب والألفاظ في تشكيل صورة المعركة بشكل عام، والكشف عن الأبعاد النفسية والوجدانية الناجمة عن هذه التراكيب، ودراسة تأثير السياق الدلالي على اختيار لفظ دون غيره من الألفاظ المناظرة. ولم تعالج الدراسات السابقة توظيف التراكيب النحوية في دراسة صورة المعركة في القرآن الكريم .

صعوبات واجهت الباحثة

كل طريق نحو العلا تحتاج إلى الجهد ، ولا بدّ أن تعتريها المشقة وتزاحمها العقبات، ومما زاد من هذه العقبات جائحة كورونا(الفايروس التاجي) التي حلت على وطننا الحبيب، كان لها آثار سلبية في نواحي الحياة، فسبّب انتشار الوباء صعوبة التنقل بين المكتبات، ناهيك عن التأثير النفسي والارتباك والخوف المترتب على ذلك. وإن تجاوزت الصعوبات العلمية والزمنية والظروف المفاجئة ومشاغل الحياة، عليك بعدها أن تتجاوز ما هو أكبر من ذلك وهو الفتور النفسي، فللنفس أوقات إقبال وإدبار، والإيمان يزيد وينقص، فكلما كنت أُقبل إلى الله كنت أرى التوفيق والإنجاز في بحثي، وكلما كنت أفتر يُدبر عني توفيقه سبحانه ، فعلمت أن هذا القرآن لا يوفق له إلا مقبل مخلص لله سبحانه، وأنا ما بين الكفتين حتى وصل بحثي إليكم، أسأل الله الثبات والتوفيق. وعطفا على ما تقدم واجهت الباحثة

صعوبات في العثور على أبحاث متخصصة بتأثير التراكيب النحوية في صورة المعركة في القرآن الكريم .

منهج البحث

اختارت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي، الذي يعتني برصد الأساليب النحوية والبلاغية ووصفها، وبيان صورة المعركة الناجمة عن تضافر النحو والبلاغة .

مضمون البحث

احتوى البحث على تمهيد ومقدمة وثلاثة فصول وخاتمة

<u>المقدمة</u>: عرضت أسباب اختيار موضوع البحث، والدراسات السابقة وخطّة البحث والمنهج المتبع بالدراسة.

<u>التمهيد</u>: تحدثت الباحثة فيه عن دلالة النحو البلاغية في السياق القرآني، معرجة على ارتباط النحو بالبلاغة إذ يكمل أحدهما الآخر، وأهمية دراسة القرآن الكريم وفقا للسياقات المتعددة فيه، كالسياقات اللغوية وغير اللغوية مما يعين على فهم المعنى الدلالي والبلاغي العميق لمعاني القرآن .

<u>الفصل الأول : صورة معركة بدر الكبرى</u>

اشتمل على ثلاثة مباحث: المبحث الأول: مقدمات معركة بدر من حيث الاستعداد النفسي للمعركة عند المسلمين والكافرين. والمبحث الثاني: وصف معركة بدر من حيث الفضاء المكاني للمعركة والاستغاثة والاستجابة ووصف المواجهة والقتال. أما المبحث الثالث: فتناول نتائج المعركة إذ تناولت الباحثة فيه نصر الله للمؤمنين، ومصير الكافرين، وأسرى معركة بدر، وغنائم المعركة.

الفصل الثاني: صورة معركة أحد.

تضمن ثلاثة مباحث: المبحث الأول:الاستعداد للمعركة، من قبل المسلمين والمنافقين والكافرين، المبحث الثاني: وصف أحداث المعركة وتناولت فيه الباحثة الانتصار الأولي، وتأثير الإشاعة على سير المعركة ونزول الرماة عن الجبل .أمّا المبحث الثالث: فتحدثت فيه عن النكسة والمواساة، من حيث التخفيف عن المسلمين بإنزال النعاس عليهم، وعفو الله عن الطائفة التي فرّت يوم أحد، وبيان منزلة الشهداء، ومواساتهم بذكر الأمم السابقة.

الفصل الثالث: صورة معركة الأحزاب(الخندق)

جاء موزعا على أربعة مباحث: المبحث الأول: الصورة العامة للمعركة وتضمن صورة الحشود المعادية ولغة الجسد للمؤمنين في سياق الخوف. المبحث الثاني:صورة المنافقين في المعركة في أقوالهم و أفعالهم و تقبيح أقوالهم وأفعالهم. المبحث الثالث: موقف المؤمنين. المبحث الرابع: نتائج المعركة، وتضمنت هزيمة الأحزاب، وهزيمة يهود بني قريظة والغنائم.

الخاتمة: تضمنت أبرز النتائج والتوصيات.

التمهيد

تضافر النحو والبلاغة في السياق القرآني

القرآن الكريم المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة، تحدّى بها الله سبحانه وتعالى العرب أهل الفصاحة والبلاغة والبيان ليأتوا بمثل آياته وسوره ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، فإعجازه وبلاغته وبيانه تعلو على كل إعجاز وبلاغة وبيان ، فلغة القرآن هي أعلى درجات اللغة، ويقول بذلك عبد القاهر الجرجاني في نظريته في إعجاز القرآن:" أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر، وصورة كل عظة، وتنبيه وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأمّلوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حكَّ بيافوخه السماء موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول، وخُلدت القروم فلم تملك أن تصول".[1]

ولا يخفى رأيه الصريح في التذوق البلاغي عند القارئ لفهم القرآن، والتوصل إلى المعنى وإدراكه من خلال الأسلوب إذ : "إن الإعجاز يحتاج في فهمه إلى ملكة بيانية ناضجة، وذوق بلاغي صحيح يستطيع القارئ بكتاب الله أن يفهمه على ضوئهما وأن يدرك معناه من الأسلوب الذي استفاده منهما" [2]

إن ارتباط النحو بالقرآن الكريم باعتباره مرجعا أساسيا في اللغة العربية ؛ لنزوله بلسان العرب، وارتباط البلاغة والإعجاز والفصاحة والبيان بلغة القرآن الكريم جعل الصّلة مؤسسة على التّضافر

---

(1) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود شاكر. ط3، مطبعة المدني، القاهرة، 1992م، ص39.

(2) فقيهي، محمد حنيف: نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني. ط2، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987م، ص160.

والتّماهي بين النحو والبلاغة. ويتحقق فهم النص القرآني ومعرفة بيانه وإعجازه من خلال البحث في ألفاظه وتراكيبه وأساليبه وإدراك مقاصده.

ويؤكّد الزمخشري أنّ معرفة لطائف القرآن وخفاياه تحتاجان إلى البراعة في علمي المعاني والبيان:" وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانّهما همّة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله." [1]

وتقتضي الآفاق الدّلالية النظر إلى الوحدة اللغوية ضمن السياق الكلي الذي وردت فيه، وللقرآن الكريم مزية عن غيره إذ له سياقات متعددة تترابط فيما بينها للوصول إلى المعنى المقصود، فلا بدَّ من الأخذ بالاعتبار سياق الآية وموقعها من سياق السورة وترابطها بها، والهدف من وجودها ضمن السياق القرآني ككل.

ويرى أهل البلاغة أنّ الألفاظ تتناهى أمّا المعاني فلا تتناهى، ويؤكّد الجاحظ: " أنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لأنّ المعاني مبسوطة إلى غاية وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة." [2]

ومما سبق نستشفُّ أنّ الألفاظ تحمل في طياتها معانيَ عديدةً، ودلائل فسيحة، فمن اللفظ الواحد يمكن أن تقرأ الحالة الشعورية والنفسية والحركية والاجتماعية والفكرية وغيرها، واللفظة المعجمية لها دلالة وظلال وارتباط معجمي ببعضها بعضا، فتشكّل بذلك النّظم الذي هو: " لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل منها البيان." [3]

يفرّق عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النّظم بين نوعين من النّظم، النّظم في الكلمة المفردة وهو النّظم الصوتي للفظ، والنّظم التّركيبي والنّحوي للألفاظ، يقول:" وذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا النّاظم لها بمقتف في ذلك رسماً

([1]) الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط3، دار الكتاب العربي، بيروت،1407هـ، ج1، ص3.

([2]) الجاحظ: البيان والتبيين.تحقيق: عبد السلام هارون،ط4، مكتبة الختنجي، القاهرة ،د.ت، ج1،ص76.

([3]) الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: محمد أحمد، ط 4، دار المعارف، بيروت، د.ت، ج1، ص36.

من العقل، اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه، فلو أنَّ واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد، وأمّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنّك تقتضي في نظمها آثار المعاني ، وترتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النّظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى شيءٍ كيف جاء واتفق." [1]

ولا خلاف في أنّ الفصل بين النّحو والبلاغة جناية على البُعد الدلالي للنّص؛ لأنّ علمي النّحو والمعاني لا يمكن الفصل بين أحدهما والآخر إلا مع التضحية بالمعنى على مستوى العلمين جميعا. إنّ ما تركه لنا عبد القاهر الجرجاني من دراسات في دلائل الإعجاز وغيره، يُعدُّ إشارات ذكية إلى الطريق الذي كان على النحاة أن يسلكوه بدراستهم للنحو، وبخاصة ما قام به عبد القاهر من دراسة للنظم في اللغة العربية.[2]

بناءً على ما سبق نجدُ أنَّ البلاغة والفصاحة لا تتحققان إلا باتّساق التراكيب والألفاظ ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتوافق أجزاء النص داخل السياق الأكبر والسياق الأصغر. ولا يمكن إجتزاء النحو وحصره بالقواعد والإعراب، فالنحو بعد التركيب والصياغة سياق ومقام ومعنى ودلالة، ويعبّر باللفظ في حالات التصوير النفسي والتأثر الإجتماعي، وأهم ما يرتبط بالنحو من علم البلاغة ، علم المعاني الذي يبحث في أحوال الإسناد (الخبر والإنشاء، ومتعلقات الفعل والقصر والفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة...)، ويليه علم البيان من(صور تشبيهية واستعارات ومجاز...) ، ويليه علم البديع بمحسناته البديعية من جناس وطباق ومقابلة... مسكوبة في قالب تركيبي ذات صياغة فنية تشغل خيال العقل وتتدفق معها المشاعر لتعطي تأثيرا أكبر في النفس وإشباعا للفكرة.

وهذه التراكيب النّحوية ودلالاتها المعنوية والبلاغية ترسم صورا تُحيي الذِّهن وتنير الفكر، ومن المؤكّد أنّ دراسة صورة المعركة في القرآن الكريم من الناحية البلاغية تُسهم في إثراء المعنى وبيانه.

([1]) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص49.

([2]) ينظر: حسان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها. ط5، عالم الكتب، 2006م، ص336.

ويُعرّف السياق لغةً: السوق معروف. ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق وسواق، شُدّد للمبالغة... وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة، وفي حديث أم معبد : فجاء زوجها يسوق أعنزا ما تساوق، أي ما تتابع، والمساوقة : المتابعة كأنّ بعضها يسوق بعض. وساق إليها الصّداق والمهر سياقا و أساقه، وإن كان دراهم أو دنانير؛ لأنّ أصل الصداق عند العرب الإبل ، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما...والسياق: المهر .وساق بنفسه سياقا : نزع بها عند الموت . تقول رأيت فلانا يسوق سوقا : أي ينزع نزعا عند الموت[1]

وأصل السرد تتابع للحديث، أو للأحداث، جاء في أساس البلاغة : "ومن المجاز : هو يسوق الحديث أحسن سياق، و إليك سياق الحديث، وهذا الكلام مساق إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه أي سرده. [2]

والسياق من التتابع دون انقطاع، ففي الصحاح: " ويقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية...والسياق نزع الروح [3]

مما سبق نستنتج أنّ المعنى الغالب على السِّياق لغة هو التتابع والتواصل، ويرتبط هذا المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي بشكل أو بآخر، فنقول ساق الحديث أي سرده بتتابع وتسلسل يوصل به فكرة ومعنى.

جاء في التعريف الاصطلاحي للسياق : " أنَّه المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء أكانت كلمة أو جملة في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية." [4]

و" هو بناء كامل من فقرات مترابطة في علاقته بأيِّ جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة." [5]

([1]) لسان العرب.مادة (سوق)

([2]) الزمخشري: أساس البلاغة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،1404هـ، ص314.

([3]) الجوهري: الصحاح. تحقيق: شهاب الدين أبو عمر.ط1، دار الفكر، بيروت، 1418هـ، ج2،ص1138.

([4]) الطلحي، ردة الله: دلالة السياق.ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ،1424هـ، ص51.

([5]) فتحي، إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبية.ط1، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، 1984م، ص210.

فالسِّياق يرتبط بالوحدة اللغوية وما حولها في الدّائرة الضَّيقة ويتّسع إلى أكبر من ذلك حتّى يصل إلى عناصر أخرى غير لغوية بيئية وتاريخية لها تأثير واتصال بالمعنى الجزئي.

يحدّد السّياق الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها، فلا يُفهم معنى الكلمة أو الجملة إلا بوصلها بما قبلها أو بعدها داخل إطار السياق، ودلالة السياق القرآني تُعتبر منهجا ضروريا في تفسير القرآن الكريم وفهمه، ومما يميز القرآن الكريم تعدد مستويات السياق فيه:

1. **سياق الآية، يكون تفسير المعنى من خلال الآية ذاتها وتراكيب الجملة الواحدة مثال ذلك: سأل رجل عليّا بن أبي طالب_ رضي الله عنه_ قائلا: يا أمير المؤمنين: أرأيت قول الله : ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1] ، وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون، فقال له علي –رضي الله عنه– : أدنه، أدنه ثم قال:﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[2] يوم القيامة[3]. ليدل ذلك على أنّ اجتزاء النّص من السياق يُغيّر المعنى، فما كان من علي إلا أن قرأ عليه الآية كاملة ليشير إلى نقصان ما استدل به الرجل فأدّى إلى اختلاف في المعنى، فالمعنى الصحيح لا يفهم إلا بفهم السياق المجاور للكلمات .**
2. **سياق النص أو الآيات الذي يتيح المعنى من خلال مجموعة من الآيات السابقة واللاحقة للآية، ومثالها: قال الخارجي نافع بن الأزرق لابن عباس– رضي الله عنهما–" يا أعمى البصر، يا أعمى القلب، تزعم أنّ قوما يخرجون من النار، وقد قال الله –عز وجل–: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾[4] ،فقال له ترجمان القرآن ابن عباس– رضي الله عنهما–" ويحك اقرأ ما فوقها هذه للكفار[5] ، قال تعالى في الآية التي قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ**

([1]) النساء:141.

([2]) النساء: 141.

([3]) الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن. تحقيق: أحمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة،2000م، ص609–610.

([4]) المائدة:37.

([5]) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن. ص406.

يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[1]

3. **سياق السورة، يُفهم المعنى من خلال توافق واتصال مجموع الآيات في السّورة الواحدة، منتظمة في بناء محكم، كوحدة متكاملة متناسقة، يجمعها غرض واحد، وظهر ذلك في سياق سورة الأحزاب وغرضها العام، فتحدثت عن النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– في نُصرة الله له وهزيمة الأحزاب وذكر خصائصه وحقوقه ولهذا افتتحت بندائه بقوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيّ} [2] لعلاقة هذه السورة بالنّبي –صلّى الله عليه وسلّم– وأزواجه أمَّهات المؤمنين وفيها خطاب له مباشرة وخطاب للمؤمنين، والثناء عليه وتعظيم مكانته ، وسُور القرآن الكريم جميعها محكمة البناء ذات وحدة متكاملة، ولو تعددت موضوعات السورة الواحدة إلا أنّها تترابط وتنتظم في خيط واحد يكمل محورا فيها المحور الآخر.**
4. **سياق القرآن: في تناغم وانسجام الآيات ودلالتها مع المقصد الإلهي ككل ،" ورد عن عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾[3] شقّ ذلك على المسلمين، فقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال –صلّى الله عليه وسلّم–: ليس ذلك إنّما هو الشّرك، أَلَم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4]". [5]**

هذه المستويات من السياق القرآني تؤكد على أهمية تفسير القرآن بالقرآن، والاستدلال على المعاني من داخل النص في المقام الأول وإن تعسّر ذلك يستعان بخارج النص.

([1]) المائدة:36–37.

([2]) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد ، المدينة النبوية، 1995م، ج28، ص433.

([3]) الأنعام:82.

([4]) لقمان:13.

([5]) البخاري: صحيح البخاري(كتاب أحاديث الأنبياء). تحقيق: محمد الناصر. ط1، دار طوق النجاة، 1422ه، ج4،ص163.

وقسّم بعض اللغويين السّياق إلى:

السِّياق الأصغر: ويقصد به الجوار المباشر للفظ قبله أو بعده، ويُعنى أسلوبيا بدراسة الكيفيات التي تتفاعل بها الكلمات فيُبرز بعضها بعضا ويؤثر بعضها في بعض.

والسِّياق الأكبر: ويقصد به ما هو أكبر من الجوار المباشر للفظ كالجملة أو الفقرة أو الخطاب جملة، وقد يتَّخذ هذا المصطلح أسلوبيا دلالة خاصة تتمثل في جملة المعطيات التي تحضر القارئ وهو يتلقى النص بموجب مخزونه الثقافي والاجتماعي.[1]

ومن أركان السياق ، المساق: وهو الظروف والأحوال التي تتكاثف جميعا في التأثير على دلالة الخطاب ومن جملتها الإشارات والإيماءات المساعدة التي يستعين بها المتكلم لإيضاح فكرته وإبلاغها إلى السامع، كما تتدخل عوامل أخرى منها ما يتعلق بشخصيات المتخاطبين، وحياتهم الخاصة، وتاريخهم...[2]

وتتعدّد أنماط السِّياق التي تنطوي تحت النوعين الرئيسين:

الأول: السِّياق الأصغر وهو ما يسمى بالسِّياق اللغوي، ويتضمن أنماطا متعددة من السياقات، كالسياق: النحوي، والصوتي، والصرفي، والمعجمي، والقصصي.

الثاني : السِّياق الأكبر وهو ما يعبر عنه بالسِّياق غير اللغوي، ويحتوي أنماطا من السياقات، كالسياق: الاجتماعي، والتاريخي، وسياق المقام، والحال، والموقف.

أولا: أنماط السياق اللغوي وهي على النحو الآتي:

1. **السِّياق النحوي: ويدرس البنية النحوية، وعلاقة الكلمات ووظائفها، ومواقعها من الترتيب، من تقديم وتأخير ، وذكر وحذف، وزمن الفعل وبنائه للمعلوم أو المجهول وغيرها، والكلمات في الجمل تتوالى على نسق مرتب وتخضع في ترتيبها إلى أنساق تركيبية مطردة وعلاقات داخلية معينة تشكل في مجموعها قواعد التركيب النحوي على**

([1]) ينظر : المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب. ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م، ص175.

([2]) ينظر: علي، محمد: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية. ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007م، ص160.

وفق مقتضى السياق، فينتج المعنى الذي تؤديه المنظومة القواعدية ليتحقق التوافق مع السياق،" ومعنى الجملة ليس مجموع معاني الكلمات المفردة التي ترد فيها، إذ إن التغيير في البنية النحوية، وعلاقات الكلمات ووظائفها ومواقعها في الترتيب من شأنه أن يبدل في المعنى"[1] ، فإن التغيير في موقع الكلمة يغير من معناها.

2. **السِّياق الصَّرفي: يدرس التّغيُّرات التي تقع على صِيَغ الكلمات وما يُضاف إليها من السوابق، واللواحق، والزوائد، تؤثِّر في المعنى وتؤدي إلى تغيُّره، ويرتبط السِّياق الصرفي بالسياق النحوي لتفاعل الصرف والنَّحو في السياق الواحد، ويهدف إلى دراسة المفردات لا بوصفها صيغا أو ألفاظا فقط وإنّما بحسب ما فيها من خواص تفيد في خدمة الجملة أو العبارة[2] فكل زيادة بالمبنى تدلّ على الزيادة في المعنى.**
3. **السِّياق الصَّوتي: يهتم بدراسة توزيع الأصوات داخل السِّياق وفق محتواها الوظيفي[3]، ويبرز من خلال التَّنغيم في الآيات، وإبراز المقاطع الصَّوتية المعيَّنة التي تُسهم في توضيح المعنى، من خلال الارتفاع والانخفاض في درجة الجهر في الكلام[4] ، والسِّياق الصوتي يحمل وظيفة نحوية من خلال تحديد الإثبات والنفي والاستفهام والتعجب والاستنكار وغيرها ، ويحمل وظيفة دلالية يمكن رؤيتها في اختلاف الترتيب العام بنغمات المقاطع في الشاهد التنغيمي [5]، وتظهر النغمة الصاعدة في النهي في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَكونوا كَالَّذينَ خَرَجوا مِن دِيارِهِم بَطَرًا وَرِئاءَ النّاسِ وَيَصُدّونَ عَن سَبيلِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ بِما يَعمَلونَ مُحيطٌ ﴾[6] دلالة على التحذير من الوقوع في الفعل المنهي عنه.**

([1])عودة، خليل: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم.ط1، مكتبة المنار الزرقاء، الأردن، 1985م، ص 75.

([2]) العامري، خليل: السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني. مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مج9،ع2، 2010م، ص48.

([3]) عبد القادر، عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية. ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2002م، ص214.

([4]) ينظر: السعران، محمد: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي. ط1، دار الفكر العربي، 1997م، ص159.

([5]) ينظر: حسان، تمام: مناهج البحث اللغوي. دط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955م، ص164.

([6]) الأنفال:47.

4. **السّياق الإيقاعي: يرتبط السّياق الإيقاعي بشكل أو بآخر بالسِّياق الصوتي، إلا أنّ السياق الإيقاعي يهتم بالفواصل القرآنية التي تؤدِّي دورا كبيرا في السّياق الصوتي من خلال انسجامها واتساقها في الآيات ، والفاصلة هي الكلمة الآخيرة التي تختم بها الآية من القرآن، وهذا الإيقاع يُبرز المعنى ويشحنه بطاقة صوتية ودلالية تؤدي معناها انسجاما مع السِّياق الذي ذُكرت فيه، فيقوى المعنى مع قوة الإيقاع الفاصلي، كما في قوله تعالى في وصف مشاهد يوم القيامة:{ فإذا برق البصر* وخسف القمر* وجمع الشمس والقمر} [1] توالي الفواصل يُبرز المعنى ويرتّبه في النّفس مما يدعو إلى التأمل في المشهد وتأثيره على السامع بإيقاع الرهبة من ذلك اليوم العظيم.**

5. **السِّياق المُعجمي: وهو مجموع العلاقات الصّوتية التي تتضافر من أجل تخصيص الوحدة اللغوية ببيان دلالي مُعيَّن يمنحها القدرة على التَّركيب وفق أنظمة اللغة المعينة، هذه الوحدة تشترك في علاقات أفقية مع وحدات أخرى لإنتاج المعنى السياقي العام للتركيب.[2] فيختلف المعنى المعجمي للكلمة ذاتها من نص أو من سياق إلى آخر، فاللفظة في ذاتها منفردة تحمل معنىً مجردا أمّا حين تلتصق بغيرها من المفردات فيتوسّع معناها أو يتبدّل إلى معنى آخر أو ينقلب المعنى إلى معنى معاكس لما كان عليه. ففي سورة النمل جاءت كلمة (ننظر) ومشتقاتها في معان مختلفة حسب السِّياق، قال تعالى: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[3]، سننظر هنا (نظر العقل أي التأمل) [4] ، وقوله تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[5]، (أي تجاوزهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك)[6] فانظر هنا**

([1]) القيامة:7-9.

([2]) عبد القادر، عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية. ص219.

([3]) النمل:27.

([4]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.الدار التونسية للنشر، تونس،1984م،ج19، ص256.

([5]) النمل:28.

([6]) درويش، محيي الدين: إعراب القرآن وبيانه.ط4، دار الإرشاد للشئون الجامعية، سوريا، 1415هـ، ج7، ص201.

أي" فاسمع "ماذا يرددون بعد أن ألقي إليهم الكتاب، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ "فَانظُرِي" مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[1] ، فانظري هنا أي "فكّري"[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ "فَنَاظِرَةٌ" بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[3] فناظرة هنا أي (منتظرة ومترقبة)[4]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا "نَنظُرْ "أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾[5] ننظر هنا أي نعلم ونتبيّن.

6. **السِّياق القصصي: وهو فهم القصّة من خلال مجموع الآيات التي وردت فيها، مثل قصص الأنبياء التي جاءت موزعة في غير سورة إلا قصة النبي يوسف –عليه السلام– فهي القصّة الوحيدة التي نزلت كاملة في سورة واحدة بكل تفصيلاتها وأحداثها، ومن ذلك أيضا قصص المعارك في القرآن الكريم ، فبعض المعارك نزلت في سورة واحدة وبعضها الآخر نزل في غير سورة، على سبيل المثال لا الحصر ، فإن معركة بدر ورد ذكر الآيات التي تتعلق بها في سورة آل عمران والأنفال والقمر في آيات غير متتالية، ومعركة أحد ورد ذكرها في آل عمران والأنفال في آيات غير متتالية، أما معركة الأحزاب فقد ورد ذكرها فقط في سورة الأحزاب في آيات أغلبها متتالية.**

هل يكتفي المفسّر والمتدبّر في آيات الله بفهم النّص القرآني من خلال السِّياق اللغوي أم هو بحاجة إلى معرفة ملابسات النَّص وظروفه وسبب نزوله وكل ما يحيط به ليصل إلى المعنى الأقرب إلى الصواب؟

([1]) النمل:33.

([2]) درويش، محيي الدين: إعراب القرآن وبيانه، ج7،ص203.

([3]) النمل:35.

([4]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج19،ص267.

([5]) النمل:41.

ثانيا: أنماط السياق غير اللغوي:

1. **السِّياق التاريخي: وهو دراسة النص حسب الحقبة التاريخية التي كان فيها والهدف الذي قيل من أجله ضمن السّياق الزمني ، ولا يمكن دراسة النص بمعزل عن زمنه وتاريخه، " إنّ فصل النّص عن سياقه التاريخي الذي وجد فيه هو "بمنزلة" قطع شريان الحياة عنه، فكل النُّصوص كُتبت بلغة خاصة واهتمت بعناصر ثقافية معينة؛ وذلك لأنّ اللغة بحد ذاتها عنصر من عناصر الثقافة لدى الأمم، ولهذا؛ ومن أجل فهم نص معين، لزم معرفة ثقافة البلد الذي نما وتطوَّر فيه هذا النص، والإلمام الكامل بمفاصل اللغة التي هي بمنزلة أحد أغصان شجرة الثقافة."[1] وقد يلتبس المعنى ويرتبك النص دون الالتفات إلى معطياته التاريخية، فكان من أهم ما يعين على فهم النَّص القرآني معرفة أسباب النزول، والإحاطة بحقائقها التاريخية والمكانية، كقصّة أصحاب الفيل وأقوام عاد وثمود وأصحاب الأخدود وغيرها، ولا يمكن فهم معارك الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– بمعزل عن السِّيرة النَّبويَّة.**

2. **السِّياق الاجتماعي: " اللغة ظاهرة اجتماعية، شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها، وأن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية"[2]، والسّياق الاجتماعي يُعبِّر عن العلاقات الإجتماعية للناس، وعاداتها وتقاليدها التي تُميِّزها عن غيرها، ولا شَكَّ أنَّ القرآن الكريم شرع ما يهذب السلوك الإنساني في المجتمعات، فجاء الخطاب القرآني في تشريعاته السَّمحة مراعيا ثقافة المجتمع والسِّياق الاجتماعي الذي نزل فيه، فمثلا التدرج في تحريم الخمر بداية بقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾[3] مراعاة للحياة الاجتماعية السائدة في ذلك العصر، فتحريمها في بداية الأمر سيكون أمرا صعبا، أمّا التَّدرج فسهّل الأمر، فحُرمت فيما بعد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ**

([1]) خضيّر، علي: دلالة السياق في النص القرآني. رسالة ماجستير، إشراف:عبد الإله الصائغ، الأكاديمية العربية في الدانمارك، كوبنهاغن ،2014م، ص49.

([2]) حسان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها. ص337.

([3]) النساء:43.

مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[1]. فالاجتناب تدل على التحريم ، بل هي أبلغ وأشد في النهي والزجر والتحريم.

3. **سياق الحال أو المقام: قديما قيل:(لكل مقام مقال) ، والمقام: هو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء (المقال) [2] فيتَّسق الخطاب مع المتلقِّي وحاله، فتتحول البُنى اللغوية في البناء التركيبي وفق ما يتطلبه حال المخاطب ومقامه، وعناصر اللغة الثلاثة (المخاطِب والمخاطَب والخطاب) تتشكل من خلالها اللغة المنطوقة، فيتحكَّم المخاطِب بالخطاب حسب مقام المخاطَب وحاله، فدلالة السِّياق تظهر وتتشكَّل " من ظروف أداء المقام وهي التي تشتمل على القرائن الحالية" [3] ، فيختلف الخطاب القرآني الموجَّه إلى الكفار عن الخطاب الموجَّه إلى المؤمنين وإلى النّبي –صلَّى الله عليه وسلَّم–، ويتباين خطاب المدح عن خطاب الذمِّ والتّحذير والتّهديد وغيرها من ألوان الخطاب. قوله سبحانه في شأن النبي محمد – صلَّى الله عليْه وسلَّم– تكريما له : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [4]**

رُوِيَ عن ابن الأنباري أنَّه قال: رَكِبَ الكندي المتفلسف إلى أبي العبّاس وقال له: إني لأجِد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أيِّ موضع وجدت ذلك؟ فقال :أجد العرب يقولون" :عبد الله قائم"، ثم يقولون" إنّ عبد الله قائم"، ثم يقولون" :إنّ عبد الله لقائم"، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد .فقال أبو العباس :بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم" :عبد الله قائم"، إخبار عن قيامه، وقولهم" :إنّ عبد الله قائم"، جواب عن سؤال سائل، وقوله" :إنّ عبدالله

([1]) المائدة:90.

([2]) حسان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها.ص337.

([3]) المرجع نفسه .ص338.

([4]) الأحزاب:45–46.

لقائم"، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال فما أحار المتفلسف جوابا.[1]

يظهر تنوع المعاني والأغراض البلاغية التي يُفيدها كل تركيب ويتميَّز بها عن الآخر، مراعاة للجانب الدلالي، وحال المتلقّي التي تتغير .

الفصل الأوّل

صورة معركة بدر الكُبرى

- **المبحث الأول: مُقدّمات معركة بدر.**

([1]) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص315.

- **المبحث الثاني: وصف معركة بدر.**

- **المبحث الثالث: نتائج معركة بدر.**

المبحث الأول: مقدمات معركة بدر

❖ **المطلب الأول: الاستعداد النفسي للمسلمين.**

❖ **المطلب الثاني: الاستعداد النفسي للمشركين.**

❖ **المطلب الثالث: التأثير النفسي لعدد المقاتلين قبل المعركة.**

مدخل

معركة بدر الكبرى الواقعة في السّنة الثانية للهجرة، أُولى المعارك الضّارية التي وقعت بين المسلمين والمشركين ، اهتزّ فيها كيان الكفار، وعلا شأن المسلمين ورفعوا رؤوسهم احتفاءً بنصرهم وثباتهم، أعزّهم الله وجعل من نصرهم عبرة ودروسا حتى يومنا هذا. وأغلب الآيات التي نزلت في هذه المعركة كانت في سورة الأنفال حتى سمّيت هذه السّورة بـ (سورة بدر)، وبعض الآيات الأخرى جاءت متفرقة في سور أخرى من القرآن الكريم مثل سورة آل عمران، وسورة النساء، وسورة القمر، وسورة المجادلة. ، وسمّيت بالكبرى لتمييزها عن بدر الصغرى وتسمى

(بدر الموعد أو بدر الثانية أو بدر الآخرة) التي وقعت بالسنة الرابعة للهجرة في القرب من منطقة بدر ولم تقع فيها مواجهة، وبدر اسم ماء بين مكة والمدينة سمي بذلك لصفائه كالبدر، وقيل لاستدارته، وقيل: باسم صاحبه وهو بدر بن كلدة[1].

سنبتعد في حديثنا عن معركة بدر عن المعاني الظاهرة التي امتلأت منها كتب التفسير، وسنقترب أكثر من المعاني البلاغية في الآيات التي تحدثت عن معركة بدر، وسأحرص على الترابط بين دلالة الآيات والسِّياق الدلالي تحقيقا للعلاقة التكاملية بين السياق الأصغر والسياق الأكبر، استنادا على التراكيب النَّحوية التي تشكلت منها الآيات ، وأثرها الواضح والخفي في تشكيل الصّورة المتكاملة.

اعتمدت الباحثة على التسلسل في أحداث المعركة حتى نتائجها، وانطلاقا من هذا المنهج وزعت مباحث الفصل الأول على مباحث ومطالب .

❖ المطلب الأول: الاستعداد النفسي للمسلمين.

لم يَعُدْ المسلمون المهاجرون يملكون شيئا بعد خسارتهم أرضهم وأهليهم وأموالهم، وعلى الرغم من أنَّ أهل المدينة مضيافون وأصحاب أخلاق نبيلة باحتضانهم المهاجرين، إلا أنّ الشّوق والغيرة على المال والبلد بركانه لم يخمد، فحصلت معارك عدّة و مناوشات صغيرة بين المسلمين والمشركين بعد الهجرة من مكة إلى المدينة ، منها ما لم يقع به قتال ومنها ما ظفر المسلمون

([1]) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. د.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج1،ص547.

منه بغنيمة. وبايعت الرَّسول – صلّى الله عليه وسلّم– قبائل عدّة يقطنون حول المدينة في العام ذاته.[1]

بدأت أجواء الحرب تتشكّل بين المشركين والمسلمين من بداية هجرة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم– إلى المدينة، فهم استباحوا دم الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم– وأرادوا قتله، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أنّ جزءا من هذه الأموال الموجودة في القوافل القريشية كان للمهاجرين المسلمين من أهل مكّة وقد استولى عليه المشركون ظُلما وعدوانا. فخسارة المنازل والممتلكات والإضطرار إلى الهجرة قسرا من مكة إلى المدينة زاد من رغبة المسلمين في مواجهة قوافل قريش لتعويض ما خسروه، فالرَّغبة في استرداد حقوقهم الماديَّة شكّل رافدا وحافزا نفسيًّا أوّليا لمواجهة قوافل قريش، فمع استردادهم أموالهم سيستردون شيئا من كرامتهم التي سُلبت .

صار جمع المسلمين ظاهرا في المدينة، فقويت شوكتهم، وازدادت عزيمتهم، وتعزَّزت إرادتهم، بعد أن كانوا في مكّة قِلّة مضطهدين، أصبحوا في المدينة أصحاب كيان يريدون أن يدافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأرضهم ودينهم الذي ارتضوه، فأذن لهم الله القتال دفعاً عن أنفسهم الظُلم، قال تعالى: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّـهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[2] ، فكانوا يأتون الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم– بين مضروب ومشجوج يتظلّمون إليه ، فيقول لهم: اصبروا فإنّي لم أومر بالقتال، حتّى هاجر فأنزلت الآية وهي أول آية أُذن فيها بالقتال بعد ما نُهي عنه في نيف وسبعين آية ، وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم.[3] فالشّعور بالقوة والسّماح لردِّ اعتبار المسلمين ووجودهم كان العامل النّفسي الثاني الذي أثار وحفّز المسلمين لمواجهة قوافل قريش.

([1]) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية. تحقيق: عمر تدمري، ط3، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1990م، ج2، ص244.

([2]) سورة الحج: 39.

([3]) الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط3، دار الكتاب العربي، بيروت،1407هـ ،ج3، ص160.

مقاتلة المشركين ليس بالأمر السّهل بالحسبان المنطقي، فلم يكن المسلمون قادرين على خوض حرب على كفّار مكّة، فهم لا يملكون العدّة والعتاد لمجابهة المشركين، ولكن فكرة مباغتة عير قريش وقوافلها كانت أفضل لاسترداد حقوقهم والدفاع عن أنفسهم، فهذه القوافل لا تحميها أعداد كبيرة فبالإمكان مجابهتها، وستكون القوافل أقرب إلى المدينة منها إلى مكّة، فإن نجحت الخطة سيستعيدون بعضا من أملاكهم ، ويوقعون الرّهبة في قلوب أعدائهم.

سمع رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– أنّ أبا سفيان بن حرب مقبل من الشّام في عِيرٍ فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون. وقال:" هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلَّ اللهّ يُنفِلُكُموها" [1]. فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقُل بعضهم، وذلك أنّهم لم يظنّوا أنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– يلقى حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس الأخبار ويسأل من لَقِي من الرُّكبان تخوّفا من أمر الناس، حتّى أصاب خبرا من بعض الرّكبان: أنّ محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أنّ محمداً قد عرض لها في أصحابه.[2]

لم يتوافر الاستعداد والرّغبة التي تحدّثنا عنهما سابقا لدى المسلمين جميعا في المدينة، وهذا يعود إلى طبيعة النفس الإنسانية، فبعض الناس يتنازلون عن حقوقهم مقابل الحرص على حياتهم، وبعضهم يرى أنّ التّمسك بالحق مبدأ يستحق التّضحية من أجله، فالتذبذب في الموقف في صفّ المسلمين بين موافق للقاء العِير ومتكاسل أو معارض في طبيعة الأمر أثّر على صفِّ المُتَوّجهين للقاء العير، فهم في هذه الحالة بحاجة إلى الدّعم من أقرانهم على الأقل بزيادة عددهم، فكلما كثُر العدد أمام المشركين زادت رهبتهم منهم، ولكنّ الاستجابة كانت أقل من الحاجة، وفي المقابل نجد المشركين في حالة تأهّب وترقّب، يجمعون الأخبار ويتحسّسون أمر المسلمين، ويستنفرون مكّة وأهلها للدِّفاع عنهم وعن أموالهم. لو تصوّرنا الحالة النفسيّة للفريقين لوجدنا المسلمين في حَيرة من أمرهم، بين متقدِّم ومُنسحب فتكاد ترى هذا الضّعف في البنيّة الخارجية ولكن المتوجّهين نحو العير استجمعوا كل القوى والتوكل والصبر والدعوات، أمّا

([1]) الغزالي، محمد: فقه السيرة. تخريج الأحاديث: محمد الألباني.ط1،دار القلم، دمشق، 1427هـ، ص226.

([2]) ينظر: ابن هشام : السيرة النبوية. ج2، ص249–250.

فريق المشركين فلا شك أنّ خبر استنفار المسلمين أوقع فيهم الخوف والرَّهبة مما دفعهم إلى التَّجسس والتَّرقب وطلب الدَّعم فهم في هذه الحال أضعف من جمع المسلمين القليل، حتَّى لاقوا جمعهم الكبير.

كان هدف المسلمين استرداد حقوقهم، فالمواجهة اقتصادية في الأصل، إلا أنّ قريش توجَّهت لاستعراض قوَّتها، فعلى الرغم من أنّ العير قد نجت إلا أنّهم أكملوا المَسير نحو المدينة للقتال لتعلم العرب بأمرهم وتهابهم.

هل كان المسلمون على استعداد نفسي لهذه المعركة؟ وهل يرتبط الاستعداد النفسي بالاستعداد المادي وبالزمن المناسب؟ وما هو الخطاب الإلهي للمسلمين قبيل المعركة؟ وكيف صوّر القرآن الكريم الاستعداد النفسي للمسلمين ؟

1- كرههم للقتال

ذكر الله سبحانه وتعالى كُره بعض المسلمين للقتال في قوله:{ كَما أَخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَريقًا مِنَ المُؤمِنينَ لَكارِهونَ ﴿٥﴾يُجادِلونَكَ فِي الحَقِّ بَعدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقونَ إِلَى المَوتِ وَهُم يَنظُرونَ ﴿٦﴾ وَإِذ يَعِدُكُمُ اللَّـهُ إِحدَى الطّائِفَتَينِ أَنَّها لَكُم وَتَوَدّونَ أَنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُم وَيُريدُ اللَّـهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقطَعَ دابِرَ الكافِرينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ الباطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمونَ ﴿٨﴾} [1]

يبدأ السّياق النفسي بالتّشكل بكاف التّشبيه (كما أخرجك) التي تربط كراهيّة القتال في معركة بدر بكراهيّة اقتسام الغنائم (الأنفال) في الآية الأولى من السورة: { يسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[2]، ويُعدّ هذا الرابط تحقيقا للتّواصل بين السّياق الأصغر والسّياق الأكبر ، إذ إنّ كراهية القتال متَّصلة بكراهية بعض المسلمين لنظام اقتسام الأنفال، فالمحور النّفسي في كلا المشهدين يجسّد الكراهيَّة التي

([1]) الأنفال:5 – 8.

([2]) الأنفال: 1 .

تتّصل بالحرب في الموقفين باختلاف الأسباب والمسوغات، فكراهية اقتسام الأنفال تأتي بعد انتهاء الحرب التي انتصر فيها المسلمون، وكراهية القتال تأتي قُبيل بدء معركة بدر.

ويُضمر التشبيه في بداية الآية تذكير المسلمين لما كرهوه لكي تتحقق العبرة والموعظة مما يكرهونه من قتال قريش، إذ إنّ ردّ الأنفال لله والرّسول، وقسمتها بينهم على السَّواء، وكراهة بعض المؤمنين لهذه التسوية. ومن قبل كراهة بعضهم لاختصاص بعض الشباب بالنَّصيب الأوفر منها شأن يشبه إخراج الله لك من بيتك- بالحقّ- لمقاتلة الفرقة ذات الشّوكة وكراهة بعض المؤمنين للقتال؛ لأنّهم لم يستعدّوا لقتال، إنّما خرجوا لملاقاة الفئة الضّعيفة التي تحرس العير فلمّا علموا أنّ قريشاً قد نفرت بخيلها ورجلها، وشجعانها وفرسانها، كرهوا لقاءها كراهيّة شديدة. لقد ضرب الله هذا المثل ليستيقنوا أن الخيرة فيما اختاره الله في الأنفال وغير الأنفال وأنّ النّاس لا يعلمون إلّا ما بين أيديهم والغيب عنهم محجوب.[1]

وترى الباحثة أن دلالة الخروج في الآية تستحضر مشهد خروج المسلمين من مكة ؛ فقد أخرج الله -عز وجلّ- المسلمين والرسول من مكة بأمره ووحي منه وليس بأمر المشركين، وكان هذا الحق والاختيار هو من عنده ، وكل أمر منه حق، فهم لم يدروا أنّ خروجهم من مكّة سيجعل لهم كيانا مستقلا وقوة أكبر بعيدا عن المشركين بعد أن كانوا مستضعفين، ولا يعلمون أنّ هذه الهجرة سيتلوها نصر وفوز عظيم، فالتّشبيه الحاصل هنا أنّه سبحانه وتعالى أخرجك من بيتك في المدينة لملاقاة النفير وقتالهم بالحق، كما أخرجك من بيتك في مكة بالسابق للنجاة من المشركين -أيضا- بالحق وفي الحالتين كنتم كارهين الخروج، أي أخرجك المرة الأولى من مكة وأخرجك المرة الثانية من المدينة، وفي الأولى أخرجك للهرب من بطش المشركين وفي الثانية أخرجك لقتالهم وفي كلا الخروجين خير مضمر يُحمد عقباه، والحق هنا بمعنى الحكمة والقدر ومشيئة الله وأمره.

فالتشبيه هنا تمثيلي، مثّل سبحانه حال المسلمين حين خروجهم من مكة بحال خروجهم من المدينة وفي كلتا الحالتين هم كارهون الخروج، والرّابط بين الحالتين أو وجه الشبه هو كراهية المؤمنين لما هو خير لهم ظنّا منهم بأنّه شر لهم.وهو تشبيه معقول بمعقول، أي يُدركان بالعقل.

([1]) ينظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ط1، دار الشروق، القاهرة، 1972م، ج3، ص147.

وينبغي تقدير المحذوف لفهم التّشبيه بين المشهدين المذكورين؛ فالكاف (كما) تستدعى مشبّها وهو غير مصرّح به في الآية وفيه خفاء، ومن هنا اختلفوا في بيانه و إعرابه على وجوه، فاختار بعضهم أنه خبر مبتدأ محذوف هو المشبه، أي حالهم هذه في كراهة ما وقع في أمر الأنفال كحال إخراجك من بيتك في كراهتهم له[1]، أو بتقدير مبتدأ محذوف، وهو اسم إشارة لما ذكر قبله، تقديره: هذا الحال كحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق ووجه الشبه هو كراهية المؤمنين في بادئ الأمر لما هو خير لهم في الواقع، وإمّا بتقدير مصدر لفعل الاستقرار الذي يقتضيه الخبر بالمجرور في قوله:(الأنفال لله وللرسول)، إذ التقدير: استقرت لله والرسول استقرارا كما أخرجك ربك، أي فيما يلوح من الكراهية والامتعاض في بادئ الأمر، ثم نوالهم النّصر والغنيمة في نهاية الأمر. والمقصود من هذا الأسلوب: الانتقال إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر وما ظهر فيه من دلائل عناية الله تعالى برسوله –صلى الله عليه وسلم –وبالمؤمنين .

واختلف المفسرون واللغويون في دلالة الكاف التي تربط بين مشهدين نفسيين يقومان على الكراهية ، وذلك فِي قَوْلِهِ تعالى : {كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ}، وتقديره الأنفال لله والرسول وَإِنْ كَرِهُوا كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَرِهُوا. وَقِيلَ: تَقْدِيرُهُ: امْضِ لِأَمْرِ اللَّهِ فِي الْأَنْفَالِ وَإِنْ كَرِهُوا كَمَا أمضيت لِأَمْرِ اللَّهِ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ لِطَلَبِ الْعِيرِ وَهُمْ كَارِهُونَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: مَعْنَاهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ كَمَا أَنَّ إِخْرَاجَ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ بَيْتِهِ بِالْحَقِّ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ كَرِهَهُ فَرِيقٌ مِنْكُمْ. [2]

وَتفيد الْبَاءُ فِي (بِالْحَقِّ) تخفيف الكراهية للقتال والخوف من الحرب؛ لأنّ الباء لِلْمُصَاحَبَةِ، أَيْ إِخْرَاجًا مُصَاحِبًا لِلْحَقِّ، وَالْحَقُّ هُنَا الصَّوَابُ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ أَمْرًا مُوَافِقًا لِلْمَصْلَحَةِ فِي حَالِ كَرَاهَةِ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ الْخُرُوجَ.[3]

([1]) ينظر:الألوسي: روح المعاني. تحقيق:علي عطية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ، ج5، ص158.

([2]) ينظر: البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود : معالم التنزيل في تفسير القرآن. تحقيق : عبد الرزاق المهدي، ط1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،1420 هـ ،ج2 ، ص269.

([3]) ينظر : ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج9، ص264.

ينبغي الوقوف على الخطاب الموجّه للرسول –صلّى الله عليه وسلّم– لتأمُّل دلالاته، في قوله تعالى (أخرجك)، فالخروج لم يكن للرسول –عليه الصلاة والسلام– وحده، بل كان الصحابة معه، فعدم توجيه الخطاب للمؤمنين مع الرَّسول –صلّى الله عليه وسلّم– فيه عتاب وتوبيخ لهم وتهميش لفعلهم، فذكرهم تباعا في تذييل الآية وذكر كرههم في نهايتها لعدم استحبابهم لهذا الفعل، وأكد كرههم بمؤكدين(إنّ، واللام) تشديدا على إنكار فعلتهم، جاء في (الإتقان): " ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه"[1].

ويؤكِّد الموقع النحوي لجملة الحال في قوله تعالى : { وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} على الفئة التي كرهت الخروج للقتال، وهُمُ الَّذِينَ تَثَّاقَلُوا وَقْتَ الْعَزْمِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَالَّذِينَ اخْتَارُوا الْعِيرَ دُونَ النَّفِيرِ. وتتضمن جملة الحال السَّابقة التي جاءت مؤكدة بـ (إنّ) واللام في (لكارهون) عتابا للفئة التي كرهت وخافت القتال، وتعجُّبا من موقفهم، إذ إنّ مجيء الخبر في جملة الحال مؤكَّدا بأداتين تَنْزِيل السَّامِعِ غَيْرِ الْمُنْكِرِ لِوُقُوعِ الْخَبَرِ مَنْزِلَةَ الْمُنْكِرِ؛ لِأَنَّ وُقُوعَ ذَلِكَ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ لَا يَقَعَ، إِذْ كَانَ الشَّأْنُ اتِّبَاع مَا يُحِبُّهُ الرَّسُولُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَوِ التَّفْوِيضُ إِلَيْهِ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَكْرَهُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ. وَيَسْتَلْزِمُ هَذَا التَّنْزِيلُ التَّعْجِيبَ مِنْ حَالِ الْمُخْبَرِ عَنْهُمْ بِهَذِهِ الْكَرَاهِيَةِ فَيَكُونُ تَأْكِيدُ الْخَبَرِ كِنَايَةً عَنِ التَّعْجِيبِ مِنَ الْمُخْبَرِ عَنْهُمْ.[2]

وينبغي أن نتأمَّل لفظة (المؤمنين) فلم يذكر (المسلمين) ولكنّهم مؤمنون حقاً، درجتهم عند الله رفيعة وعالية وهم في درجة أعلى من الإسلام وهي الإيمان، ولكن لماذا كرهوا القتال على الرغم من أنّهم مؤمنون؟

القتال أمر غير محبب للنفس البشرية المتعلقة بالحياة، قال تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }[3]، فكانوا يَرون أنفسهم يُساقون إلى الموت، كان تصوّرهم القاطع بأنّهم سيُقتلون

([1]) السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974. ج3، ص217.

([2]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج9، ص299.

([3]) البقرة:216.

إذا خاضوا هذه المعركة وذلك حسب المعطيات التي بين أيديهم مقابل ما بين أيدي المشركين من عدّة وعتاد.

ويكشف السّياق النفسي قُبيل معركة بدر عن طبيعة النَّفس الإنسانيّة التي تتوزّع بين ثُنائيات الجُرأة والخوف ، والشّجاعة والتّردُّد ، والإقدام على المواجهة وكراهيّتها ، وهذه النّفس الإنسانيّة " تجعلنا نتواضع في تقديرنا لمُتطلبات الاعتقاد في مواجهة الواقع فلا نغفل طاقة النّفس البشريّة وذبذباتها عند المواجهة، ولا نيئس من أنفسنا، ولا من النفس البشرية جملة حين نراها تهتّز في مواجهة الخطر – على الرغم من طمأنينة القلب بالعقيدة– فحسب هذه النفس أن تثبت بعد ذلك وتمضي في الطريق، وتواجه الخطر فعلاً، وتنتصر على الهزة الأولى! .. لقد كان هؤلاء هم أهل بدر".[1]

وفي سياق الخروج إلى المعركة كانت المقابلة بين حال المؤمنين وحال الكافرين ، فقد صوّر الله –سبحانه وتعالى– حال خروج المؤمنين بالفعل الماضي (أخرجك ربك من بيتك) فخروج المسلمين كان بأمر الله ومشيئته الحق ، أمّا الكافرون فذكر الله خروجهم بصيغة الفعل الماضي (خرجوا) فهم خرجوا من تلقاء أنفسِهم مصرّين على الكفر والصّدّ عن سبيل الله .

ونجد اختلاف مكان خروج المسلمين والمشركين، فقوله –سبحانه وتعالى–: { كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ) وقوله{ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِم} ، فخروج المسلمين كان من البيت، وخروج الكافرين كان من الدِّيار، فلماذا لم يخرج الكافرون من بيوتهم ، وخرجوا من ديارهم؟

من المرجّح أنّ الخروج من البيت يدُلّ على قلّة عدد المسلمين؛ لأنّ البيت مفرد ويدُلّ على قلَّة ساكنيه، أمّا الّديار فجمع دار تدلّ على الكثرة، والبيت هو المسكن ومكان المبيت فيه الراحة والأمان، ولا يشترط أن يكون مبنيا؛ قد يكون خيمة، أو شقة، أو كهف، ويأوي أفراد الأسرة، وذُكرت كلمة البيت في القرآن غير مرة بمعنى الكعبة المشرّفة، أمّا الدِّيار وهو ما يدار على الجدار ، ويشتمل مسكن الإنسان وتوابعه من مسكن الحيوان وما حول البيت من مساحة، وكأنَّ المعنى المُضمر بأنَّ البيت هو الكعبة للمسلمين، فأضافها سبحانه إلى الرّسول والمسلمين بقوله (بيتك)، وفي ذلك إشارة إلى أن المسلمين رحلوا عن بيوتهم وهذا إشارة إلى تعميرهم في المدينة

([1]) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3، ص1481.

أو إشارة إلى قلة عددهم أو عدم راحتهم في مكة لعلاقة المشركين بهم ، والدّيار أثبت وأكثر عددا فكانت للمشركين.

2- جدالهم مع الرسول – صلى الله عليه وسلم-.

{ يُجادِلونَكَ فِي الحَقِّ بَعدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقونَ إِلَى المَوتِ وَهُم يَنظُرونَ}[1]

(يجادلونك) أي يكرّرون ذلك إرادة أن يفتنوك عن اللقاء للجيش بالرّجوع عنه ، ولمّا كان لقاء الجيش أمرا قد حتمه الله فلا بد من وقوعه مع أنّه يرضيه، قال: (في الحق) أيّ الذي هو إيثار الجهاد(بعد ما تبين) أي وضح وضوحا عظيما بقرائن الأحوال بفوات العير وتيسير أمر النفير وبإعلام الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم- لهم، كقوله: " والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم"[2].

ورد في لسان العرب:" الجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة"[3]، والمُتأمل في الفعل (يجادلونك) يتخيّل حال المسلمين من توتر وارتباك وخوف، ممّا جعلهم يجادلون رسولهم –صلّى الله عليه وسلّم- بأمرٍ هو حقّ عليهم، فصوّر هذا الفعل حالتهم النفسيّة، وحالة المد والجزر التي كانوا يخلقونها امتناعا عن القتال، وارتباط الفعل بكاف المخاطبة العائدة على الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم- والبُعد عن مخاطبة المؤمنين، والحديث عنهم بياء المضارعة الدّالة على ضمير الغائب فيها عتاب وتقريع لهم، فكيف تجادلون الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم- بأمر حق عليه؟، ووضح لكم أمره عيانا فلا مجال فيه للتراجع أو الخنوع.

ويأتي الفعل المضارع (تَبَيَّنَ) في قوله تعالى : {يُجادِلونَكَ فِي الحَقِّ بَعدَ ما تَبَيَّنَ} مُحمَّلا بالبشرى والنّصر لينزع الخوف من الصّدور ولتطمئن القلوب، وتهدأ هواجس النّفس، فإذا قلنا: تبيَّنَ الأَمرُ يكون لازِماً وواقِعاً، كما في وقوله –عز وجل- : {وأَنزلنا عليكَ الكتاب تِبْياناً لكلّ

([1]) الأنفال: 6.

([2]) ينظر: البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ج9، ص 222-224.

([3]) لسان العرب. مادة جدل.

شيءٍ}[1] ؛ أَي بُيّن لك فيه كلُّ ما تحتاج إليه أَنت وأُمتُك من أَمر الدِّين.[2] والفعل (تَبَيَّنَ) في الآية يعني ظَهَرَ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ لَهُمُ النَّصْرَ، وَهَذَا التَّبَيُّنُ هُوَ بَيّنٌ فِي ذَاتِهِ سَوَاءٌ شَعَرَ بِهِ كُلُّهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي الِاخْتِلَافُ فِيهِ، فَنَصْرُهُمْ إِذَنْ مَضْمُونٌ، وكَانَ بَيِّنًا أَنَّهُمْ إِذَا لَقُوا النَّفِيرَ يَنْصُرُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، ثمَّ رَأَوْا كَرَاهَةَ النَّبِي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَمَّا اخْتَارُوا الْعِيرَ، فَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا فِي الْيَقِينِ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَقُوا الْمُشْرِكِينَ يَنْتَصِرُونَ عَلَيْهِم لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنَّهُمْ فَضَّلُوا غَنِيمَةَ الْعِيرِ عَلَى خَضْدِ شَوْكَةِ أَعْدَائِهِمْ وَنُهُوضِ شَوْكَتِهِمْ بِنَصْرِ بَدْرٍ، فَذَلِكَ مَعْنَى تَبَيُّنِ الْحَقِّ أَيْ رُجْحَانِ دَلِيلِهِ فِي ذَاتِهِ، وَمَنْ خُفِيَ عَلَيْهِ هَذَا التبيّن مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَعْذُرْهُ اللَّهُ فِي خَفَائِهِ عَلَيْهِ.[3]

ويدلّ الفعل يساقون في قوله تعالى: {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوتِ وَهُمْ يَنْظُرُون}، أنّهم يسوقهم سائق جبرا ويجرهمم جرا، ولا قدرة لهم على ممانعته؛ ولأنّها كانت أول غزوة غزاها النبي–صلّى الله عليه وسلّم– وكان فيها لقاء، وكانوا غير متأهّبين للقتال غاية التأهّب، إنّما خرجوا للقاء العير.[4] فهم أشبه بمن يُساق ويجرُّ إلى الموت وهو لا يستطيع الدِّفاع عن نفسه فلا يملك مقوّمات القتال، وكانت حالهم(وهم ينظرون) والنَّظر يعني الثَّبات أو بُطء الحركة فهم لا يستطيعون فعل شيء يقيهم من هذا الموت، وتدُلُّ الصّورة على حالة الرُّعب التي عاشوها والخوف الذي تملَّكهم، والكشف الدقيق للحالة النفسيّة المتوتّرة التي سيطرت عليهم ، فلذلك كان لا بد من التَّعزيز الرَّبَّاني، ليُعيد لهم الثِّقة والتّفاؤل والأمل بالنّصر، فأنزل سبحانه وتعالى وعده، وهو الذي لا يخلف وعده.

ويشتمل الفعل (يُساقون) على البنية النفسيّة للخوف والكراهية من خلال التعبيرات الجسمانيّة التي يُضمرها الفعل المضارع الذي يرسم حركتهم مُجبَرين مسوقين ، فتبدو ملامح الوجوه

([1]) النحل:89.

([2]) لسان العرب . مادة بين.

([3]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج9، ص267.

([4]) ينظر: البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. ج9، ص 222–224.

المعبّرة عن يأس النفوس إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فهم يائسون من نتيجة المعركة، ويرون موتهم فيها، وقد جسّم الشعور اليائس، في نظراتهم الزّائغة الدّالة على خوفهم واضطرابهم.[1]

وتعقد جملة {كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ} مقاربة بين حالة المجادلة من الفئة التي تكره الحرب وحالة من يُساقون إلى الموت، (أَيْ حَالَتُهُمْ فِي وَقْتِ مُجَادَلَتِهِمْ إِيَّاكَ تُشْبِهُ حَالَتُهُمْ لَوْ سَاقَهُمْ سَائِقٌ إِلَى الْمَوْتِ، وَالْمُرَادُ بِالْمَوْتِ الْحَالَةُ الْمُضَادَّةُ لِلْحَيَاةِ وَهُوَ مَعْنًى تَكْرَهُهُ نُفُوسُ الْبَشَرِ، وَيُصَوِّرُهُ كُلُّ عَقْلٍ بِمَا يَتَخَيَّلُهُ مِنَ الْفَظَاعَةِ وَالْبَشَاعَةِ).[2]

والتّشبيه في هذا السّياق تشبيه تمثيلي لانتزاع وجه الشّبه من متعدد، يقول الجرجاني: " ينبغي أن تعلم أنّ المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو أولى بأن يُسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين حتّى إنّ التشبيه كلما أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر" [3]، فالجملة الأولى في التّشبيه هي مجادلتهم للرسول –صلّى الله عليه وسلّم– لكرههم القتال، والجملة الثانية هي دفعهم إلى الموت لكرههم أن يموتوا.

وجُمْلَةُ {وَهُمْ يَنْظُرُونَ} حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ يُساقُونَ. وَمَفْعُولُ يَنْظُرُونَ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (إِلَى الْمَوْتِ) ، أَيْ: وَهُمْ يَنْظُرُونَ الْمَوْتَ؛ لِأَنَّ حَالَةَ الْخَوْفِ مِنَ الشَّيْءِ الْمُخَوِّفِ إِذَا كَانَ مَنْظُورًا إِلَيْهِ تَكُونُ أَشَدَّ مِنْهَا لَوْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُسَاقُ إِلَيْهِ وَلَا يَرَاهُ؛ لِأَنَّ لِلْحِسِّ مِنَ التَّأْثِيرِ عَلَى الْإِدْرَاكِ مَا لَيْسَ لِمُجَرَّدِ التَّعَقُّلِ.[4]

يرسم توالي الأحوال في الذِّهن صورة عميقة ومُفصَّلة عمّا كانوا يمرُّون فيه من تخبُّط وخوف ورغبة بالانسحاب، فقد وصف الله حالهم بأنَّهم (كارهون) و(كَأَنَّمَا يُسَاقُوْنَ إِلَى الْمَوتِ وَهُمْ

([1]) ينظر: الراغب ، عبد السلام أحمد : وظيفة الصورة الفنية في القرآن. ط1، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، 2002م، ص236.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير . ج9 ، ص268.

([3]) الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة. تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت، ص87.

([4]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير . ج9 ، ص268.

يَنْظُرُون) فعلّل سبب حالهم الأولى بحالهم الثانية، وكأنّ دقّات قلوبهم تتسارع رهبة من شدّة الموقف ليسلبها الموت، وهم ينظرون لا حيلة لهم.

3- تفضيلهم ملاقاة العير على النفير.

يهدِفُ الاستئناف في قوله تعالى: { وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ } [1] إلى بيان جميل صنع الله تعالى بالمؤمنين مع ما بهم من الجزع وقلّة الحزم، وفي قوله:(أنّها لكم) بدل اشتمال من إحدى الطائفتين يُبيّن البدل كيفيّة الوعد، أي يعدكم أنّ إحدى الطّائفتين كائنة لكم مختصة بكم تتسلطون عليها تسلّط الملّاك فيها كيفما شئتم.[2]

وتُسهم الاستعارة في الكشف عمّا تُضمره النُّفوس في سياق كراهية الحرب ، إذ إنَّ لفظ (الشَّوكة) في قوله تعالى : {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}[3] اسْتِعَارَةٌ لِلْبَأْسِ، يُقَالُ: فُلَانٌ ذُو شَوْكَةٍ، أَيْ ذُو بَأْسٍ يُتَّقَى كَمَا يُسْتَعَارُ الْقَرْنُ لِلْبَأْسِ فِي قَوْلِهِمْ: أَبْدَى قَرْنَهُ، وَالنَّابُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِمْ: كَشَّرَ عَنْ نَابِهِ، وَذَلِكَ مِنْ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ أَيْ تَوَدُّونَ الطَّائِفَةَ الَّتِي لَا يُخْشَى بَأْسُهَا تَكُونُ لَكُمْ أَيْ مِلْكَكُمْ فَتَأْخُذُونَهُمْ.[4] وتتمثّل الاستعارة بتشبيه نفير جيش قريش بقوّتهم وعدّتهم وعتادهم بالشّوكة التي تملك رأسا حادّا يُسبب الألم ، فلذلك كانوا يودّون لو أنّ عِير أبي سفيان تكون لهم ؛ لأنّ العدد والعتاد فيها قليل يناسب جاهزيتهم. وجاءت الجملة الاستئنافية {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ} لبيان الحكمة الدّاعية إلى اختيار ذات الشّوكة ونصرهم عليها مع إرادتهم لغيرها.[5]

وتشتمل البنيّة الدّلالية العميقة والخلايا النّفسية في سياق معركة بدر على حزمة من الإشراقات الدّلاليّة التي تنطوي على مفاهيم تربويّة تُراعي طبيعة النّفس الإنسانيّة التي تتحول بفضل

([1]) الأنفال: 7.

([2]) ينظر: الألوسي: روح المعاني. ج9، ص173.

([3]) الأنفال: 7.

([4]) ينظر : ابن عاشور: التحرير والتنوير . ج9 ، ص270 .

([5]) ينظر: الألوسي: روح المعاني. ج9، ص 173.

الخطاب الرَّبَّاني من الكراهية إلى الشّجاعة والإقدام، ومن الاضطراب إلى الطّمأنينة بالوعد الرَّبَّاني {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحدَى الطَّائِفَتَينِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِين} .

والكناية في (يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِين) دلالة على استئصالهم بالهلاك فإذا أهلك آخرهم لزم هلاك أوّلهم ، وفيه بشرى للمؤمنين ورفع لعزيمتهم، وأضمر الفاعل في سياق الحديث عن الكافرين تحقيرا لهم وتَنزِيها له سبحانه وتعالى .

ويَتضمّن الوعد الرَّبَّاني مشكلة وسببا وحلا فالمشكلة: أنّهم لا يريدون القتال، والسبب: أنّهم خائفون من قتال المشركين لطُغيان قوَّتهم عليهم، والحل المقترح: أنّ الله وعدهم إحدى الطائفتين أنّها لهم وهو الذي لا يخلف وعده. والتّصوير بقطع الدَّابر يوحي بالاستئصال الكامل للكافرين. ويُلاحظ في الصُّورة التَّركيز على قوَّة الله في الحدث.[1]

ويتجلّى البعد النّفسي بين الفعل (تودّون) المسند للمسلمين و الفعل (يريد) المسند إلى الله– عز وجل–: فالفعل (تودّون) يدلّ على الودّ والمحبة وفيه من المشاعر ما يثير العاطفة ويستهوي النفوس، فجاء المعنى الرقيق (تودون) بمعنى تحبون لو أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم؛ لأنّ النّفس تميل إلى الراحة والدّعة وتبتعد عن المصاعب والتعب، أمّا (يريد الله) فهو أمر الله الحاصل لا محالة، (فإذا أراد شيئا إنّما يقول له كن فيكون)، ولا مفر من إرادته، فلم يقل هنا (وتودّون .. ويودّ الله) لأنّه لو قال ويودّ الله لجعل في أمر القتال تخييرا لا تيسيرا؛ لأن في الودّ طلبا يخيّر فيه المرء، فعندما علم المؤمنون أنّ هذا أمر الله وإرادته فلا نزاع في أمره ولا جدال.

وصوّرت الآيات ما يجول في أذهانهم وما تستشعره قلوبهم، فعندما تحاكي الإنسان بطريقة تشعره بأنّك تفهم ما يريد ، وتعرف ما يجول في صدره وعقله تصبح أكثر قربا منه، وتشعره بالطمأنينة والسّكينة بأن تشاطره فكره ومشاعره، فذَكر الله لهم أنه يعلم ما يودّون وما يريدون.

ذكر الله –سبحانه وتعالى– لفظة الحقّ غير مرّة تعزيزا لفكرة إعلاء رسالة الإسلام، وفي المُقابل ذكر الباطل مرّة بعد الحق، دلالة على ضعفه ودحضه، ولا تخفى العلاقة البلاغية بين لفظتي (

([1]) الراغب، عبد السلام أحمد: وظيفة الصورة الفنية في القران، ص237.

الحق والباطل) فالطّباق هنا بين الحق والباطل تأكيد على أهمّية الحقّ والدفاع عنه، وأثار في النفس الكره للباطل وضرورة قطعه.

والدّعم النّفسي في مشهد القلق والخوف أمر مهم لتثبيت العزيمة في قلوب المؤمنين، فبشائر الله تعالى لا تنفذ ومنها قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[1]، يقول المفسّرون إنّ الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– ردّدها قبيل معركة بدر، قال عمر بن الخطاب عندما نزلت هذه الآية: أيّ جمع سيهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي –صلى الله عليه وسلم– يثب في الدرع، ويقول "سيهزم الجمع ويولون الدبر". أي لم يتبين له المراد بالجمع الذي سيهزم ويولّي الدبر، فإنه لم يكن يومئذ قتال ولا كان يخطر لهم ببال.[2]

روي أنّ أبا جهل قال يوم بدر: " نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه" ، فإذا صحّ ذلك كانت الآية من الإعجاز المتعلّق بالإخبار بالغيب المستقبلي، فيه بشارة للرّسول وأصحابه، والهزم: الغلب، والسين لتقريب المستقبل، وبُني الفعل للمجهول (سيُهزم) لظهور أنّ الهازم المسلمون. ويولّون: يجعلون غيرهم يلي، فهو يتعدى بالتضعيف إلى مفعولين وحذف مفعوله الأول هنا للاستغناء عنه إذ الغرض الإخبار عنهم بأنّهم إذا جاء الوغى يفرون ويولّونكم الأدبار. وأفرد الدّبر، والمُراد الجمع؛ لأنّه جنس يصدق بالمتعدد، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن، على أن انهزم الجمع انهزامة واحدة ولذلك الجيش جهة تول واحدة وهذا الهزم وقع يوم بدر.[3]

أسلوب الخطاب الغيبي في هذه الآية والإشارة فيه إلى المستقبل جعل في نفوس المسلمين طمأنينة ويقينا بالنّصر ، والهزيمة ستكون للمشركين ، فهم الذين تقدموا من مكة إلى جهة المدينة، أمّا المسلمون فكانوا أكثر قربا منهم إلى المدينة ، ومعركة بدر هي الأولى فلم يسبقها معركة ذات جمع غفير من المشركين فلفظة (الجمع) تدلّ على العدد الكبير فكان الجمع من غالبية قبائل قريش، فهذه الإشارة بالنّصر لها الأثر الكبير في تقوية النفوس والتوكل على الله والثبات حتى النصر.

([1]) سورة القمر :45.

([2]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج27، ص213.

([3]) ينظر: المرجع نفسه. ج27، ص 212، 213.

❖ المطلب الثاني: الإستعداد النفسي للمشركين.

كيف صوّر القرآن حالة المشركين قبل المعركة؟

نجد في وصف المشركين قبل القتال غير آية في سورة الأنفال، تتداخل معها نصائح للمؤمنين.

1. طلبهم للنصر

قال تعالى:{ إِن تَستَفتِحوا فَقَد جاءَكُمُ الفَتحُ وَإِن تَنتَهوا فَهُوَ خَيرٌ لَكُم وَإِن تَعودوا نَعُد وَلَن تُغنِيَ عَنكُم فِئَتُكُم شَيئًا وَلَو كَثُرَت وَأَنَّ اللَّـهَ مَعَ المُؤمِنينَ }[1]

في هذه الآية قولان ذكرهما الرازي في التفسير الكبير[2].

جاء أسلوب الشّرط في الآية موزّعا على ثلاثة اختيارات تختزل أبعادا نفسيّة لصورة استعداد الكافرين لمعركة بدر؛ أوّلها : صورة الكافرين الذين أضمروا القلق والرهبة والترقّب من نتائج معركة بدر، فلجأوا إلى الدّعاء والتعلق بأستار الكعبة طلبا للنصر[3]. كما ذكر جمهور المفسرين في تفسير قوله تعالى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْح} ، فالاستفتاح في الآية بمعنى الاستنصار[4]، أي طلب النّصر على المؤمنين . ومن المرجّح أنّ العدول عن لفظ الطلب أو الاستنصار إلى لفظ (تستفتحوا) في فعل الشّرط جاء بهدف تحقيق تجانس لفظي مع جواب الشّرط ، واللّافت أنّ التجانس اللّفظي بين فعل الشّرط وجوابه تحوّل إلى تضاد دلالي، إذ إنّ

([1]) سورة الأنفال: 19.

([2]) الأول: أنّه خطاب للكفار، روي أنّ أبا جهل قال يوم بدر: اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر، وروي أنه قال: اللهم أيُنا كان أقطع للرحم وأفجر، فأهلكه الغداة. ولمّا أراد المشركون الخروج إلى بدر أخذوا أستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين، فأنزل الله هذه الآية، والمعنى: إن تستفتحوا أي تستنصروا لأهدى الفئتين وأكرم الحزبين فقد جاءكم النصر، وقال آخرون : إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء، فأوّلوا معنى الفتح بالنصر أو القضاء، وورد هذا التفسير في غالبية كتب التفسير وأجمع عليه المفسرون. أمّا الوجه الثاني للتفسير فلم نجده إلّا عند الرازي في التفسير الكبير وهو أن يكون الخطاب للمؤمنين، روي أنّه عليه السلام لمّا رأى المشركين وكثرة عددهم استغاث بالله، وكذلك الصحابة وطلب ما وعده الله به من إحدى الطائفتين وتضرع إلى الله فقال: (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) والمراد أنّه طلب النصرة التي تقدم بها الوعد، فقد جاءكم الفتح أي حصل ما وعدتم به فاشكروا الله والزموا طاعته. قال القاضي: وهذا القول أولى لأنّ قوله:(فقد جاءكم الفتح) لا يليق إلا بالمؤمنين ، أمّا لو حملنا الفتح على البيان والحكم والقضاء فلم يمتنع أن يراد به الكفار. يُنظر : الرازي: التفسير الكبير. ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج15، ص468.

([3]) وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعانى، إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنّا على حق فانصرنا. وروي أنهم قالوا :اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين. وروي أن أبا جهل قال يوم بدر:اللهم أيّنا كان أهجر وأقطع للرحم فأحنه اليوم، أي فأهلكه. يُنظر: الزمخشري: الكشاف.ج2، ص208.

([4]) لسان العرب.مادة فتح.

استفتاح الكافرين أو استنصارهم لم يُستجب له، ولا فائدة مرجوّة منه، فالدّعاء والتّعلق بأستار الكعبة لا يُجدي ما دام الغرض من الاستنصار بعيدا عن مرضاة الله.

وعطفا على ما تقدّم صوّر أسلوب الشّرط الأول في الآية البعد النّفسي للكافرين الذين فقدوا الثقة بدعائهم وتعلقهم بأستار الكعبة ؛ لأنّ الفتح والنّصر كان وعدا من الله للمؤمنين . وفي أسلوب الشّرط تهكّم وسخرية من المشركين[1]؛ لأنّ الضمير (كم) في (جاءكم) موجّه للمشركين في حين أنّ الفتح والنّصر كان للمؤمنين ، وفي هذا عدول من خطاب من (جاءهم) للمؤمنين وهو المعنى المقصود إلى (جاءكم) للمشركين وهو المعنى الذي يُضمر تهكُّما وسخرية . وثانيها : تتضمن دلالة التّقريع للمشركين بسبب ديمومة عداوتهم للمسلمين ، ففي قوله تعالى: (وإن تنتهوا فهو خير لكم) يتضمن الفعل (تنتهوا) في أسلوب الشّرط الثاني دعوة المشركين للكفّ عما يفعلون ، كما أنّ اختيار لفظ (تنتهوا) دون غيره من البدائل اللغوية المناظرة في المعنى (الكف ، الترك وغيرهما) يُشير إلى الانتهاء، و يُضمر معنى النّهي عن أي أمر لا يتّفق مع مرضاة الله . وإذا كان أسلوب الشّرط الأول قد أفاد دلالات التوبيخ وسلب الثقة من نفوس الكافرين، وزرع القلق والخوف في قلوبهم، فإنّ أسلوب الشرط الثّاني أفاد النّصح والإرشاد بالكفّ عن الضّلال ومعاداة المسلمين. وثالثها : يتضمن حذفا مفهوما من السّياق العام للآية ، فقوله تعالى في أسلوب الشرط الثالث : (وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ) ، أي إن تعودوا إلى ما كنتم عليه من الاستنصار على المسلمين وعداوتهم ، نعُد لهزيمتكم كما هُزمتم في معركة بدر ، ولا تخفى دلالة التّهديد في أسلوب الشرط الثالث . ويُفضي التأمل في تتابع دلالات أسلوب الشّرط في مساراته الثلاثة إلى رصد السِّياق النَّفسي لاستعداد المشركين لمعركة بدر.

2.حالة المشركين عند الخروج

يُشكِّل الحال (بطرا) في قوله تعالى: ﴿وَلا تَكونوا كَالَّذينَ خَرَجوا مِن دِيارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النّاسِ وَيَصُدّونَ عَن سَبيلِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ بِما يَعمَلونَ مُحيطٌ ﴾[2] البؤرة الدَّلالية للحالة النفسيّة التي

([1]) ينظر: الزمخشري: الكشاف.ج2،ص208.

([2]) الأنفال:47.

اتّصف بها المشركون حينما خرجوا لملاقاة المسلمين في معركة بدر ، ويصوّر الموقع النّحوي للحال الهيئة التي كانوا عليها في أثناء خروجهم واستعدادهم لمعركة أحد . وإذا علمنا أنَّ من معاني (البطر) التّبختر والطّغيان في النّعمة ، وشدّة المرح ، والطُّغيان على الحقِّ والتكبُّر عليه وعدم قبوله[1] – وهي صفات وهيئات الكافرين حينما خرجوا إلى معركة بدر – فلماذا عطف لفظ (الرئاء) على البطر؟ ألا تكفي دلالات البطر لوصف الحالة النفسيّة والهيئة المرئيّة لخروج المشركين ؟ تفيد دلالة البطر وصفا للشّعور الداخلي والهيئة الخارجية ، ولا تفيد القصد والهدف للخروج إلى المعركة؛ لذا جاء العطف على الحال بلفظ الرياء لينفي الهدف السامي والمقصد الشريف من الخروج إلى الحرب قُبيل معركة بدر. ((وَالرِّيَاءُ عِبَارَةٌ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى إِظْهَارِ الْجَمِيلِ مَعَ أَنَّ بَاطِنَهُ يَكُونُ قَبِيحًا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النِّفَاقِ أَنَّ النِّفَاقَ إِظْهَارُ الْإِيمَانِ مَعَ إِبْطَانِ الْكُفْرِ، وَالرِّيَاءُ إِظْهَارُ الطَّاعَةِ مَعَ إِبْطَانِ الْمَعْصِيَةِ.رُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَآهُمْ فِي مَوْقِفِ بَدْرٍ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا أَقْبَلَتْ بِفَخْرِهَا وَخُيَلَائِهَا لِمُعَارَضَةِ دِينِكَ وَمُحَارَبَةِ رَسُولِكَ))[2]، وجاء الفعل (يَصُدُّون) مضارعا؛ لاستمراريته في تلك الحالة وما بعدها، وأمّا اللفظان بطرا ورئاء فجاءا مصدرين؛ لأنّهما يرتبطان بذلك الحدث، فلم يستمر رياؤهم بعد المعركة ولكن صدّهم عن سبيل الله استمر بعد المعركة.

3.وسوسة الشيطان للمشركين.

قال تعالى: ﴿ وَإِذ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعمالَهُم وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ وَإِنّي جارٌ لَكُم فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيهِ وَقالَ إِنّي بَريءٌ مِنكُم إِنّي أَرى ما لا تَرَونَ إِنّي أَخافُ اللَّـهَ وَاللَّـهُ شَديدُ العِقابِ* إِذ يَقولُ المُنافِقونَ وَالَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دينُهُم وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى اللَّـهِ فَإِنَّ اللَّـهَ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾[3]

([1]) لسان العرب. مادة بطر.

([2]) الرازي: التفسير الكبير.ج8،ص490.

([3]) سورة الأنفال : 48–49.

يُخبِر هذا الخطاب بأحوال الكافرين وكيفيّة خروجهم يوم بدر، فقد خرجوا من ديارهم رياء وتكبرا وصدا عن إعلاء كلمة الله ، فتباهوا بكثرتهم وقوّتهم[1] . وتُبيّن الآيات السابقة دور الشيطان في زيادة الغرور والتكبر في نفوس المشركين، فزيّن لهم سوء عملهم بأنَّهم لن يغلبوا بسبب عددهم، وهذه الآيات تفسير للآية السابقة التي وصفت خروج المشركين بطرا و رياء وتظاهراً بعددهم وما زادهم غرورا إلا وسوسة الشّيطان لهم بأنّهم لن يغلبوا في المعركة، ونسب سبحانه وتعالى التزيين للشّيطان دلالة على تمكّنه منهم لشدة كفرهم.

يُقارب كلام الشيطان في الآية السّابقة حالة المشركين قُبيل بدء معركة بدر؛ فالمشركون خرجوا من ديارهم بطرا ورياء وصدًّا عن سبيل الله ، وبدا عليهم التّبختر والطغيان في النعمة، وشدّة المرح ، والطغيان على الحقّ والتكبر عليه وعدم قبوله – كما سبق بيانه– فهم كانوا واهمين بقوّتهم وغلبة المسلمين في المعركة، ولكنَّ نتيجة المعركة كانت هزيمة وهروبا وتشتتا وذلًّا ، وكذلك موقف الشيطان الذي بدا واثقا من قدرته على نصرة الكافرين (وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ)، ويزداد زعمه وإصراره بالجملة الخبرية المؤكدة بـ (إنّ) (وَإِنّي جارٌ لَكُم) . ويبدأ تراجع الشيطان وهزيمته حينما رأى رجحان ميزان المواجهة لصالح المسلمين في قوله تعالى : (فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيهِ) . واللّافت أنّ دلالة أسلوب التوكيد في الجملة الخبرية تحولت إلى النّقيض، فبعد الجملة الخبرية التي يزعم فيها الشيطان أنّه قادر على نصرتهم وأنه جار لهم تأتي ثلاث جمل خبريّة متتابعة مصدرة بـ (أن) تؤكد ضعف الشيطان وهروبة وهزيمته {وَقالَ إِنّي بَرِيءٌ مِنكُم إِنّي أَرى ما لا تَرَونَ إِنّي أَخافُ اللَّـهَ} . ولا يخفى أنّ تتابع الجمل الثلاث المؤكدة تقارب مصير المشركين بعد معركة بدر ، فإذا كان الشيطان قد أعلن البراءة من أتباعه ، فإنّ زعماء قريش المحرّضين على الحرب فقدوا ثقة قومهم بهم بسبب هزيمتهم. وإذا كان

([1]) لما وردوا الجحفة بعث الخفاف الْكِنَانِيُّ وَكَانَ صَدِيقًا لِأَبِي جَهْلٍ إِلَيْهِ بِهَدَايَا مَعَ ابْنٍ لَهُ، فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ: إِنَّ أَبِي يُنْعِمُكَ صَبَاحًا وَيَقُولُ لَكَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أَمُدَّكَ بِالرِّجَالِ أَمْدَدْتُكَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَزْحَفَ إِلَيْكَ بِمَنْ مَعِي مِنْ قَرَابَتِي فَعَلْتُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: قُلْ لِأَبِيكَ جَزَاكَ اللَّه وَالرَّحِمَ خَيْرًا، إِنْ كُنَّا نُقَاتِلُ اللَّه كَمَا يزعم محمد فو اللَّه مَا لَنَا باللَّه مِنْ طَاقَةٍ، وَإِنْ كُنَّا نقاتل الناس، فو اللَّه إِنَّ بِنَا عَلَى النَّاسِ لَقُوَّةً، واللَّه مَا نَرْجِعُ عَنْ قِتَالِ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا فَنَشْرَبَ فِيهَا الْخُمُورَ وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا فِيهَا الْقِيَانُ، فَإِنَّ بَدْرًا مَوْسِمٌ مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، وَسُوقٌ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ حَتَّى تَسْمَعَ الْعَرَبُ بِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ. قال المفسرون: فوردوا بدراً وشربوا كؤوس الْمَنَايَا مَكَانَ الْخَمْرِ، وَنَاحَتْ عَلَيْهِمُ النَّوَائِحُ مَكَانَ الْقِيَانِ. ينظر: الرازي: التفسير الكبير.ج8، ص490.

الشّيطان قد رأى ما يعجز غيره من رؤيته ممّا يبشّر بنصرة المسلمين فإنّ ما رأته قريش من بطولة المسلمين في الحرب أمر لم تألف رؤيته ، ولم يكن في الحسبان ، وإذا كان الشيطان يُقرّ بخوفه من الله فإن المشركين أصبحوا يقرّون بخوفهم من مواجهة المسلمين بعد معركة بدر.

وهذا الخبر يُمثِّل الخبر الطّلبي، الذي " يكون فيه المخاطب متردّدا في الخبر طالبا الوصول إلى معرفته والوقوف على حقيقته فيستحسن تأكيد الكلام الملقى إليه تقوية للحكم من نفسه ويطرح الخلاف وراء ظهره"[1]. فكان تأكيد القرآن لكلام الشّيطان قبل لقاء الفئتين بمؤكّد واحد، فعندما تردّد الشيطان في موقفه وغدر بهم وقلب ما كان عليه أمره، تلاحقت المؤكدات في ثلاث جمل متتابعة لتقوّي الحكم عليه وتبيّن ضعفه وإنهاء أمره.

وصوّرت الآيتان استهزاء المنافقين بالمسلمين بعد أن زيّن لهم الشيطان ضلالهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذ يَقولُ المُنافِقونَ وَالَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دينُهُم وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى اللَّـهِ فَإِنَّ اللَّـهَ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾[2] وقيل: هم فتية من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آباؤهم حتّى خرجوا معهم إلى بدر، فالمرض على هذا مجاز عن الشبهة، وقيل: المراد بهم المنافقون سواء جعل العطف تفسيريا أو فسّر مرض القلوب بالعداوات والشّك مما هو غير النفاق، وقيل: يجوز أن يكون الموصول صفة المنافقين ، وتوسطت الواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف؛ لأنّ هذه الصفة للمنافقين لا تنفكّ عنهم، أو تكون الواو داخلة بين المفسر والمفسَر نحو أعجبني زيد وكرمه.[3]

---

[1]() الهاشمي، أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م، ص57.

([2]) الأنفال:49.

([3]) ينظر: الألوسي: روح المعاني. ج5، ص212.

❖ المطلب الثالث: التأثير النفسي لعدد المقاتلين قبل المعركة.

لا تزال كثرة العدد عاملا نفسيّا في الاستجابة والرّفض، والإقدام والإحجام، والثبات والقلق؛ لأنّ الجيش الجرّار قد ينزع الطّمأنينة من القلب، ويورث النّفس رهبة وتوتّرا، ومن حكمة الله تعالى أنّه قلّل هذا العدد في أعينهم من خلال رؤيا الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– في قوله تعالى تعالى: { إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }[1] ، والرّؤيا صادقة في دلالتها الحقيقية . (فقد رآهم رسول الله

([1]) سورة الأنفال: 43.

صلّى الله عليه وسلّم قليلاً وهم عدد كثير ، ولكن قليل وزنهم في المعركة، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع، والإيمان الدافع، والزاد النّافع، وهذه الحقيقة الواقعة – من وراء الظاهر الخادع – هي التي أراها الله لرسوله؛ فأدخل بها الطّمأنينة على قلوب العصبة المسلمة).[1] "فَقَصَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِثَبَاتِهِمْ، وَلَوْ رَآهُمْ فِي مَنَامِهِ كَثِيرًا لَفَشِلُوا، وَجَبُنُوا عَنْ قِتَالِهِمْ، وَتَنَازَعُوا فِي الْأَمْرِ، هَلْ يُلَاقُونَهُمْ أَمْ لَا ؟ وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ أَيْ: سَلَّمَهُمْ وَعَصَمَهُمْ مِنَ الْفَشَلِ وَالتَّنَازُعِ فَقَلَّلَهُمْ فِي عَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي الْمَنَامِ وَقِيلَ: عَنَى بِالْمَنَامِ: مَحَلَّ النَّوْمِ".[2]

يحدّد الظرف (إذ) في قوله تعالى: (إذ يُريكهم الله) مكان المعركة وزمنها؛ لأنّه بدل من قوله تعالى {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ}[3] في الآية السّابقة، فإنّ هذه الرّؤيا ممّا اشتمل عليه زمان كونهم بالعدوة الدّنيا لوقوعها في مدّة نزول المسلمين بالعدوة من بدر، ويتعلق قوله: (في منامك) بفعل(يريكهم) فالإرادة إرادة رؤيا، وأسندت الإرادة إلى الله –تعالى–؛ لأنّ رؤيا النّبي وحي بمدلولها، ولذلك جعلها الله في رؤيا النّوم دون الوحي؛ لأنّ صور المرائي المنامية تكون رموزا لمعان فلا تعدّ صورتها الظاهرية خلفا بخلاف الوحي بالكلام، وقد يكون النّبي قد أطلعه الله على تعبيرها الصّائب، وقد يكون صرفه عن ذلك فظنّ كالمسلمين ظاهرها، وكل ذلك للحكمة، وهذه الرؤيا قد مضت بالنسبة لزمن نزول الآية، فالتّعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالة الرؤيا العجيبة.[4]

ويدلّ حرف الاستدراك (لكن) وما يتعلق به في قوله :(ولكن الله سلّم) إلى أنّ جيش المشركين كان كثير العدد، والتقدير: سلّمكم من الفشل والتنازع بأن سلّمكم من سببهما وهو إراءتكم واقع عدد المشركين؛ لأنّ الاطّلاع على كثرة العدو يلقي في النفوس تهيّبا له وتخوّفا منه ، وينقص شجاعة المسلمين.[5]

([1]) قطب، سيد: في ظلال القرآن.ج10، ص1526.

([2]) الشوكاني: فتح القدير. ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1414هـ، ج2، ص358.

([3]) الأنفال: 42.

([4]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج10، ص22–23.

([5]) ينظر: المرجع نفسه ، ج10، ص 24.

وتكشف الجملة الاسمية في قوله تعالى: {إنّه عليم بذات الصدور} – في نهاية الآية السابقة – عن خفايا النّفس الإنسانية؛ أي أنّ الله –جلّ وعلا– عليم بالأحوال المصاحبة لضمائر النفوس[1]، يعلم ما في نفوسهم من فزع وخوف ورهبة ، فجاءت الرؤيا النبوية مطمئنة ومبشرة ومشجعة للإقدام على المعركة بكل ثبات ويقين بنصر الله.

المبحث الثاني: وصف معركة بدر.

❖ المطلب الأول: الفضاء المكاني للمعركة.

❖ المطلب الثاني: الاستغاثة.

([1]) ينظر: المرجع نفسه ، ج10، ص25.

❖ **المطلب الثالث: الاستجابة.**

❖ **المطلب الرابع: المواجهة بين المسلمين والمشركين.**

❖ **المطلب الأول : الفضاء المكاني للمعركة**

حظيت معركة بدر بذكر وفير في القرآن الكريم ، فذُكرت لفظة (بدر) في القرآن الكريم في سياق النصر في قوله تعالى: { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[1]، وصوّر القرآن الكريم موقعي الفريقين، فجعل مكان المؤمنين في العدوة الدّنيا، والكافرين في العدوة القصوى، وقافلة قريش أسفل منهم للتذكير بنعمة الله تعالى على المؤمنين حيث نصرهم يوم بدر

([1]) آل عمران: 123.

على الرّغم من عدم ملاءمة موقعهم وسوء مكانهم وقلّة عددهم وعتادهم، فقال تعالى:{ إِذ أَنتُم بِالعُدوَةِ الدُّنيا وَهُم بِالعُدوَةِ القُصوى وَالرَّكبُ أَسفَلَ مِنكُم وَلَو تَواعَدتُم لَاختَلَفتُم فِي الميعادِ وَلكِن لِيَقضِيَ اللَّـهُ أَمرًا كانَ مَفعولًا لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيى مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّـهَ لَسَميعٌ عَليمٌ }[1]

وردت (إذ) بدلا من (يوم التقى الجمعان) – في الآية التي تسبقها–، فهو ظرف لـ (أنزلنا) في قوله تعالى : {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[2] ؛ أي زمن أنتم بالعدوة الدنيا، وأريد من هذا الظّرف وما أضيف إليه تذكيرهم بحالة حرجة كان المسلمون فيها، وتنبيههم للطف عظيم حقّهم من الله تعالى ، وهي حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين، وكيف التقى الجيشان في مكان واحد من غير ميعاد، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدوّ قويّ العِدة والعُدة والمكانة من حسن الموقع، ولولا هذا المقصد من وصف هذه الهيئة لما كان من داع لهذا الإطناب إذ ليس من أغراض القرآن وصف المنازل إذا لم تكن به عبرة.[3]

وصف مكان المسلمين بالعدوة الدنيا ومكان الكافرين بالعدوة القصوى، لا يقتصر على رسم الأبعاد المكانية والجغرافية، ولكنّه يدُلّ على بُعد أعمق وهو البُعد الاجتماعي لكلا الفريقين، فدلالة النعت في قوله (الدنيا) المرتبطة بالمسلمين دلالة على دنو مكانتهم في نظر مجتمعهم ودلالة على ضعفهم أمام العامة، والعكس في النعت في (القصوى) وهي مرتبطة بالكافرين لتدل على علوّ مكانتهم بين القبائل والمجتمع لقوة شوكتهم وعددهم وعتادهم، فسبحانه وتعالى قلب هذه الموازين وجعل للمسلمين هيبتهم ومكانتهم بين الناس.

وتُسهم جملة الحال (وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) فِي رسم أبعاد الفضاء المكاني لمعركة بدر، " وَفَائِدَةُ ذِكْرِ هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، مِنْ كَوْنِهِمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا، وَعَدُوُّهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى، وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْهُمُ الدَّلَالَةُ عَلَى قُوَّةِ شَأْنِ الْعَدُوِّ وَشَوْكَتِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعُدْوَةَ الْقُصْوَى الَّتِي أَنَاخَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ كَانَ فِيهَا الْمَاءُ، وَكَانَتْ أَرْضًا لا بأس بِهَا، وَأَمَّا الْعُدْوَةُ الدُّنْيَا فَكَانَتْ رَخْوَةً تَسُوخُ فِيهَا

([1]) الأنفال : 42.

([2]) الأنفال : 41.

([3]) ينظر: ابن عاشور : التحرير والتنوير.ج10، ص 15–16.

الْأَقْدَامُ وَلَا مَاءَ بِهَا، وَكَانَتِ الْعِيرُ وَرَاءَ ظَهْرِ الْعَدُوِّ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، فَامْتَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِنُصْرَتِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَالْحَالُ هَذِهِ. قَوْلُهُ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ أَيْ: لَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنْتُمْ وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى أَنْ تَلْتَقُوا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِلْقِتَالِ، لَخَالَفَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَثَبَّطَكُمْ قِلَّتُكُمْ وَكَثْرَتُهُمْ عَنِ الْوَفَاءِ بِالْمَوْعِدِ وَثَبَّطَهُمْ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْمَهَابَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم-." [1]

وتُحدّد الآية السّابقة بتتابع الجمل الاسمية ثلاثة أماكن قبيل بدء المعركة ، وهي : العدوة القصوى التي كان فيها جيش قريش ، والعدوى الدنيا التي تجمع فيها المسلمون ، والمنطقة السُّفلى التي كانت فيها قافلة قريش. إنّ رسم البقعة الجغرافية بهذه الدقة وتوزيع الأماكن لمقتضى الحال والهيئات أسهم في توقع نتيجة المعركة، وازدياد خوف المسلمين من سيطرة الكافرين عليهم، فهنا تذكير لهم بفضل الله عليهم أن جعل مكانهم مع نزول المطر أفضل من مكان الكافرين.

وتدلّ الآية على أنّ التّوزيع المكاني كان لصالح المسلمين، إذ إنّ جيش المسلمين كان بين جماعتين للمشركين وهما جيش أبي سفيان بالعدوة القصوى ، وعير القوم أسفل من العدوة الدنيا ، فلو علم العدو بهذا الوضع لطبّق جماعتيه على جيش المسلمين ، ولكنّ الله صرفهم عن التّفطن لذلك وصرف المسلمين عن ذلك. وقد كانوا يطمعون أن يصادفوا العير فينتهبوها، ولو حاولوا ذلك لوقعوا بين جماعتين من العدو. فكان من عجيب عناية الله بالمسلمين أن قلب تلك الحالة رأسا على عقب، فأنزل من السماء مطرا تعبّدت به الأرض لجيش المسلمين بعد أن كان رمل الأرض ليّنا فساروا إلى بدر، وفي المقابل ثقل السير على المشركين وفاضت المياه عليهم.[2]

وتظهر بلاغة القرآن الكريم في وصف ثلاثية الأماكن التي توضح وتدلّل على ثلاثية القوى، بدءا من الكافرين(بالعدوة القصوى) ، وانتقالا إلى المسلمين (بالعدوة الدنيا)، وانتهاءً بقافلة المشركين(الركب أسفل منكم) ، فالرّكب كان أقل قوّة وعددا من المسلمين ، فكان أسفل منهم، أمّا جيش الكافرين فكان أكبر وأكثر قوة فجعلهم بالمكان الأعلى.

([1]) الشوكاني: تفسير فتح القدير. ج2، ص355.

([2]) ينظر:ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج10، ص17.

و يتضمّن جملة حالية من (الجمعان) وعامل الحال الفعل (التقى) (أي في حال لقاء على غير ميعاد قد جاء ألزم مما لو كان على ميعاد).[1]

وفي قوله تعالى: (وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ) يقتضي الموعد الوفاء به ، والاختلاف فيه يقتضي عدم الوفاء به، فبينهما طباق، وذلك لإثارة ذهن القارئ فكيف يكون اختلاف للموعد وتخلف عنه مع وجود موعد مسبق ومتفق عليه على سبيل الاحتمال، فالتّلازم بين شرط (لو) وجوابها خفيّ هنا، واختلف فيه المفسرون فقدروه على وجهين:

الأوّل: أن يكون الخطاب في (لاختلفتم في الميعاد) للمسلمين، أي لو تواعدتم أنتم وهم وعلمتم حالهم وحالكم لاختلفتم أنتم (المسلمون) في الميعاد هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم، وفي ذلك بيان ضعف المسلمين ونصرة الله تعالى لهم مع ذلك.[2] وذلك يفضي إلى التخلف عن الحضور لا إلى الاختلاف.[3]

والثاني: أن يكون الخطاب في (لاختلفتم في الميعاد) للمسلمين والمشركين على حد سواء، أي لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضا، فثبّطكم قلّتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبّطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقي فيما وفقه الله وسبب له.[4]

والتّلازم بين شرط (لو) وجوابها له تفاسير عدّة منها: كلام محذوف تقديره: لو تواعدتم – ثم علمتم قلتكم وكثرتهم–لاختلفتم . وقوله:(لكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا) فيه استدراك على ما مضى، وتقديرها: ولكن لم تتواعدوا وجئتم على غير موعد ليقضي الله ؛ أي: يحقّق وينجز ما أراد من نصركم على المشركين، ولمّا كان تعليل الاستدراك المفاد بـ لكن قد وقع بفعل مسند إلى الله مفيدا أنّ مجيئهم إلى العدوتين على غير تواعد كان بتقدير من الله عناية بالمسلمين.[5]

([1]) المرجع نفسه. ج10، ص 18.

([2]) ينظر:الألوسي: روح المعاني. ج10، ص7.

([3]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج10، ص18

([4]) ينظر: الزمخشري : الكشاف. ج2، ص169.

([5]) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير.ج10،ص 20.

وذكر لفظتي الطّباق في الجملة الشّرطيّة وهما(تواعدتم، اختلفتم) ، أسهم في تعزيز وصف الحالة النفسيّة المتذبذبة بين مد وجزر، وأسهم –أيضا– في تعزيز صورة التّضاد للأحداث ، فما كان متوقعا حدوثه لم يحدث، ومن كان متوقعا انتصاره لم ينتصر، فتلاحمت كلمات الآية؛ لتقدم في النهاية الصورة الكاملة للأماكن ، وقدرة الله على تسخيرها لصالح المسلمين.

ومن المعلوم أنّ (لو) في الآية حرف امتناع لامتناع، أي امتنع اختلافكم في موعد الخروج الى القتال لامتناع تواعدكم وإعلام بعضكم بعضا بالخروج للقتال؛ لأنّكم قد تضعفون عندما تعلمون شكيمتهم ومنعة مكانهم[1]. وقد يُسأل ما فائدة دلالة الامتناع لامتناع في سياق معركة بدر ؟ وهل تضيف دلالة الشرط بـ لو الامتناعية بعدا نفسيّا أو وصفا حربيّا ؟ وتقتضي الإجابة عن السؤالين تأمّلا في خفايا النّفس الإنسانيّة التّي تخشى مواجهة الجيش ذي العدّة والعتاد ، وما دام المسلمون لم يعلموا مسبقا بتجهيزات جيش قريش ولم يُضرب موعد بينهما فإن دلالة الشرط بـ لو الامتناعية تدلّ على عناية الله بالمسلمين. وتنكير (أمراً) لإرادة التعظيم، وعبّر بالفعل (كان) فعل الكينونة الماضي لتحققه وتمام وقوعه حتّى كأنه مضى.

وهذا الأمر العظيم و النّصر المبين كان لهدف رباني { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ}[2] ويذكر الزمخشري أنّ (ليهلك) "بدل من الجملة السابقة، واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام ؛ أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيّنة لا عن مخالجة شبهة حتى لا تبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به." [3]

وقدّم الهلاك على الحياة في قوله :(ليهلك من هلك...ويحيى من حيّ...) ، على الرغم من أنّ الآية كانت تستهل بالمسلمين (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) وتنتقل للحديث عن الكافرين (وهم ...)، يجعل القارئ يتساءل عن سبب تقديم هلاك الكافرين على حياة المؤمنين في ذلك الجزء من الآية، للنّظر في الأمر ينبغي ربط المعنى بالسياق، وله علاقة مباشرة بانقلاب الموازين في المعركة ، فبدأ بالمؤمنين في قوله تعالى { إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى} وهذا كان

([1]) ينظر: الدرويش ، محيي الدين : إعراب القرآن وبيانه . ج4، ص7.

([2]) الأنفال: 42.

([3]) الزمخشري: الكشاف. ج10، ص415.

قبل بداية المعركة، وبعد المعركة قلبت الآية فبدأ بالكافرين ، {ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة} ؛ ليبيّن أنّ ما كان متوقعا حدوثه وقع نقيضه، وسبقه –أيضا– قوله تعالى {ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا} وهذا الأمر هو نصركم عليهم وإهلاكهم، ونركّز هنا على أنّ النّصر لن يكون دون قتال، فقدّم هلاكهم على حياتكم؛ لأنّ قتال المسلمين للكافرين هو السبب في تقوية شوكتهم ونصرهم واستمرار حياتهم، والمقابلة بين الهلاك والحياة، تؤكد على ثنائية الصراع بين الطرفين المؤمنين والكافرين، فهذا النسق القرآني العظيم الذي يلاحم بين المعنى والتركيب، ويبهر العقول في نظمه يتحدى كل بليغ.

والتّوكيد بـ (إنّ واللام) في التذييل في قوله تعالى:{ وإن الله لسميع عليم} لإفادة توكيد مضمون الجملة ، فزاد التوكيد لموجب دلالته وعظم مدد الله لهم، وليقضي على أيّ إنكار لما سبق.

❖ المطلب الثاني: الاستغاثة .

الدّعاء مخّ العبادة، والاستعانة بالله والاستغاثة به من أهم أسباب النّصر، لذا صوّرت الآيات استغاثة المسلمين واستجابة رب العالمين لهم في سياق قلب ميزان المعركة، وكسر أُفق التوقّع والمألوف ، قال تعالى:﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ }[1] ، فتعاقُب لفظة الاستغاثة والاستجابة يدلّ على سرعة الاستجابة ، وجاءت الاستغاثة (تستغيثون) فعلا مضارعا لتدلّ على استمرارية الدّعاء وكثرة التّضرع إلى الله .

([1]) الأنفال:9–11.

وتقتضي البدائلُ اللُّغوية المناظرة، والصّيغ الزّمنية للأفعال في الآيات السّابقة التقارب بين الفعل (تستغيثون) الوارد في الآية، والأفعال المناظرة دلاليا، نحو: (تدعون وتطلبون)، إذ ورد الفعل (تستغيثون) بدلا من الأفعال المناظرة؛ لأنّ الاستغاثة فيها إلحاح وشدّة طلب والمستغيث يعاني من حالة طارئة ، وفيها بيان للحالة النفسية التي يمرّ بها المسلمون من ضعف وخوف. ويضمر فعل الاستغاثة مشهدا صوتيّا للمستغيثين، ففي اللغة "الغُواث بالضّم الإغاثة وغَوَّثَ الرجل واستغاثَ: صاح واغَوثاه! "[1]

وجاءت الاستجابة (فاستجاب لكم) بزمن الماضي، ولم يقل سبحانه: (فيستجيب لكم) بالزّمن المضارع؛ للدّلالة على أنّ الاستجابة للدّعاء من الممكن أن تحصل في وقتها أو بعد زمن أو لا تستجاب لدرء شر أو لاستحضار خير آخر، ومن فضله سبحانه أن استجاب دعاءهم في وقته وعند حاجتهم له ، ومدهم بجنود وقوة وراحة واطمئنان وتثبيت ،وأبعد عنهم الشيطان ورجزه.

رَبَطَ المفسّرون الآيات بما سبقها لتعلق الظرف (إذ تستغيثون) بالفعل (يريد) في قوله تعالى: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}[2] ؛ لأنّ إرادة الله مستمر تعلّقها بأزمنة ، منها زمان استغاثة النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– والمسلمين، حينما التقوا مع عدوهم يوم بدر، فكانت استجابة الله لهم بإمدادهم بالملائكة من مظاهر إرادته، فكانت الاستغاثة يوم القتال في بدر ، وإرادة الله (أن يحقّ الحقّ) حصلت في المدينة يوم وعدهم الله إحدى الطائفتين ومن بينهما ذات الشّوكة، وبين وقت الإرادة ووقت الاستغاثة أيام ، ولكن لمّا كانت الإرادة مستمرة إلى حين النّصر يوم بدر صحّ تعليق ظرف الاستغاثة بفعلها؛ لأنّه اقترن ببعضها في امتدادها.[3]

ويتّضح ممّا تقدّم أنّ صورة المعركة في الآيات السّابقة تتّصف بفضاء زمني متعدد، وأنّ صيغتي الفعلين المضارع والماضي أسهمتا في رسم الأبعاد الزّمنية لصورة المعركة، وعطفا على ما تقدّم

([1]) لسان العرب، غوث.

([2]) الأنفال: 7.

([3]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج9، ص273.

لا يكفي القول إن الانتقال من الفعل المضارع (تستغيثون) إلى الفعل الماضي (استجاب) يسمى التفاتا؛ لأنّ الالتفات النحوي يتضمن أبعادا دلالية وفنية وتصويرية.

تجسد الصّورة المتكاملة مشهدا متكاملا شاخصا أمام القارئ، فالاستغاثة كانت جماعية (تستغيثون) والتّصوير بالفعل المضارع؛ لاستحضار المشهد الحسّي ، ثم عطف عليه بالفعل الماضي إلى الحاضر بقصد تجسيمه أمام المخاطب، فأمدهم بالملائكة، وصورة هذا المدد غيبية موحية تدلّ على أنّ الله معهم، لتطمئنّ النفوس الخائفة وتتثبت الأقدام المضطربة ، وتصحيح الاعتقاد الخاطئ أنّ النصر هو من عند الله وليس من سواه.[1]

❖ المطلب الثالث: استجابة الله عز وجل للمؤمنين.

تُعدّ معركة بدر معركة حاسمة في تاريخ المسلمين، إذ كان ما يمتلكونه من الأسباب الماديّة للنّصر قليلا أمام ما يمتلكه المشركون، إلا أنّ الإيمان الصادق جعلهم الفئة المنتصرة ، فكان لاستغاثتهم ودعائهم صدى كبير تحقق به وعد الله فاستجاب لهم .

1. أمدهم بالملائكة

قال تعالى: { أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [2]

([1]) ينظر: الراغب،عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن. ص238.

([2]) الأنفال:9.

يُثير ابن عرفة في تفسيره سؤالا: ما الفائدة في إمدادهم بالملائكة مع أنّ الله قادر على نصرتهم من غير إمداد؟ ويعرض ابن عرفة وجوه الإجابة عن السؤال؛ فبعضهم أجاب بأنه إشارة إلى ترجيح اتخاذ الأسباب واعتبار الأمور العادية، وأنّ الإنسان إذا رأى عدوّا لا قدرة له عليه لم ينبغ له أن يقدم على قتاله حتى يكون معه من يعضده عليه، إلّا أن تدعوه الضّرورة إلى ذلك، ومنهم من قال: ليظهر امتنان الله تعالى على نبيه، وقيل: إنّ ذلك خشية أن لو اقتصروا عليهم من غير إمداد بالملائكة لتوهّم شأن المسلمين ومن فيه نجدة قدرتهم في ذواتهم.[1]

يُشير هذا المدد من الملائكة إلى عناية الله بهم، فإن كان المسلمون يخشون القتال لقلّة عددهم ، فإنّ الله أمدّهم بألف من الملائكة الواحد منهم يواجه جيشا بأكمله ، فتهيئة الجيش بمدد الملائكة أزالت أهم سبب من أسباب الرّهبة في القتال، فترادف الملائكة وتتابعهم يعدّ دعما نفسيّا يُزيل أسباب الخوف ، ويشحن الطاقات ويُنبِئُ بنصر قادم.

ومُردفين[2]: أي متتابعين يأتي بعضهم في إثر بعض، وجاء في سورة آل عمران: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}[3] قال المفسرون : إنّ الله أمدهم بألف، ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف ، لمّا صبروا واتقوا، وكان هذا التدرج ومتابعة الإمداد أحسن موقعا، وأقوى لتقويتهم وأسر لها، وهو بمنزلة نزول

([1]) ينظر: ابن عرفة: تفسير ابن عرفة. تحقيق: جمال الأسيوطي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م، ج2، ص179.

([2]) قُرئت "مردفين" قراءتين: الأولى (مردَفين) بفتح الدال: بمعنى يردُفهم غيرهم من الملائكة. والثانية: (مردِفين) بكسر الدال: بمعنى أن تكون الألف من الملائكة رادفا لغيرهم قبلهم. ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص275.

([3]) آل عمران :124.

الوحي مرة بعد مرة.[1] ويجوز أن يكون (بألف) هنا مطلق الكثرة ، فيفسره الله بقوله(ثلاثة آلاف) في سورة آل عمران وهم مردفون بألفين فتلك خمسة.[2]

يدلُّ الحال (مردفين) على التّتابع وعدم الانقطاع، وفيه تواصل وكرم وبشرى بالنّصر، فهو غير محصور بعدد (ألف) بل ممتد إلى أكثر من ذلك ، وكان هذا الإمداد والعون لإنزال الطمأنينة في قلوب المؤمنين، وإشعار بدوام قرب الله منهم، ودفع للقتال دون وجل أو تردد ، ويشير الحال (مردفين) إلى نتيجة المعركة ، فالنّصر أمر محتم لوجود الملائكة المتتابعين في النزول حتى انتهاء المعركة.

وتقدّم الجار والمجرور(به) المتعلق بالفعل (لتطمئن به قلوبكم) على الفاعل؛ لتقديم أهمّية الإمداد على كل أسباب النصر، ويفيد تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: (به قلوبكم) الاختصاص، فتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة.[3]

فكان الإمداد سببا في تشجيع المسلمين وتثبيت أقدامهم وتقوية قلوبهم والاندفاع نحو العدو لتحقيق النصر.

ورد الاستثناء في الآية مرتين { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[4] ويدلّ الخبر بالنفي والإثبات على جهل أو شك المخاطب بالأمر، يقول الجرجاني: " أما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا"، و "إن هو إلا كذا"، فيكون لأمر يُنْكِرهُ المخاطَبُ ويَشُكُّ فيه. فإذا قلتَ: "ما هو إلاَّ مُصيبٌ" أو: "ما هو إلا مخطئ"، قلتَه لمن يدفَعُ أن يكونَ الأمْرُ على ما قلت، وإذا رأيتَ شخصاً مِنْ بعيدٍ فقلتَ: "ما هو إلا زيدٌ"، لم تَقُلْه إلاَّ وصاحِبُك يَتوهَّم أنه ليس بزيدٍ، وأنه إنسانٌ آخرُ، ويجدُّ في الإنكارِ أن يكون "زيدًا"[5] . فكان

---

[1]() ينظر: عابد، محمد: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول –صلى الله عليه وسلم–. ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1994م، ص79.

([2]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج9، ص275.

([3]) ينظر: المرجع نفسه .ج9، ص277.

([4]) الأنفال:10.

([5]) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص332.

المسلمون في خوف ووجل فجاء النفي والاستثناء الأول بأسلوب القصر ليزيل الخوف ويبث الطّمأنينة في القلوب، وعندما كان المشركون يتباهون بأعدادهم وعتادهم ليرهبوا المسلمين جاء الاستثناء الثاني ليؤكّد أنّ النّصر من عند الله ، وفي ذلك دعوة إلى الثّبات والإيمان. وذيل الآية يتناسب مع السياق (إن الله عزيز حكيم) ليعز المؤمنين بنصره وحكمته، وتأكيد الخبر ب(إنّ) وكأنه يقول لهم لا تكونوا مترددين أو شاكّين في الاستجابة، فيؤكد بذلك الاستجابة للمستغثين.

وهذا الإمداد لم يجعله الله للتّباهي أمام المشركين أو للتّكاسل عن القتال، ولكن جعله لتطمئن النفوس وللتبشير بالنصر، وكان المسلمون يظنّون أنّ العدّة والعتاد هي السّبب في النّصر أو الهزيمة ، فكانوا مترددين ومتخوفين عن القتال ، فأخبرهم الله أنّ النصر من عنده وبأمره حتى لو كان المشركون أكثر عددا، ولولا نصره لما انتفع بكثرة عدد الملائكة.

يشير مدد الملائكة إلى أهمّيته في نصر المؤمنين مادّيا ومعنويّا، فكان المدد تدريجيّا ، إذ استجاب لهم رب العالمين فأمدهم بألف من الملائكة وأتبع الألف بغيرها، فقال سبحانه وتعالى مخاطبا الرسول الكريم:

{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}[1]

جاءت الآية تابعة للآية السّابقة في الحديث عن معركة بدر و(إذ تقول للمؤمنين) إذ ظرف زمان؛ أي تقول للمؤمنين في معركة بدر، و(تقول) خطاب موجّه للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، جاء بالفعل المضارع على الرغم من انقضاء الحدث لاستحضار المشهد والوقائع والأحداث، والمضارع هنا أبلغ من الماضي؛ لدلالته على الاستمرارية ، وتأثيره مستمر لم ينقطع . والآية تحمل معنى التّحفيز والتّشجيع والحثّ على الصّبر والتّقوى، والرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– مستمر في التحلي بالصبر والثبات، والتوكل على الله حتّى في معركة أحد؛ إذ جاء ذكر هذا الموقف من معركة بدر والتذكير به وبنصر الله للمؤمنين يومها في سياق ذكر معركة أحد في الآيات التي تسبقها، قال تعالى:{ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[2] ، فاستحضر الماضي إلى الزّمن الحاضر لترابط الحدثين في المعنى ذاته ألا وهو الحثّ على التّقوى لعلها تقودهم إلى الشكر، وأن تجعله شكرا وافيا لائقا بنعمة الله عليهم، والصّبر والتّوكل على الله.

([1]) آل عمران :124.

([2]) آل عمران:123.

إنّ استحضار صورة معركة بدر في أثناء معركة أُحد يهدف إلى ربط الأحداث واستخلاص العبر، وبيان تعزيز البعد النفسي للمعركة؛ إذ كان المسلمون ضعاف في معركة بدر فأمدهم سبحانه وتعالى بالملائكة وأنزل عليهم السّكينة والهدوء لتطمئنّ قلوبهم فيكون سبب النّصر، أمّا في أحد فكانوا يملكون أسباب النصر إلّا أنّهم أخفقوا لضعف نفوسهم وتشتتهم.

يدلّ الاستفهام التقريري في قوله تعالى: { أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ } على تأكيد النّفي للمستقبل القريب أو البعيد تأكيدا شديدا، ولم يستخدم النفي بـ (لا) ، لأنّ النفي بـ (لن) أنسب لدلالته على شدة النفي، إذ إن " (لا) و (لن) اختان في نفي المستقبل، إلا أنّ في (لن) توكيدا وتشديدا، تقول لصاحبك: لا أقيم غدا، فإن أنكر عليك قلت: لن أقيم غدا، كما تفعل في أنا مقيم وإني مقيم "[1] ، فوجود هذا العدد من الملائكة حتما يكفي، فالملك الواحد قادر بأمر ربه بأن يخسف الكفار، فهزيمتهم ليست بحاجة لهذا العدد من الملائكة، ولكنها كانت لإنزال الطمأنينة في قلوب المسلمين، ويدلّ تكرار إمدادهم بالملائكة على الحالة النفسية التي يمرون بها واضطرابهم المرتبط بعدد الكافرين، ويتضمن الاستفهام التقريري (ألن يكفيكم...) بُعدا نفسيّا يهدف إلى بثّ الطّمأنينة بنصر الله؛ لأنّ الإجابة عن الاستفهام التقريري بـ (بلى) في حالة الإثبات والتقرير اعتراف وإقرار بأنّ نصر الله آتٍ لا محالة، فالاستفهام التقريري صيغة بلاغية مفعمة بالتعبئة النفسية، تدعو إلى إيقاف الشّكوك والأوهام وإفراغ التفكير السلبي، وإعادة شحن النفس بمُهيئات النصر والاستشعار بعون الله سبحانه وتعالى، والتّركيز في سير المعركة وخطتها.

وجاءت همزة الاستفهام متلوّة بحرف النفي (لن) الذي يفيد تأكيد النفي للإشعار بأنّهم كانوا يوم بدر متشككين من كفاية هذا المدد من الملائكة، فأوقع الاستفهام التقريري على ذلك ليكون تلقينا لمن يخالج نفسه اليأس من كفاية ذلك العدد من الملائكة، وهذا إثبات أنّ ذلك العدد كافٍ، وهذا الاستفهام غير حقيقي؛ لأنّه كان في نفوسهم ولم ينطقوه ، فكان الجواب (بلى) لأنه مما لا تتسع المماراة فيه، وإبطالا كاملا للنفي، وإثباتا لكفاية العدد.[2] والمراد من الاستفهام التقريري " حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده العلم به ، أو أمر باستطاعته معرفته حسيا أو فكريا موجبا أو سالبا" .[3]

([1]) السامرائي، فاضل: معاني النحو. ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، الأردن، 2000م، ج3، ص360.

([2]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص73.

([3]) الميداني، عبد الرحمن: البلاغة العربية. ج2، ص274.

ويرى الزمخشري أنّه استفهام إنكاري ، أي لا يكفيهم هذا المدد ، فأوجب الكفاية لهم بـ (بلى).[1] وفي مضمون الاستفهام الإنكاري معنى التوبيخ والتقريع، فينكر سبحانه وتعالى على المسلمين خوفهم وتشكّكهم في النّصر، مع أنّ مدد الملائكة يُظهر يقينا حدوث النصر، فيحمل الاستفهام الإنكاري معنى التوبيخ واللوم، لشكوكهم وترددهم؛ لأن السبب الرئيسي وراء خوفهم هو عدد الكافرين وعتادهم، فعندما أمدهم بالملائكة ذات العدد الغفير والقوة المتتابعة في النزول، أنكر عليهم هذا الخوف والتشكك.

اتسعت صيغة الاستفهام (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ) لتحمل معنيين: معنى التّوبيخ والإنكار الذي ينفي الشكوك من عدم كفاية مدد الملائكة، ومعنى يحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بكفاية مدد الملائكة، فرسمت صيغة الاستفهام الهيئة النفسيّة والحالة الشعوريّة التي كانت تلازم المسلمين، من رهبة وخوف وتشكك واضطراب، فجاء الاستفهام ليحول هذه الحالة الشعورية من سلب إلى إيجاب.

وتتجلّى رحمة الله سبحانه وتعالى ، ومحبته لعباده المؤمنين ، وزيادة طمأنينتهم بزيادة مدد الملائكة، فيقول سبحانه: { بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}[2]
جاء جواب الاستفهام التقريري (بلى) مقترنا بالشّرط ، إذ إنّ زيادة المدد مشروطة بالصبر والتقوى حين لقاء المشركين، حين ذلك ستجدون الملائكة (مُسَوَّمين) "بفتح الواو وكسرها، بمعنى: معلمين، ومعلمين أنفسهم أو خيلهم" [3] ، وفي هذا الشّرط تشجيع للمسلمين بالثّبات في أرض المعركة وعدم الخوف من الكافرين لعددهم، فإنّهم إن ازداد ثباتهم سيزداد مددهم.

واختلف المفسّرون واللّغويون في مرجع الضّمير في الفعل (يأتوكم) في قوله تعالى: { وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا } فأوّلها بعضهم أنّ الضّمير عائد على الملائكة على اعتبار أنّها معطوفة على

([1]) ينظر: الزمخشري: الكشاف. ج1، ص411.

([2]) آل عمران:125.

([3]) قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم. وعن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها. وعن مجاهد: مجزوزة أذناب خيلهم. وعن قتادة : كانوا على خيل بلق. وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك، وعن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال لأصحابه: " تسوموا فإن الملائكة قد تسوّمت" . الزمخشري: الكشاف. ج1، ص412.

يمددكم ربكم ، فجاءت بمعنى الوعد [1]، وقال آخرون : إنّ الضّمير عائد على المشركين وأوّلوا (من فورهم) بمعنى من ساعتهم هذه؛ أي على الفور[2]، لتأكيد السرعة بزيادة تعيينه وتقريبه.[3]

لو كان مرجع الضمير في (يأتوكم) يعود على المشركين، فإنّه يرسم المواجهة بين المسلمين والمشركين، وفي هذه الصّورة دعوة إلى تقدّم المسلمين للمواجهة لكسر حاجز الخوف لديهم، وتبيان للمسلمين بأنّ ما أمدهم به من الملائكة كافيا لنصرتهم ، أمّا المدد الذي وعدهم به فهو زيادة للاطمئنان والتّثبيت ، فزرع في نفوسهم الصّبر والتّقوى لنيل المراد وتحقيق النصر. أمّا لو كان مرجع الضمير في (يأتوكم) يعود على الملائكة، فإنّه يصوّر نزول الملائكة قبل مواجهة المشركين في المعركة، فيزيد ذلك من اطمئنانهم وتثبيتهم.

وترجّح الباحثة أنّ مرجع الضمير في (يأتوكم) يعود على المشركين؛ وذلك لوجود قرائن عدة تدل عليه وهي: اشتراط الصّبر والتّقوى ، والغالب أنّ الصّبر يكون في مواجهة الأعداء والمشاركة في ساحة الوغى، والتّقوى بالتزام أوامر الله ورسوله –صلّى الله عليه وسلّم–، والرّضا بقضاء الله وقدره عند التحام السيوف. ودلالة الفعل (يأتوكم) تشير إلى المشركين؛ لوصف الله سبحانه وتعالى مدد الملائكة بالمنزلين، والإتيان يلائم البشر لا الملائكة.

يدلّ النّعت (مُسومين) إلى أنّكم سترونهم رأي العين، فتعرفونهم بعلامة تدلّ عليهم، فيزيد من حماس المسلمين للمواجهة والقتال، ورؤية مدد الملائكة الذي وعدهم به الله سبحانه وتعالى، فيشعرهم بقوة أكبر ويزيد من اطمئنانهم وثباتهم في أرض المعركة عند رؤية الملائكة.

الآية التالية تكشف سبب المدد من الملائكة، وسبب زيادة أعداد الملائكة في ساحة المعركة، يقول تعالى: { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[4]

يُلاحظ في الآية السابقة ثلاثة عناصر: البشرى، واطمئنان القلوب، والنّصر، وهذا الترتيب المتناسق يشير إلى تتابع التّأثير النّفسي لمدد الملائكة، والبشرى تعني الفرح وإدخال السرور،

([1]) ينظر: ابن عاشور : التحرير والتنوير. ج4، ص74.

([2]) ينظر: الزمخشري: الكشاف.ج1، ص411.

([3]) أبو السعود: إرشاد العقل السليم .ج2، ص27.

([4]) آل عمران:126.

ورد في لسان العرب أن البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة [1] ، والطمأنينة تعني السكون[2]، فاجتماع البشرى وطمأنينة القلوب والنّصر، يوحي براحة نفسية ، وهدوء وروحانية عالية ، وثقة بالله سبحانه وتعالى.

في أسلوب الحصْر { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ } عطف إطمئنان القلوب على البشرى؛ ليوضّح أنّ هذا الإمداد من الملائكة هو إمداد بالسّكينة والرّاحة والفرح لنفوسكم ليس إلا ، (ولتطمئن) معطوف على موضع (بشرى)، إذ أصله لـ (بشرى). ولما اختلف الفاعل في (ولتطمئن)، أتي باللام إذ فات شرط اتحاد الفاعل، لأنّ فاعل بشرى(في المعنى) هو الله، وفاعل تطمئن هو قلوبكم".[3]

وجاء بأسلوب حصرٍ آخر في الآية نفسها { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الحَكِيم } ، ولم يشمل النّصر في أسلوب الحصر الأول؛ لاختلاف السّبب والنتيجة ، فالمدد سبب للبشرى والسّكينة، أمّا النّصر فلا علاقة له بالمدد، فهو يفيد قطع أيّ شك يمكن أن يتسرب إلى قلوب المسلمين أنّ النّصر من الملائكة، "حصر كينونة النصر في جهته، لا أنّ ذلك يكون من تكثير المقاتلة، ولا من إمداد الملائكة. وذكر الإمداد بالملائكة تقوية لرجاء النّصر لهم، وتثبيتا لقلوبهم." [4] ، وتفيد (ال) الداخلة على (العزيز الحكيم) العهد الذهني للمُسَلّم المتيقن بأن الله عزيز حكيم فلا يتردد في ذلك.

يُرسّخ أسلوب الحصر علاوة على التوكيد مفهوما عقائديا، وهو الإيمان المطلق والثقة بالله سبحانه وتعالى بأنّه سبحانه مسبّب الأسباب وبيده ملكوت كل شيء، مع ضرورة الأخذ بالأسباب والتهيئة الماديّة والمعنوية للقتال.

قدّم القلوب على الجار والمجرور (به) في قوله : (ولتطمئن قلوبكم به)، و في قوله تعالى: { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[5]، وأخّرها عنه في الأنفال (ولتطمئن به قلوبكم) في قوله تعالى: { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ

([1]) لسان العرب: بشر.

([2]) لسان العرب: طمن.

([3]) أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير. تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج3، ص335.

([4]) أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير. ج3، ص336.

([5]) آل عمران:126.

بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [1] ، مع أنّ الآيتين تتحدثان عن معركة بدر في الموطنين. يوضح السّامرائي ذلك بقوله: اختلف التركيب لاختلاف المقام والسياق، ففي آل عمران، ذكر معركة بدر تمهيدًا لذكر موقعة أُحد، وما أصابهم فيها من قرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب، وطمأنة لها، كل ذلك من قبيل المواساة والتبشير والطّمأنة، فقدّم القلوب على المدد، ولمّا لم يكن المقام في الأنفال كذلك ، وإنمّا المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ، ودور الإمداد السماوي في هذا النصر كان المقام مختلفا ، فقدّم (به) على القلوب، والضمير يعود على الإمداد، ولمّا كان المقام في آل عمران هو الطّمأنة وتسكين القلوب، قدّمها على الإمداد فقال (ولتطمئن قلوبكم به) وزاد كلمة (لكم) فقال (وما جعله الله إلا بشرى لكم) زيادة في المواساة والمسح على القلوب، فجعل كلا في مقامه.[2] فكان للتقديم والتأخير زيادة اختصاص واهتمام بالمقدم على المؤخر بما يناسب الموقف والحاجة، ولمّا كان القلب محط الخوف ومكانه ذكرها أولا ؛ ليخاطب بها أصحاب القلوب الخائفة، وأخره القلوب في الآية الثانية ليخاطب بذلك من لا يخاف الموت ولكنه ينتظر مدد الملائكة الموعود به وكيفية نزوله.

يعرض الخطيب الإسكافي رأيا نحويّا آخر في التقديم والتأخير فيقول: وأمّا تأخير(به) بعد قوله (قلوبكم) فلأنه أخّر الجار والمجرور في الكلام الأول ، وهو قوله تعالى : (وما جعله الله إلا بشرى لكم) ، وعطف الكلام الثاني عليه ، وقد وقع فيه جار ومجرور وجب تأخيرهما ليكون الثاني كالأول في تقديم ما الكلام أحوج إليه، وتأخير ما قد يستغنى عنه. أمّا تقديم (به) في سورة الأنفال؛ فلأنّ الأصل في كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول والجار والمجرور، وقد يقدّم المفعول على الفاعل إذا كان اللبس واقعيا فيه، وأريد إزالته عنه، فهو يبدأ بما هو أهم، وعنايته ببيانه أتم وكذلك الجار والمجرور بمنزلة المفعول به في التقديم والتأخير وشبههما . وفي هذا الموضع إذا لم يعرض في اللفظ من التوفقة ما يوجب إجراء الكلام على الأصل كما كان في سورة آل عمران ، فإن المعتمد بتحقيقه عند المخاطبين إنّما هو الإمداد بالملائكة، وهو الذي أخبر الله تعالى عنه أنّه لم يجعله إلّا بشرى، فوجب أن يقدم في الكلام الثاني، وهو المضمر بعد الباء في قوله تعالى (به)على الفاعل، فقال تعالى: (ولتطمئن به قلوبكم).[3]

([1]) الأنفال:10.

([2]) ينظر: السامرائي، فاضل: معاني النحو.ج3، ص110.

([3]) ينظر: الإسكافي، الخطيب: درة التنزيل وغرة التأويل.تحقيق: مصطفى آيدين، ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 2001م، ج1، ص390-391.

ويعلّل الخطيب الإسكافي ذكر الجار والمجرور(لكم) في آل عمران ، وعدم ذكرها في الأنفال؛ " لأنّ الأولى جاءت على الأصل، والثانية قد تقدّمها (لكم) فأغنت عن إعادتها بلفظها ومعناها، وهي في قوله تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين}[1]." [2]

لا يتعارض الرأيان في ذلك إنّما يتكاملان، فيفسر الخطيب الإسكافي التقديم والتأخير من ناحية التركيب اللغوي للجملة وتناسق الآيات مع بعضها، ويفسرها السامرائي من ناحية بلاغية، فيكمل الوجهان المعنى ويتّحدان ليكشفا الصورة.

ويشير إسناد البشرى للمخاطبين بقوله: (بشرى لكم) في سورة آل عمران، وعدم ذكر (لكم) في سورة الأنفال إلى تخصيص الله –سبحانه وتعالى– لهم البشرى دون غيرهم؛ لأنّهم كانوا في عسر وخوف شديدين، فإنزال الملائكة خاص بأهل بدر لظروفهم الخاصّة، أمّا في سورة الأنفال فجعل البشرى مطلقة دون تقييد لأهل بدر، فجعلها لكل من يقع في شدة ويلجأ إلى الله–سبحانه وتعالى– بالاستغاثة.

2. أنزل عليهم المطر والنعاس

تُجسّد دلالة النعاس والمطر في قوله تعالى: { إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}[3] صورة حسّية بصرية وذهنية للجّو العام للمعركة الذي بدا مفعما بالسّكينة والطّمأنينة اللتين تبشّران بالنصر . ويمكن بيان الصّورة الحسّية للجو النّفسي للمعركة برصد شبكة العلاقات النّحوية الدلالية على النحو الآتي:

1. **يدلّ الفعلان المضارعان المضعفان (يُغَشّيكم، يُنَزّلُ) على المبالغة والكثرة من حيث البنية الصرفية، ويفيد تضعيف الفعلين أنّ المدد من عند الله سبحانه ، ولو جاء الفعلان بلا تضعيف (غشاكم ، نزل) لتوهم المتلقي أن الفاعل للفعلين النّعاس والمطر، فالتضعيف أسند الفاعل إلى الله وحده.**

([1]) الأنفال:9

([2]) الإسكافي، الخطيب: درة التنزيل وغرة التأويل. ج1، ص390.

([3]) الأنفال:10.

2. **يرسم الفعلان المضارعان (يُغَشّيكم، يُنَزّلُ) فضاء فنّيا يعزّز دلالة الطّمأنينة والسّكينة للمؤمنين المشاركين في المعركة، فالعامل النّفسي لا يقل أهمية عن العوامل المّادية لتحقيق النّصر، فلا فائدة من عتاد وعدد دون العزيمة والإرادة وثبات القلب، لهذا " يقوم الفعل المضارع يُغَشّيكم بإحياء المشهد، واستحضاره في الذهن وكذلك فعل يُنَزِّلُ. وصورة المطر الحسّية تتلاحم مع صورة الملائكة الغيبية، فتسكن النفوس لتوفّر الدعم المادي، المتمثل بوجود الماء ، وتطمئن لوجود الدعم المعنوي، المتمثل في الإمداد بالملائكة، فتكون النتيجة قوة القلوب ، وثبات الأقدام، وهما الشرطان الضروريان لتحقيق النصر فيما بعد." [1]**

التّشبيه في هذه الصّورة حسّيّ إذ جعل النعاس كالغشاء عليهم، وإذا أنعمنا النّظر في اللفظ وجدنا التناسب الحسّي والمعنوي بين اللفظتين، فالنّعاس: هو أول النوم وأخفُّه، والغشاء هو أرقُّ الأغطية وأخفُّها، وكلتاهما في الرقة والخفة كانتا سببا للأمان والهدوء والسكينة، فاختيرت بعناية إلهية يحفها مدد الملائكة.

3. **يؤكّد الجار والمجرور في قوله تعالى: (أَمَنَةً منه) تشريف ذلك النّعاس ؛ لأنّه وارد من جانب القُدُس فهو لطف وسكينة ورحمة ربانيّة.[2]**

4. **يفيد تقديم الجار والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: { وينزّل عليكم من السماء ماء} الاهتمام بالمقدّم والتّشويق إلى المؤخر، ويفيد تقديم (عليكم) أنّ التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء .[3] وفيه بيان للاتصال المباشر بين الله وعباده المؤمنين ، واختصاص هذه الرحمات بهم. والطهارة في قوله تعالى: (لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ) تحتمل الطهارة الجسديّة والمعنويّة، الطّهارة من الحدث الأكبر والأصغر[4]، وطهارة**

([1]) الراغب، عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم. ص239.

([2]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص 279.

([3]) الألوسي : روح المعاني. ج9، ص176.

([4]) ينظر: المرجع نفسه. ج9، ص176.

الفكر المرتبطة بوسوسة الشيطان في قوله تعالى : { وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ }.

5. **يفيد فعل الرّبط في قوله تعالى: { وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ } الصّبر والتّحمل، وفي هذا التّصوير كأنّ القلب ينفلت كما تنفلت العقدة ، فكادت عزائمهم تفتر ، ثم جاء الرّبط ليقوّي قلوبهم وإيمانهم، فهذه الصّورة الكنائية تجسم المعنى وتنقله إلى مستوى أكثر تأثيرا وإثارة.**
6. **يدلّ تقديم ثبات القلب على ثبات البدن في قوله تعالى: { وَلِيَربِطَ على قُلوبِكمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} تقدم ثبات القلب على ثبات البدن؛ "فإنّ ثبات القلب أصل ثبات البدن".[1]**
7. **جاء الفعل (يربط) متعديا بحرف الجر (على)؛ للرّبط قصدا للاستعلاء، وفيه إيماء إلى أنّ قلوبهم قد امتلأت من ذلك كلّه حتّى كأنّه علا [2] ، والأصل أنّ الفعل يربط يتعدى مباشرة بلا حرف جر.**

3. تقليل عدد المؤمنين والكفار في عيون بعضهم بعضا

يتكرر الفعل (يُرِيكَهُمُ) في قوله تعالى: { إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [3] والآية التالية: { وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [4]

والرّؤيا الأولى في المنام مختصّة بالرّسول –عليه الصّلاة والسّلام–، والرّؤية الثّانية كانت حين اللّقاء مصدّقة لما رآه النّبي –صلّى الله عليه وسّلم–، فقلّلهم في أعين المسلمين تثبيتا لهم ،

([1]) السعدي، عبد الرحمن: تيسير الكريم الرحمن. تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط1، مؤسسة الرسالة، 2000م، ص316.

([2]) ينظر: الألوسي: روح المعاني. ج9، ص176.

([3]) سورة الأنفال: 43.

([4]) الأنفال:44.

وقلّل المسلمين في أعين الكافرين " قبل اللقاء، ثم كثّرهم فيها بعده ليجترئوا عليهم، قلّة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتقلّ شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، وذلك قوله { يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} ولئلّا يستعدّوا لهم، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أوّلا وكثرتهم آخراً." [1]

وينبغي التّنبيه أنّ دلالة الفعل (رأى) في الآيتين تتوزّع على رؤيا المنام الخاصّة بالرّسول – صلّى الله عليه وسلّم–، والرّؤية البصرية قُبيل بدء المعركة، ويؤكد الجمع بين الحالتين على العناية الرّبّانية التي مهّدت للنّصر في المعركة، فبشَّر الحلم بجوالب النصر، وصَدّق الواقع ذلك الحلم.

فصّل ابن عاشور الآية ، ووقف عند كل كلمة فيها موضحا دورها في رسم صورة الّلقاء بين المسلمين والكافرين، فتغيّر الأسلوب بين تقليل الكفار والمسلمين في أعين بعضهم بعضا ، ففي قوله تعالى :{ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا} عدد المشركين كثير، فناسبهم أن يقال أن عددهم قليل، وأمّا المسلمون: في قوله تعالى: { ويقللكم في أعينهم} فكان عددهم قليلا بالنّسبة لعدوهم فكان مناسبا أن يعبر عنه بأنه (تقليل) فهو زيادة في قلتهم، فالفعل(يقللكم) يجعلكم قليلا؛ لأنّ مادة التفعيل تدل على الجعل، والتقليل ليس بنقص عدد المسلمين إنما بالإراءة فقط لذلك قال سبحانه (في أعينهم) ، والالتقاء على صيغة الافتعال دالة على المبالغة.[2]
" إنّ قوة الله –أيضا– كانت تقلّل كل فريق في عين الآخر، دفعا له لمواجهته، فالصّورة للمعركة ترسم بكل ما فيها من مواقع وحركات حسّية، ومشاعر نفسية، تتجلى في تقليل كل فريق في عين الآخر، وأثر ذلك في نفسه، وطمعه في لقائه، لإنفاذ قدر الله في إحقاق الحق، وقطع دابر الكافرين" [3].

ويضيف فعل الرؤية دلالة جديدة في قوله تعالى: { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} [4]

([1]) الزمخشري: الكشاف. ج2، ص225.
([2]) ينظر:ابن عاشور : التحرير والتنوير. ج9، ص27.
([3]) راغب، عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم. ص238.
([4]) آل عمران:13.

فيرى الكفار المسلمين مثلي عددهم، رؤية بصريّة لا شكّ فيها، فوقع الرُّعب في قلوبهم فانهزموا، ثمّ بعد الهزيمة تبيّن لهم بأنّهم واهمون، فكان ذلك أشدّ حسرة لهم، وهذه الرّؤية غير الرّؤية المذكورة في الأنفال في قوله تعالى: { ويقللكم في أعينهم} ؛ فإن تلك يناسب أن تكون قبل التلاحم، حتى يستخف المشركون بالمسلمين، فلا يأخذوا أهبتهم للقائهم، فلما لاقوهم رأوهم مثلي عددهم فدخلهم الرعب والهزيمة.[1]

وهذه الآية جاءت لوصف حالة القتال في المعركة وجيء بالفعلين المضارعين (تقاتل، ويرونهم) استحضارا للمشهد ، فكان الكافرون يَرون المسلمين أكثر عددا منهم وذلك بإمداد الله لهم بالملائكة مما أفزعهم ، وجاء تذييل الآية مناسبا بقوله تعالى: { إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} ، فوردت ألفاظ الرؤية في هذه الآية مثل(يرونهم، رأي العين، الأبصار) لأنّ تأييد الله كان ظاهرا ، وكان مدّه للملائكة في تلك الحالة أمرا ظاهرا خفيّا، مخيفا للأعداء في ظاهره مطمئنا للمسلمين في خفائه واستشعارهم به. وبصيرة العين تُهدي إلى بصيرة القلب، فمن يرى تأييد الله لعباده بآية معجزة وقع عليها بصره، تفتح بصيرة قلبه.

ويتعزّز الأثر الجمالي، والتّأثير النّفسي لصورة المعركة بتقديم فئة المؤمنين على فئة المشركين، إذ بدأ سبحانه وتعالى بالفئة المؤمنة إعلاء لمنزلتهم، وعبّر عن الفئة المؤمنة بقوله: { فئة تقاتل في سبيل الله} وفيها تخصيص لهذه الفئة، فلم يقل (مسلمون)؛ لعموم اللفظ، فإنّ الذين قاتلوا يوم بدر كانوا جزءا من المسلمين فخصهم الله –سبحانه وتعالى– بالذكر، أمّا الفئة الكافرة فعبّر عنها بلفظة واحدة (وأخرى كافرة) دلّت على تدنّي منزلتهم.

([1]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج3، ص177.

لماذا قال تعالى: (قد كان لكم آية) بتذكير الفعل، ولم يقل (قد كانت لكم آية) بتأنيث الفعل؟ إنما ذلك حمل على المعنى، قال فاضل السامرائي:" نقول أنه من حيث الحكم النحوي يجوز تذكير وتأنيث الفعل لكن يبقى السر البياني لهذا التذكير والتأنيث، ونقول أنه عندما تكون كلمة (آية) بمعنى الدليل والبرهان تكون بمعنى مذكر فيأتي الفعل بالتذكير، وإذا كانت كلمة الآية بمعنى الآية القرآنية أنثت الفعل" . السامرائي، فاضل: أسرار البيان في التعبير القرآني. ص21.

❖ المطلب الرابع: المواجهة بين المسلمين والمشركين.

1. قتال الملائكة.

قال تعالى: { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ } [1]

يبدأ تصوير المعركة من هذه الآية بعد ذكر قوة الله الخفيّة ووحيه إلى الملائكة بتثبيت المؤمنين، وزجّ الرّعب في قلوب الكافرين، والفعل المضارع (يوحي)؛ لاستحضار المشهد وتجسيده في الواقع، ويفضي رصد النسيج النحوي للآية إلى بيان صورة المواجهة في معركة بدر على النحو الآتي:

1. **يفيد الظرف (إذ) تواصلا زمنيّا بين مراحل معركة بدر من حيث الاستعداد النفسي، والعناية الربانية، وتنزيل السكينة والطمأنينة على المسلمين ؛ لأنّ الظّرف (إذ) في الآية السابقة متعلق بقوله تعالى: { فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} ،**

([1]) الأنفال:12-14.

كما أنّ التواصل الزمني تحقق في الظرف (إذ) في قوله تعالى: { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ}.

2. **تتضمن كاف المخاطب في قوله تعالى: (يُوحِي رَبُّكَ) إعلاء لمكانة النّبي عليه السّلام، إذ جعل الخطاب للنبي- صلى الله عليه وسلم- تلطفا به ورفعة لشأنه، فهو الأَولى والأحقّ أن يعلم بما تخبر به الآيات.[1]**
3. **يُضفي لفظ الملائكة التي أوحى لها الله -جلَّ وعلا- ظلالاً روحية تعزز يقين المؤمنين بالنّصر، وتُضعِفُ عزيمة الكافرين، إذ " تُلقي صورة الملائكة في حسّ المؤمن الخوف من الله، والتقرب إليه، وتطبع في قلوب الكافرين الفزع من هذه القوة الخفية المشاركة في المعركة. لذلك كان تركيز التصوير على فعل الملائكة في ضرب الأعناق، وضرب كل بنان، لأنّ هذا هو المفيد من تصوير الأحداث." [2]**

4. **يدلّ المصدر المؤول (المفعول به) (أَنِّي مَعَكُم) للفعل (يوحي) على ثبوت معيّته لهم، والمعيّة هنا مجازيّة وليست المعيّة بحقيقتها، فالله يوجه عنايته إليهم وييسر العمل لهم، والمعيّة تؤذن بشيء فيه المصاحبة ففيها تشريف وثم تكليف على الترتيب.[3]**

5. **يخرج فعل الأمر عن دلالته الحقيقية في قوله تعالى: (فثبّتوا الذين آمنوا) إلى دلالة مجازية؛ لإزالة الإضطراب النفساني الذي نشأ عن الخوف وعدم استقرار الرأي، وفي تثبيتهم إيقاع ظن في نفوسهم أنّهم منصورون.[4]**

6. **أسند الفعل (ألقي) لرب العالمين في قوله: {سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب} ولم يسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الملائكة ؛ لأنّ أولئك الملائكة المخاطبين**

([1]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص280.

([2]) الراغب، عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم.ص239.

([3]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج9، ص281.

([4]) ينظر: المرجع نفسه .ج9، ص281.

كانوا ملائكة نصر وتأييد فلا يليق بقواهم إلقاء الرعب ، فجملة (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) مستأنفة استئنافا ابتدائيا إخبارا لهم بما يقتضي التخفيف عليهم في العمل الذي كلّفهم الله به.[1] والرعب أضيف إلى القلوب، فهو إحساس معنوي يفضي إلى التردد والخسارة.

7. **يرسم فعل الأمر المكرر (اضربوا) وما تعلق به في قوله تعالى: { فَاضْرِبُوا فَوقَ الأَعْنَاقِ واضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بِنَان} صورة القتال وكيفيته، ويوحي للمتخيّل كيفية الضرب، وإسناد الضرب إلى الملائكة مجاز عقلي، ولكن لماذا ذكر الفعل (اضربوا) ولم يذكر الفعل اقطعوا؟ كأنّ الضرب أعم وأشمل من القطع، والضّرب لا يمكن أن تتوقع أدواته وتحدّدها فهو أوسع في أدواته، وذلك ما يناسب الحديث عن الملائكة فهم يد الله الخفية لا يمكن معرفة تفاصيل وكيفية عملهم، وقد يكون الضرب يترك آلاما أشد وأفظع، فإذا بلغ الضرب منتهاه وقوته قد يقتل الإحساس والشعور بالألم؛ ولذلك يريد الله –سبحانه وتعالى– أن يذيقهم ويلات العذاب قبل خروج أرواحهم. وفعل الأمر (اضربوا) يفيد الشماتة والإهانة، والضرب فوق الأعناق اختلف في تفسيرها والأرجح أنها الرؤوس، وخص الله –سبحانه وتعالى– ضرب الرؤوس دون غيرها؛ لأنّ المقاتل بحاجة إلى عقل يدبر ويخطط للكر والفر ومكان العقل الرأس، فإذا ضربت الرؤوس لا يستطيع التفكير.**

وفي قوله تعالى: (واضربوا منهم كل بنان) مجاز مرسل علاقته جزئيّة، ذكر الجزء (البنان) وأراد الكل (الجسد) . وفي رواية عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، أنها الجسد كله في لغة هذيل.[2] وإنّما خصّت الأعناق والبنان ؛ لأنّ ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان يبطل صلاحية المضروب للقتال، لأن تناول السلاح إنما يكون بالأصابع.[3]

8. **يمثل أسلوب الشّرط في قوله تعالى: { وَمَنْ يُشَاقِقْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) قيمة أساسية في القدرة على ربط جملتين فعليتين في آن معا، وهذا يرتبط بقيمة تنوع**

([1]) ينظر: المرجع نفسه .ج9، ص282.

([2]) ينظر: الألوسي: روح المعاني. ج9، ص178–179.

([3]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج9، ص283.

الزمن في هذا الأسلوب. والدلالة الثانية التي يحققها هذا الأسلوب أنه يفيد نتيجة موضوع المشروط عليه بهدف الشارط فإن تحقق الهدف تحققت النتيجة ، والعكس صحيح. والمراد من قوله تعالى: { فإن الله شديد العقاب} التّأكيد على عقاب المشاقين وبذلك يظهر الارتباط بين الجزاء والشّرط بعده لازم الخبر .[1]

9. يتضمن فعل الأمر (فذوقوه) في قوله تعالى:{ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ}، دلالة السّخرية والتّهكم ، فالعذاب العاجل صار مذاقا في حلوقهم، يشعرون بآلامه ومرارته، وهو قبل العذاب الآجل، في النار يوم القيامة، ثم يأتي التوجيه من خلال التصوير في سياقه الملائم.[2]

يقول الرازي:" ونبّه بقوله: (ذلكم فذوقوه) وهو المعجل من القتل والأسر على أنّ ذلك يسير بالإضافة إلى المؤجل لهم في الآخرة، فلذلك سماه ذوقا؛ لأنّ الذوق لا يكون إلا تعرف طعم اليسير به حال الكثير، فعاجل ما حصل لهم من الآلام في الدنيا كالذوق القليل بالنسبة إلى الأمر العظيم المعد لهم في الآخرة".[3]

10. تقدم خبر (أنّ) على اسمها في قوله تعالى: { وأنّ للكافرين عذاب النار} ؛ للقصر والحصر الذي يفيد تأكيد الخبر وتحقيقه، فهؤلاء الذين كفروا شاقّوا الله ورسوله، فاستحقوا عذاب النار، فالكفر السبب فقدمه وأتبعه بالنتيجة وهي العذاب؛ أي أنّ عذاب النار لهم لا لغيرهم.

وترسم الآيات من سورة الأنفال صورتين: ذهنية، وحسّيّة لعذاب المشركين في معركة بدر في قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [4]

([1]) ينظر: المرجع نفسه .ج9، ص284.

([2]) ينظر: الراغب، عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم. ص239.

([3]) الرازي : التفسير الكبير. ج15، ص136.

([4]) الأنفال:50.

تبدأ الصّورة الذّهنية بقوله تعالى: (ولو ترى)، إذ يصوّر سبحانه وتعالى صورة الكفار حين تقبض الملائكة روحهم، وهذه الصّورة توجب على المرء التخيل؛ لأنّ حضور الملائكة وعملية قبض الرّوح أمر في علم الغيب يكون بينه وبين البشر حاجز لا يرون تفاصيله ولا كيفيته، إنّما يرون النتيجة وهي الوفاة ، لذلك بدأت الآية بقوله تعالى (لو ترى) و(لو) حرف امتناع لامتناع؛ " أي لو رأيت، فإن لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا" [1]، فالرؤية لم تحصل ، ولكنكم لو كنتم ترون ما وراء الحجاب لرأيتم كيف يكون قبض روح الكافرين المصحوب بالتعذيب والإهانة والمذلة.

وتبدأ الصّورة الحسّيّة بضرب وجوه المشركين وأدبارهم، ويحمل قوله تعالى: { يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } غير معنى، فهم يضربون وجوههم وهي مقدمة الجسد والضّرب عليها إذلال ومهانة ، ويضربون أدبارهم بعد ضرب الوجه فيجعلهم الضرب متخبطين بين أعلى وأسفل يتأرجحون من العذاب ، وإن كان تعبير الوجه يحمل معنى الجسد من الأمام ، والدّبر يحمل معنى الجسد من الخلف فإن عذابهم أوسع وأشمل للجسد كله.

و قدّم المفعول به (إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ) على الفاعل لأنّ السّياق تغليظ عقوبة الكفر وبيان عاقبة الكافرين فإنّ المراد بيان حال هؤلاء عند الاحتضار، ولم يقدّم الملائكة؛ لأنّه لا يتعلق غرض بذكرهم، فإنّ الملائكة تقبض بني آدم جميعا، مؤمنهم وكافرهم ، إنّ الغرض بيان احتضار الكافر، وإنه ليس كاحتضار المؤمن، وإنّه يلقى عذابا ومشقة في احتضاره، وإنّه يبدأ صب العذاب عليه حين التّوفي، فالمقصود هنا تشنيع حالة الكفر وبيان غلظ عقوبة الكافرين فقدم الذين كفروا، ولو قدّم الملائكة في هذا الموطن لم يفد هذا المعنى." [2] قال سيبويه: " وإن قدمت المفعول ، وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قوله: ضرب زيدا عبد الله، لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخرا وهو عربي جيد كثير، كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعني وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم" [3]

([1]) أبو السعود : إرشاد العقل السليم.ج4، ص27.

([2]) السامرائي، فاضل: معاني النحو.ج2،ص56.

([3]) سيبويه: الكتاب. تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1988م، ج1، ص34.

2. قتال المؤمنين.

يبدأ الخطاب الخاص بالاستعداد لمعركة بدر بتحريض المؤمنين على قتال المشركين في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[1]

الخطاب موجّه للنبي –صلّى الله عليه وسلّم– ، خطاب يليق بقدره، وملزم لأمر ربه، " ليكون النبي –صلى الله عليه وسلم– أنموذجا جامعا لمحاور العلاقة المختلفة بين الله والبشر في عمومهم، لذلك فقد كان محلا للتوجيه العام والحكم التشريعي والعتاب الشخصي" .[2]

لازم الفعل(حرّض) سياق الحرب والقتال في القرآن الكريم. وينبغي أن نعي أنّ الفعل بغير تضعيف لا ينسجم مع سياق القتال والحرب ؛ لأنّ الرجل الحَرِض أو الحَرَض هو الذي لا يرجى خيره ولا يخاف شره، والحرض هو الذي لا يتخذ سلاحا ولا يقاتل ، والأحراض والحرضان هم الضعاف الذين لا يقاتلون ، والحرض هو الرديء من الناس.[3] ولكن صيغة الفعل بالتضعيف تحوّل المعنى إلى ما يقتضيه سياق الحرب والقتال من شجاعة وبأس ، فالتحريض – مصدر حرّض– وهو " الحثّ على الشّيء لكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه...، كأنّه في الأصل لإزالة الحرض، نحو: مرّضته، وقذّيته، أي أزلت عنه المرض والقذى." [4]

وملازمة الفعل(حرّض) للحثّ على القتال دون غيره من البدائل، إيحاء للمخاطبين بأنّ القاعد عن القتال هو حارض بما يشتمل عليه من معاني الجبن والضعف، فالتحريض حثّ ذو دلالة إيحائية؛ لأنّ التحريض " أن تحثّ الإنسان حثاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه، والحارض

([1]) الأنفال:65–66.

([2]) منير، وليد:النص القرآني من الجملة إلى العالم.ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مصر،1997م، ص86.

([3]) ينظر: لسان العرب: حرض.

([4]) الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن. تحقيق: صفوان الداودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1412هـ، ص121.

الذي قارب الهلال، وقوله تعالى : {حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ }[1] ، وعليه فإن القيمة الدلالية لملازمة الفعل (حرّض) لسياق القتال تتمثل بأمرين ، الأول: الحث على القتال. والثاني: توبيخ من يتخلف عن القتال، وتحقيق الأمرين لا يتم بفعل مناظر آخر. [2]

والمراد من قوله تعالى: { إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ } الأمر لا الخبر وإن كان واردا بلفظ الخبر ، أي إن يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى (يغلبوا مائتين)، وبيّن الرازي الدليل على ذلك بوجوه عدة، الأول: لو كان المراد منه الخبر ، لزم أن يقال: إنّه لم يغلب قط مائتان من الكفار عشرين من المؤمنين ، ومعلوم أنّه باطل، الثاني: أنه قال (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ). الثالث: قوله :(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) وذلك ترغيبا في الثبات والجهاد.[3] والمقابلة بين عدد المسلمين القليل الذي سيغلب عدد الكافرين الكثير فيه تشجيع وتقوية لنفوس المسلمين ، وإشعار لهم بأنّ الله معهم مؤيدهم وناصرهم يبثّ في نفوسهم النّصر قبل حدوثه.

ويحقّق العدد النسبة والتناسب بين عدد المؤمنين وعدد المشركين في قوله تعالى: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا}، فالواحد من المسلمين يقابله عشرة من الكافرين، فلماذا عدل عن اللفظة الوجيزة إلى تلك الكلمات الطويلة؟ يعلّل الرازي : " أنّ هذا الكلام إنّما ورد على وفق الواقعة ، وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يبعث السرايا، والغالب أنّ تلك السّرايا ما كان ينتقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة ، فلهذا المعنى ذكر الله العددين" [4] وفي ذلك إشارة إلى قلة عدد المسلمين مقابل عدد الكفار.

والتذييل جملة اسمية خبرها شبه جملة { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} أفاد الخبر أن الله عز وجل مع الثابتين في أرض المعركة لا يفرّون منها، وذلك تأكيد على ضرورة الثّبات وترغيب به، وذكر الصبر في الآيتين بلفظتين الأولى {عشرون صابرون} وكأنّ الصبر مختص بكل فرد منهم، والثانية {مائة صابرة} جعل المئة حزمة واحدة لا ينفك منها أحد، فصبرهم هنا أوجب وألزم ،

([1]) يوسف: 85.

([2]) ينظر: عتيق، عمر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم. عالم الكتب الحديث، إربد، 2010م، ص157.

([3]) ينظر: الرازي: التفسير الكبير.ج15، ص198

([4]) المرجع نفسه .ج15، ص199.

وعليهم أن يكونوا أكثر صلابة لمواجهة العدو، فمع التخفيف عنهم زاد تكليفهم أن يكونوا يدا واحدة.

وتتواصل أبعاد صورة المعركة التي تصور قتال المؤمنين في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمْ الأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[1]

تصوّر الآية مكانة المؤمنين، وترفع شأنهم، وتحط من شأن الكافرين، فتستهل الآية بأسلوب خطابي نداء المؤمنين، والنداء هنا من الله تعالى يرفع به المنادى. ولم يقل (يا أيها المؤمنون) ولكن جاء بالاسم الموصول بعد النداء فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وإطلاق صفة الإيمان عليهم ومناداتهم بـ (الذين آمنوا) فيها تحبب ولين بالخطاب، ويقابلها (الذين كفروا) فإطلاق صفة الكفر عليهم فيها إذلال لهم وبيان لدنو قدرهم وللتفريق بينهم وبين المؤمنين من حيث الشأن.

وصاحَب النّداء أسلوب الشّرط (إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمْ الأَدْبَارَ) الذي أثر على قوة أسلوب النداء وتعظيم الأمر المخاطب بشأنه .وأداة الشرط (إذا) دخلت على الماضي ولكنها تدل على الحاضر ، لأنّه أمرٌ حدوثه يقيني ومحقق فكأنه حدث وانتهى. و" تختص (إذا) بدخولها على المتيقن، والمظنون، والكثير الوقوع، بخلاف (إنْ) فإن تستعمل في المشكوك والموهوم والنادر".[2] ولما كانت (إذا) تفيد الجزم بالوقوع، غلب معها لفظ الماضي، لكونه أدل على الوقوع باعتبار لفظه.[3]

وعبّر عن حال لقائهم بالمصدر (زحفا) مبالغة في التشبيه [4] ، والمراد من تولية الأدبار الانهزام، فإن المنهزم يولي ظهره من انهزم منه، وعدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقبيحا للانهزام وتنفيرا عنه.[5]

([1]) الأنفال:15-16.

([2]) السامرائي، فاضل: معاني النحو. ج4، ص72.

([3]) ينظر: المرجع نفسه .ج4، ص76.

([4]) ينظر: البقاعي: نظم الدرر. ج9، ص240

([5]) الألوسي: روح المعاني. ج9، ص181.

وهذه الصّورة الحسّيّة الكنائية الحركية التي تعبر عن لغة الجسد بتولية الأدبار يلزم منها الهرب، صورة كريهة منفّرة، يقصد بها التحذير والترذيل، وقد وردت بعد تصوير الحدث للمعركة، لينقل المسلمين من الواقعة المحدودة إلى الفكرة الدائمة في أثناء ملاقاة العدو.[1]

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [2]

تضمّن أسلوب الشّرط في قوله تعالى: { من يولهم يومئذ دبره ...فقد باء بغضب من الله} حالتين لا يشملهما النهي(فلا تولوهم الأدبار) في الآية السابقة ، فالحالة الأولى (إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ) وهي الخدعة في الحرب بأن يوهم العدو بانسحابه [3] ، واللام في (لقتال) للتعليل ، بأن يكون التحرف لأجل القتال إن كان المراد بالقتال الاسم، أو لأجل إعادة المقاتلة إن كان المراد بالقتال المصدر، وتنكير (قتال) يرجح الوجه الثاني فيكون الفر لأجل الكر[4]، أما الحالة الثانية (أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ) فطلب الحوز أو لتقديم العون [5] ، " ولمّا كان هذا محل توقع السامع للجواب وتفريغ ذهنه له ، أجاب رابطا بالفاء(فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ) إعلاما بأنّ الفعل المحدث عنه سبب لهذا الجزاء". [6]

أمّا جواب الشرط { فقد باء بغضب من الله} ، فقد اقترن بحرف التحقيق (قد) الملاصق للفعل الماضي، ولو اتصل بفعل مضارع لأدّى معنى التشكيك ، ولكنه يؤكّد على تحقيق جزاء من يخالف أمره ، فغضبه واقع عليه لا محالة ، ومثواه جهنم وبئس المصير، ولَلموت في ساحة المعركة ومواجهة العدو أحب إلى المؤمن من فراره ووقوع هذا الجزاء عليه. و(باء) بمعنى رجع، "يشير إلى أنّ سبب الغضب عليه هو ذلك البوء الذي باءه." [7]

([1]) ينظر: الراغب، عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم. ص240.

([2]) الأنفال:16.

([3]) التحرف: الانصراف إلى الحرف، وهو المكان البعيد عن وسطه فالتحرف مزايلة المكان المستقر فيه والعدول إلى أحد جوانبه، وهو يستدعي تولية الظهر لذلك المكان بمعنى الفرار منه . ابن عاشور: التحرير والتنوير . ج9، ص289.

([4]) ينظر: المرجع نفسه .ج9، ص290.

([5]) التحيز: طلب الحيز من الحوز، والفئة الجماعة من الناس وتطلق على مؤخرة الجيش؛ لأنها يفيء إليها من يحتاج إلى إصلاح أمره أو من عرض له ما يمنعه من القتال ، وليس المراد أن ينحاز إلى جماعة مستريحين لأن ذلك من الفرار. ينظر: المرجع نفسه . ج9، ص291.

([6]) البقاعي: نظم الدرر.ج9، ص241.

([7]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص291.

وجيء بالإنشاء غير الطلبي بصيغة الذم (بئس)؛ لبيان بشاعة ما يستحقه من يترك القتال في ساحة المعركة، زيادة لتعظيم هذا الأمر في نفوسهم، فقد بيّن –سبحانه وتعالى– تعاسة مصيرهم وذمه تشديدا على الحرص بعدم الإتيان بمثل هذا الفعل.

تؤكد الآيتان السابقتان الضّوابط العملية خلال المعركة ، وهي إرشادات تقيهم مصارع السوء ، وتحثهم على التجهز لكل أمر والتوكل على الله بعد العزم والأخذ بالأسباب، والثبات أمام العدو حتى آخر رمق، فإنّ النصر مع الصبر، وما النّصر إلّا صبر ساعة.

ويؤكّد الخطاب القرآني أنّ النّصر المبين في معركة بدر – الذي أذهل قريشا التي لم تكن تشك بقدرتها على دحر المسلمين– كان تدبيرا ربانيا، ولم تكن سيوف المسلمين إلّا مشهدا صوريا في المعركة؛ لأنّ القتل والفتك وتبديد صفوف المشركين إرادة الله عز وجل، كما يتجلى في قوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حسنا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]

ترتبط الآية بسياق الآيات السابقة بالفاء في قوله : (فلمْ تقتلوهم)، وتحتل الفاء وجوها دلاليّة عدّة: فالوجه الأول: إنّها فاء فصيحة ناشئة عن جملة (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم) تفصح عن مقدر قبلها شرط فتكون رابطة لجوابه، وتقديرها إذا علمتم أنّ الله أوحى إلى الملائكة بضرب الأعناق فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم، والوجه الثاني: أن تكون الفاء عاطفة على جملة (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا...) أي "يتفرع على النهي عن أن تولوا الأدبار وهو تفريع العلّة على المعلول"[2]، والوجه الثالث: (أن تكون الفاء للرّبط بين الجمل).[3]

وتتضمن الجملتان الفعليتان المنفيتان (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ) لطائف نحوية دلالية، فالنّفي يقع على الفاعل دون الفعل، " وأصل الخبر المنفي أن يدلّ على انتفاء صدور المسند عن

([1]) الأنفال:17.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص293.

([3]) الألوسي : روح المعاني.ج9، ص184.

المسند إليه، لا أن يدلّ على انتفاء وقوع المسند أصلا، فلذلك صحّ النّفي مع كون القتل حاصلا، وإنما المنفي كونه صادرا عن سيوفهم" [1] . ويأتي الاستدراك بـ (لكن) مكررا في الآيتين ليسلب عن المسلمين أسباب النّصر في المعركة ، يثبته لله وحده في قوله (وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ\ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى) .

المبحث الثالث: نتائج معركة بدر

- **المطلب الأول: نصر الله للمؤمنين.**
- **المطلب الثاني: مصير الكافرين.**
- **المطلب الثالث: أسرى معركة بدر.**
- **المطلب الرابع: غنائم معركة بدر.**

([1]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص294.

❖ المطلب الأول: نصر الله المؤمنين.

شكَّل انتصار المسلمين محطة تحوّل في الجزيرة العربيّة، فقد كسر التفوّق الذي كانت تعيشه قريش منذ زمن، وأصبح المسلمون بعده قوّة تهاب ويحسب لها حساب. وكان انتصارهم أساسا للانتصارات التي حصلت بعده، وسمّى القرآن الكريم هذا الانتصار يوم الفرقان، لكونه اليوم الذي انقلبت فيه كفّة الميزان لصالح التوحيد، بعدما كان يميل قبله لمصلحة الشّرك والمشركين.

كان المسلمون ضعفاء في وجه قريش، لا يملكون ما يواجهونهم به، إلّا أنّ النّصر كان حليفهم، قال تعالى:

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[1]

جاءت الجملة الفعلية مؤكدة بحرفي توكيد (اللام وقد) لتأكيد وتثبيت أمرين، الأول : نصرهم يوم بدر، والثاني : حالهم يوم بدر إذ كانوا ضعفاء غير قادرين على مواجهة الكفار، فالنّصر ليس من عند أنفسكم فأنتم أذلة وقلة في العدد والسلاح. والتّصريح باسم بدر من ورائه استذكار نعمة الله تعالى على المؤمنين في ذلك اليوم العظيم، عند سماع ذلك الاسم الذي وقعت فيه المعركة وتنزل فيه نصر الله المؤزر، فكان فرقانا مبينا بين الحق الذي ظهر والباطل الذي اندحر.[2]

وقوله تعالى:(وأنتم أذلة) استحضار لحالهم عبر ضمير المخاطب، والجملة واقعة حالا ولفظة (أذلة) جمع قلة، والسّر في جمعه جمع قلّة للإشعار باتصافهم حينئذ بوصفي القلة والذلة.[3]

وتؤكد كلمة (الذّلة) على ضعف مادي وهو العدد والعدة ، فهي " ليست ذلّة نفسيّة، ولا ضعفا قلبيا، وإنما هى ذلّة حاجة وعوز، وقلة فى المال والرجال، بحيث يخفّ ميزان أصحابها فى أعين

([1])آل عمران:123.

([2]) ينظر: الخنين، ناصر: النظم القرآني في آيات الجهاد.ط1، رسالة دكتوراة، إشراف: فريد النكلاوي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض. مكتبة التوبة، 1996م. ص100.

([3]) ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم.ج2، ص 79.

الناس، حين ينظرون إلى ظاهرهم هذا، فوصف المؤمنين بالذلّة هنا، إنما هو وصف للحال الظاهرة منهم للناس.. أما فى حقيقة أنفسهم، فهم من إيمانهم بالله، وثقتهم فيه، وتوكّلهم عليهم واستعلائهم على حاجات الجسد، ومتاع الحياة- هم فى عزّة عزيزة، تستخف بكل قوى المادة وعتوّها".[1]

وتستحق هذه النعمة تقوى الله والشكر، وبدأ سبحانه وتعالى بالأمر (اتقوا الله) وهو واجب عليهم، مُلزم لهم، أمّا الشكر فجاء بصيغة(لعلكم تشكرون)؛ لأنّ الأصل شكر النعم وعدم الجحود بها، و الشكر جالب للتقوى، ومشعر بنعم الله وفضله .

ويذكّر القرآن الكريم المسلمين بحالهم قبل بدء معركة بدر في قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2]

يختزل فعل الأمر(اذكروا) عناقيد دلالية تصوّر حالة المسلمين قُبيل معركة بدر، ومن المعاني التي يفيدها الفعل(اذكروا) أيّام الضّعف والخوف، قبل أن يوجهكم إلى قتال المشركين، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطّائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون... ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين.[3]

تُضمر الجملة الفعلية (تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُم النَّاس) أبعادا دلاليّة نفسيّة، وتكشف عن خفايا النّفس الإنسانية؛ لأنّها تجسّد" مشهد التّربص الوجِل، والتّرقب الفزع، حتى لتكاد العين تبصر بالسمات الخائفة، والحركات المفزّعة، والعيون الزائغة، والأيدي التي تمتد للتخطف والقلة المسلمة في ارتقاب وتوجس، ومن هذا المشهد المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم، في ظل الله الذي آواهم إلى حماه".[4]

([1]) الخطيب، عبد الكريم: التفسير القرآني للقرآن. دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ج2،ص574.

([2]) الأنفال:26.

([3]) ينظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3، ص1496.

([4]) المرجع نفسه. ج3، ص1496.

المطلب الثاني: مصير الكافرين.

ورد مصير الكافرين في معركة بدر في غير آية في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾[1]

تصف الآية الذين تقاعسوا عن الهجرة إلى المدينة المنورة ، وخرجوا لقتال المسلمين يوم بدر مع الكافرين فقتلوا[2]. تكشف القرائن اللفظية والنحوية مصير الكافرين القاعدين عن الهجرة حفاظا على مصالحهم بصورة تحرّك النّفس :

1. **يستحضر الفعل المضارع (توفّاهم) مشهد الملائكة وقد حضرت لتتوفاهم وتقبض أرواحهم، وهم في حال ظلموا فيه أنفسهم؛ لأنّهم عرفوا الحقّ واتّبعوا الباطل تهاونا وتكاسلا وطمعا في الدنيا، " وهذا وحده كفيل بتحريك النفس وارتجافها. إذ يكفي أن يتصور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهو ظالم لنفسه وليس أمامه من فرصة أخرى لإنصاف نفسه، فهذه هي اللحظة الأخيرة" .[3]**

([1]) النساء: 97-98.

([2])نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا حِينَ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا هَاجَرَ أَقَامُوا مَعَ قَوْمِهِمْ بِمَكَّةَ فَفَتَنُوهُمْ فَارْتَدُّوا، وَخَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فَكَثَّرُوا سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ، فَقُتِلُوا بِبَدْرٍ كَافِرِينَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: كَانَ أَصْحَابُنَا هَؤُلَاءِ مُسْلِمِينَ وَلَكِنَّهُمْ أُكْرِهُوا عَلَى الْكُفْرِ وَالْخُرُوجِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِمْ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قالُوا: وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو قَيْسِ بْنُ الْفَاكِهِ، وَالْحَارِثُ بْنُ زَمْعَةَ، وَأَبُو قَيْسِ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَعَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ. ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج5،ص174.

([3]) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2، ص744.

2. **يصف الحال(ظالمي أنفسهم) سوء فعلتهم ، فهم عرفوا الحقّ ولم يتمسّكوا به، وآثروا الحفاظ على أموالهم ومصالحهم، أو أشفقوا من مشاقّ الهجرة. وظلم النّفس أشدّ أنواع الظلم؛ لأنّهم حققوا لها شهوة عاجلة وورثوا أنفسهم شقاء دائما، " حرموها الحياة في دار الإسلام، تلك الحياة الرفيعة النّظيفة الكريمة الحرة الطليقة، وألزموها الحياة في دار الكفر تلك الحياة الذليلة الضعيفة المضطهدة" .[1]**

3. **يدلّ أسلوب الاستفهام في قول الملائكة: (قالوا: فيم كنتم؟) على إنكار وتقريع وتوبيخ ما فعلوه، فهم أضاعوا حياتهم و نعيم الآخرة، " يقلبون ماضيهم، ويستنكرون أمرهم! ويسألونهم: فيم أضاعوا أيامهم ولياليهم؟ وماذا كان شغلهم وهمهم في الدنيا؟".[2]**

4. **تحمل لفظة (مستضعفين) في قولهم: (قالوا: كنا مستضعفين في الأرض) معنى الذّل والضّعف الشديد، الذي تأباه النفس الكريمة المؤمنة، فقولهم يحمل عذرا غير مقبول، يشكك في نواياهم ويظهر حقيقة ضعف إيمانهم الذي كانوا عليه.**

5. **يدلّ جواب الملائكة بالاستفهام بالهمزة وحرف النفي (قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) على معنين، الأول: استفهام إنكاري، إنكار الملائكة ثانية لفعلتهم ، وإنكارهم لعذرهم الواهي بأنهم كانوا مستضعفين ، والثاني: استفهام تقريري؛ أي لحمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه إثباتا، فالجواب المضمر لسؤال الملائكة (بلى، كانت أرض الله واسعة)، فيبيّن ذلك أنّه " لم يكن العجز الحقيقي هو الذي يحملهم- إذن- على قبول الذل والهوان والاستضعاف، والفتنة عن الإيمان.. إنّما كان هناك شيء آخر.. حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم يمسكهم في دار الكفر، وهناك دار الإسلام، ويمسكهم في الضيق وهناك أرض الله الواسعة، والهجرة إليها مستطاعة مع احتمال الآلام والتضحيات." [3]**

6. **توضّح الآية { فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً } النّهاية، والوعد الإلهي لمثل هذه الفئة، فلا تهاون معهم، والجملة (ساءت مصيرا) فيها أسلوب الذّم لجهنّم في لفظة (ساءت) دلالة على ذم فعلهم وسوء منقلبهم ، فمصيرهم ومآلهم إلى جهنم.**

([1]) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج2، ص744.

([2]) المرجع نفسه. ج2، ص744.

([3]) المرجع نفسه. ج2، ص745.

7. يوضّح الاستثناء في قوله تعالى {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً } الفئة التي لا يقع عليها الحكم، وهم حقيقة مستضعفون، فوصف حالهم بأنّهم لا يستطيعون حيلة ، لا مقدرة لهم على مقاومة الكفار، ولا يهتدون سبيلا، عاجزين عن الفرار.

يصوّر المشهد النّهاية الحاسمة التي لا مفر منها لكل متقاعس يفضل مصلحته الشخصية على أمر الله، ويكشف الحوار بين الملائكة ومن ظلموا أنفسهم عن خبايا النفس ووسوساتها وحقيقة النوايا، فاختلاقهم للأعذار لا يمحي حقيقة أمرهم، وفيه دعوة إلى رفض الذل والاستضعاف.

ويحدد القرآن الكريم مصير الكافرين مسبقا في قوله تعالى :

{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ}[1]

نزلت الآية في اليهود[2] وفيها إنذار وتهديد ووعيد ، وجاء أسلوب الخطاب موجّه بأمر من الله إلى رسوله –صلّى الله عليه وسلّم–. والسّين(سَتُغْلَبُونَ) للاستقبال القريب، أن انتظروا هزيمتكم في الدنيا وعذابكم في الآخرة. واستخدم تركيب (تحشرون إلى جهنم) دلالة على التّنكيل بهم واستضعافهم إذ يوحي الحشر بالخنقة والمذلّة ، وجيء بحرف الجر (إلى) بدلا من (في) دلالة على أنهم سيصلون إلى مكان مكوثهم الأبدي جهنم فتفيد(إلى) انتهاء الغاية، ودلالة على جرّهم جرّا إلى جهنّم دفعة واحدة هم وكل من كفر مثلهم، فذكر سبحانه وتعالى الحجة الدالة على نصره للمؤمنين وتنكّيله بالكافرين لعلهم يأخذون العبرة من الذين سبقوهم.

ولم يقتصر بيان مصير الكافرين وصورة حشرهم في جهنّم يوم الحساب ، بل وضّحت الآيات مصير الكافرين في الدنيا، وقد تقطعت أوصالهم، فمنهم من قتل، ومنهم من أسر ومنهم من عاد مذلولا خائبا.

([1]) آل عمران:12.

([2]) لمّا غلب –رسول الله صلى الله عليه وسلم– قريشا يوم بدر ورجع إلى المدينة، جمع اليهود وقال لهم "يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش وأسلموا فقد عرفتم أني نبي مرسل"فقالوا يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا معرفة لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة أما والله لو قاتلناك لعرفت أنّا نحن الناس" فأنزل الله هذه الآية. ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير .ج3، ص176.

وتصوّر الآيات البُعد المادي والنّفسي الذي آل إليه الكافرون بعد خسارتهم في المعركة في قوله تعالى :

{ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [1]

1. **تدلّ الجملة الفعلية (ليقطع طرفا)، على التّفرق والتّشتت، فشبّه من قتل منهم وجرح وأُسر بالشّيء المتقطع الذي تقطعت أجزاؤه وانفصلت واختلت، ويوحي هذا التشبيه بالضّعف والانكسار ويكشف عن الخسارة الكبيرة في صفوف المشركين. وفسّر ابن عاشور معنى "طرف" على وجهين، الأول: إمّا أن تكون بمعنى الناحية ، فتكون استعارة لطائفة من المشركين، والثاني: بمعنى الجزء من الجسد، كاليدين والرّجلين والرّأس فيكون مستعارا هنا لأشراف المشركين، أي ليستأصل صناديد الذين كفروا.**[2]

2. **يُعبّر حرف الجر(مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) عن حال الكافرين بعد المعركة، فقد انقسموا إلى فرق خاسرة، وأسهم ذلك في بيان نتيجة المعركة: فمنهم من قتل وأسر وجرح، ومنهم من عاد خائبا مخزيّا، ومنهم من أسلم فغفر له، ومنهم من طاله العذاب.**

3. **يدلّ حرف العطف (أَوْ يَكْبِتَهُمْ) على مشاهد نتيجة المعركة وتعدد مصير الكافرين، (إما قطع طرف من الكفار بقتل وأسر، وإما بخزي وانقلاب بخيبة)**[3] **، وإمّا أن يمُنَّ الله عليهم بالإسلام، أو يعذبهم.**

4. **ودلالة الفعل (ينقلبوا) في قوله: (فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ) فالانقلاب هو تغيير مفاجئ لما كانوا يتوقعون، تسهم في ترسيخ مفهوم قلب القوى والموازين لصالح المسلمين ، فتُحوّلُ الكافرين من القوة إلى الضعف، ومن الاستمرارية إلى القطع، ومن الغرور والتفاخر إلى الخزي والخسران.**

([1]) آل عمران:127-129.

([2]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4،ص78-79.

([3]) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط. ج3، ص337.

5. **يكشف الحال(خائبين) عن الحالة النفسيّة التي انتهى إليها الكافرون، فعادوا منهزمين مخزيين، وخائبين، "والخيبة: الحرمان والخسران" [1]، فيدلّ على أنّهم لم ينالوا ما طلبوا، انقلبوا مذلولين ومكسورين .**

6. **جملة {ليس لك من الأمر شيء} معترضة بين المتعاطفات، والخطاب للنبي ، يُحمل على معنيين: الأول: المعنى الصريح بأن ينفي أن يكون للنّبي وقتاله للكفار تأثير لحصول النّصر يوم بدر، فالنّصر فضل من الله على المسلمين، ويكون معنى (الأمر) شأن النصر ، والمعنى الثاني: يحمل على الكناية أن صرْف عن النبي –صلّى الله عليه وسلّم– عن الاشتغال بشأن ما صنع الله بالذين كفروا من قطع أطرافهم وكبتهم، أو توبة عليهم أو تعذيب لهم ، فذلك يحققه الله متى أراد سبحانه ، ويكون معنى (الأمر) شأن المشركين.[2]**

ويقول أبو السّعود: وإنما خُصّ الاعتراضُ بموقعه؛ لأنّ ما قبله من القطع والكبْتِ من مظانّ أن يكونَ فيه لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولسائر مباشري القتالِ مدخَلٌ في الجمل.[3] وقدّم ما يدل على الانتقام من أجل الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، ثم أردف ما يدل على العفو عنهم، ثمّ عقابهم، ففي بعض هذه الأحوال إرضاء له من جانب الانتصار له ، وفي بعضها إرضاء له من جانب تطويعهم له.[4]

([1]) لسان العرب. خيب.

([2]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص80،81.

([3]) أبو السعود: إرشاد العقل السليم.ج2، ص82.

([4]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص81.

❖ المطلب الثالث: أسرى معركة بدر.

قال تعالى:

{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }[1]

تتجلى صورة الأسرى في معركة بدر في ثلاثة محاور:

1. **تعريض القرآن بالمسلمين الذين قبلوا الفداء في أسرى معركة بدر.**

بدأت الآية بنفي وقوع أسرى للأنبياء كافة، ولكن هذا الخبر الغرض منه النّهي، فاستخدم –سبحانه– الخبر في موضع الإنشاء تلطّفا دفعا للحرج والعتاب. " وليس المراد أنّه لا يصلح أن تقع في يد النبي أسرى؛ لأنّ أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب إذا استسلم المقاتلون، فتعين أنّ المراد نفي أثره، وإذا نفي أثر الأسر صدق بأحد الأمرين: وهما المنّ عليهم بإطلاقهم أو قتلهم، ولا يصلح المنّ هنا؛ لأنّه ينافي الغاية وهي حتى يثخن في الأرض، فتعينّ أنّ المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده."[2] و(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا) أي:" فأخذتموهم أسرى بدل أن تقتلوهم وقبلتم فيهم الفداء وأطلقتموهم! (وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) " [3] ، والمقابلة بين ما فعلوه، وما يريده الله سبحانه وتعالى، يكشف عمّا راود نفوسهم من طمع في مال الفداء، ودعوة إلى كسر شوكة الكافرين حتى يتمكّنوا في الأرض.

2. **مغفرة الله لهم، وجعل الفدية حلالا لهم.**

تفيد (لولا) في قوله تعالى : {لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} الامتناع عن تعذيبهم لوجود قضاء سابق من الله أن يغفر لأهل بدر، ويفيد ذلك بعظيم مكانتهم عند الله ، وعظيم رحمته بهم، "ولقد سبق قضاء الله بأن يغفر لأهل بدر ما

([1]) الأنفال: 67–71.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج10، ص74.

([3]) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3، ص 1552.

يفعلون فوقاهم سبق قضائه فيهم ما كان يستحقه أخذهم الفداء من العذاب العظيم! ثم زادهم الله فضلاً ومنّة فجعل غنائم الحرب حلالاً لهم- ومنها هذه الفدية التي عوتبوا فيها- وكانت محرّمة في الديانات قبلهم على أتباع الرسل- مذكراً إياهم بتقوى الله، وهو يذكر لهم رحمته ومغفرته، لتتوازن مشاعرهم تجاه ربهم، فلا تغرهم المغفرة والرحمة، ولا تنسيهم التقوى والتحرج والمخافة" [1] .

جاء لطف الله وتخفيفه عنهم ورحمته جزاء لصبرهم وثباتهم، فقال لهم تعالى:{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} مُعبّرا عن أخذهم للغنيمة بالفعل(كلوا)؛ "لأنّ الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشّيء، والأمر في كلوا مستعمل في المنّة ولا يحمل الإباحة هنا: لأنّ إباحة الغنائم مقررة من قبل يوم بدر" [2] ، فكان الانتفاع من الغنائم والإفادة منها ملموسا ومحسوسا ، فقد وصل إلى أعلى درجات الاستفادة ، فشبّه أخذ الغنائم ومال فداء الأسرى بالأكل الذي يؤكل فأمدهم بالقوة، وجعل حاله وصفته (حلالا طيبا)، "وفائدة ذكره طَيِّباً تأكيد الإباحة لما في العتاب من الشدة"[3].

3. مخاطبة الأسرى بما يلمس قلوبهم.

بدأت الآية بمخاطبة النّبي -صلّى الله عليه وسلّم- (يا أيها النبي) خطاب المحب، تقرّبا منه ولينا معه، فبدأ بالنّداء وأتبعه بالأمر{قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فهو"يلمس قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء، وتطلق فيها الأمل، وتشيع فيها النور، وتعلّقها بمستقبل خير من الماضي، وبحياة أكرم ممّا كانوا فيه، وبكسب أرجح مما فقدوا من مال وديار. وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله"[4]

يصوّر أسلوب الشّرط مشهدين نفسيين، يؤثر الأول في النفس والمشاعر بتوجيه علم الله بالقلوب وأسرارها {إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ}؛ ليثير الخير الكامن فيها ويبشّرها إن صدق إيمانها، إذ " إن الإسلام إنما يستبقي الأسرى لديه، ليلمس في قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح، وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة

([1]) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3، ص1553.

[2]() ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج10، ص79.

[3]() ينظر: الألوسي: روح المعاني.ج5، ص231.

([4]) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3، ص1553.

للهدى. لا ليستذلهم انتقاماً، ولا ليسخرهم استغلالاً، كما كانت تتجه فتوحات الرومان وكما تتجه فتوحات الأجناس والأقوام."[1]

ويحمل أسلوب الشّرط الثّاني {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ} معنى التّهديد والوعيد ، والتّحذير والتّرهيب من فعلتهم وتعظيم شأن مردّها عليهم ، فعلم الله يتعدى أسرار القلوب والعقول، والقول والفعل، " وفي الوقت الذي يفتح الله للأسارى نافذة الرّجاء المشرق الرحيم، يحذّرهم خيانة الرسول– صلّى الله عليه وسلّم– كما خانوا الله من قبل فلاقوا هذا المصير" [2] ، فتحذيرهم بالشّدة بما قد يريدون فعله من خيانة، بعد مخاطبة قلوبهم باللين؛ ليبقى أثر التحذير والتهديد ماثلا في عقولهم وقلوبهم.

عرض التجربتين أمامهم وتأثيرهما النفسي عليهم، فالخير والمغفرة لهم إن أضمروا الخير للمسلمين، والعقاب لهم إن أضمروا الشّر والخيانة للمسلمين، فيقابل بين حالتين أصابتا من القلب شيئا، فالبشرى والطمأنينة والخير أم العقاب والوعيد.

والمتمعن في الآيتين ينتبه إلى أنّ الخطاب في قوله تعالى: { إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ } موجه إلى الأسرى والدليل قوله: (يؤتكم) فلم يقل (يؤتهم)، أمّا في الآية التي تليها عند ذكر الخيانة كان الحديث عنهم بضمير الغائب قال تعالى{ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} فقال: (يريدوا) ولم يقل (تريدوا)؛ فالأسرى كانوا لا يريدون دفع الفدية وخسارة المال ، فوعدهم الله بأن يؤتيهم خيرا من هذا المال، وسيغفر لهم ماسبق، أمّا المسلمون عندما أشار بعضهم إلى قتل الأسرى وبعضهم الآخر إلى أخذ الفدية منهم واتفقوا على أخذ الفدية، فأصبح خوفهم من خيانة الأسرى بعد افتدائهم أن يعودوا لحرب أخرى بعد إطلاق سراحهم، فجاء الحديث موجها للكافرين مهددا إياهم، وللمسلمين مطمئنا لهم بأنّه إن خانوهم فإنّ الله سيمكنهم منهم مرة أخرى.

([1]) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3، ص1553.

([2]) المرجع نفسه. ج3، ص1553.

❖ المطلب الرابع: غنائم معركة بدر.

قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [1]

ابتدأت الآية بالفعل المضارع (يسألونك) موجّهة للرسول محمد –صلّى الله عليه وسلّم–، ويدلّ الفعل المضارع على الاستمرارية، فالسؤال عن الأنفال وكيفية توزيعها قائم ما دامت الحروب ، وهذا التركيب الاستفهامي غير مباشر،" وهو الذي يعبّر به المتكلم عن معنى الاستفهام بغير استعمال أدوات الاستفهام وبغير تنغيم"[2]، ويشير إلى اتّساع عدد السائلين في أمر الأنفال، وورود أمر الأنفال في نفوسهم حتى وإن لم يعلن جميعهم ذلك. وتعدى الفعل بالحرف(عن) لما له من دور كبير في توجيه معاني بعض الأفعال، فقد وجّه معنى الفعل إلى معنى الإعلام لحكم الأنفال لا الاستعطاء[3]. ولو كان السؤالُ استعطاءً لما كان جوابه (قل الأنفال لله وللرسول)؛ فإنّ اختصاصَ حكمِ ما شُرط لهم من الأنفال بالله والرّسول لا ينافي إعطاءَها إيّاهم بل يحقّقه؛ لأنّهم إنّما يسألونها بموجب شرطِ الرسول – صلّى الله عليه وسلّم– الصادرِ عنه بإذن الله تعالى لا بحكم سبَق أيديَهم إليها.[4] فحكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها ما تقتضيه حكمته ويتمثل الرسول أمر الله فيها.[5]

وقوله تعالى:{فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَينِكُم وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُوله إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِين} استكمالا لجملة {الأنفال لله وللرسول} فأمرهم بالتقوى، وإصلاح ذات البين؛ لأنّهم اختصموا واشتجروا في شأنها، فالأمر بالإصلاح دلّ على فساد ذات بينهم، وكلمة ذات بمعنى حقيقة الشيء ونفسه[6].

وتقدّم جواب الشّرط على جملة الشّرط (إن كنتم مؤمنين) وفي جملة الخبر هذه إلهاب لنفوسهم على الامتثال، وليس الإتيان بشرط (إن) تعريضا بضعف إيمانهم وإنما للتحريض على إظهار الخصال التي يتطلبها الإيمان، وهي التقوى ، وإصلاح ذات البين ، والرضا بما فعله الرسول – صلى الله عليه وسلم–، فالمقصود التحريض على أن يكون إيمانهم في أحسن صوره ومظاهره.[7]

([1]) الأنفال :1.

([2]) عمايرة، خليل: في التحليل اللغوي. د.ط، مكتبة المنار، الزرقاء، 1987م، ص152.

([3]) أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم. ج4، ص2.

([4]) المرجع نفسه. ج4، ص2.

([5]) الزمخشري: الكشاف.ج2، ص195.

([6]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص253.

([7]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص254.

أخذهم الله بالتربية الرّبانية قولا وعملا؛ نزع أمر الأنفال كله منهم وردّه إلى رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– حتّى أنزل حكمه في قسمة الغنائم بجملتها، فلم يعد الأمر حقا لهم يتنازعون عليه، إنما أصبح فضلا من الله عليهم يقسمه رسول الله بينهم، كما علمه ربه. وكان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال، هو الهتاف بتقوى الله . وأول الطّاعة هنا طاعته في حكمه الذي قضاه في الأنفال، فقد خرجت من أن تكون لأحد من المجاهدين على الإطلاق، وارتدّت ملكيّتها ابتداء لله والرسول، فانتهى حق التّصرف فيها إلى الله والرّسول. فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا، فيها لحكم الله ،طيّبة قلوبهم، راضية نفوسهم، وإلا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم، ويصفّوا قلوبهم بعضهم لبعض. [1]

أمر الغنائم من أهم أمور الحرب ، وإذ لم يكن للمسلمين تجربة سابقة لأمر الغنائم، أنزل الله – سبحانه وتعالى– حكمه فيها، حكما مبيّنا مفصّلا، وآمرا إياهم بالتّقوى وإصلاح النّفوس فلا تغريها الغنائم؛ لأنّ مرد ذلك كله لله سبحانه.

بعد التّأكيد على أنّ الأنفال لله ورسوله يصرفها بأمره سبحانه كيف يشاء، أتبع القسمة التي يجب اتّباعها في توزيع الأغنام، قال تعالى:
﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [2]
والعلم يفيد اليقين لا الظن ، والأمر فيه حكم واجب ويلزم العمل به، وهذه الخُمس موزعة على خمسة ، الرسول وذي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل، وهذه الخمسة مرتبة من الأقرب للأبعد.

وقدّم خبر أنّ على اسمها(أن لله خمسه) للتعظيم وللتأكيد بأنّه سبحانه مالك الملك توزّع الغنائم بأمره، ولجعل فاصل(خمسه) بين اسم الله والرسول وما بعده ، حتّى لا يتوهم القارئ بأن الغنيمة توزع على الله بالتساوي بينه وبين الفئات الأخرى ، وهو الغني عن ذلك كله.

([1]) ينظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج3، ص1473.
([2]) الأنفال: 41.

ويرى ابن عاشور أنّ " (الـ) في (القربى) عوض عن المضاف إليه، أي ذوي قربى الرسول – صلّى الله عليه وسلّم– ، وذلك إكرام من الله لرسوله؛ لأنّه حرّم عليهم أخذ الصدقات والزكاة ، فلا جرم أنّه أغناهم من مال الله"[1]

وتقدّمت جملة جواب الشّرط على فعل شرطها (إن كنتم آمنتم بالله)؛ لأنّ فعلهم ما أمروا يتعلق بإيمانهم بالله وآياته"، وجيء في الشّرط بحرف (إنْ) التي شأن شرطها أن يكون مشكوكا في وقوعه زيادة في حثّهم على الطّاعة وإلهابا لهم ليبعثهم على إظهار تحقق الشرط فيهم". [2]

يقول سيّد قطب: " إنّ للإيمان أمارات تدل عليه والله –سبحانه– يعلق الاعتراف لأهل بدر بأنهم آمنوا بالله، وبما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان... يعلق الاعتراف لأهل بدر هؤلاء بالإيمان، على قبولهم لما شرع الله لهم في أمر الغنائم في صدر الآية فيجعل هذا شرطا لاعتبارهم عنده قد آمنوا بالله وبما أنزله على عبده من القرآن ، كما يجعله مقتضى لإعلانهم الإيمان لا بد أن يتحقق ليتحقق مدلول هذا الإعلان." [3]

تكرّر لفظ اليوم في قوله(يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) دلالة على عظم ذلك اليوم فهو يوم فرق فيه بين الحق والباطل ، واجتمعت صناديد قريش مقابل جماعة المسلمين في أول معركة في الإسلام.

([1]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج10،ص9.

([2]) المرجع نفسه .ج10،ص13.

([3]) قطب، سيد: في ظلال القرآن.ج3، ص1530.

الفصل الثاني

صورة معركة أُحد

- **المبحث الأول: الاستعداد للمعركة.**
- **المبحث الثاني: وصف أحداث المعركة.**
- **المبحث الثالث: الانتكاس والمواساة.**

مدخل

معركة أُحد الواقعة في شوّال السّنة الثالثة للهجرة، المعركة التّالية لمعركة بدر الكبرى التي كانت نتاجا لها بعد أن أُصيب المشركون وهُزموا شرّ هزيمة، جمعوا جيوشهم وما بهم من حقد وضغينة للمسلمن، وتوجهوا بثلاثة آلاف رجل لقتال المسلمين. اختلفت غزوة أُحد في ظهور المنافقين الذين انسحبوا من جيش المسلمين، وشاع فيها مقتل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. كانت أُحد ابتلاء من الله، فقد جرت حكمة الله –عز وجل– أنَّ الرُّسل تبتلى ثم تكون العاقبة لهم، وتغيُّر مسار المعركة من مرحلة النصر إلى الانتكاس لم يسمه الله هزيمة بل سمّاه قرحا، قال تعالى: { إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ}[1]، فالقرح هو الألم والجراحات، وسمّاه مصيبة فقال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا} [2] ، ونستطيع القول أن معركة أُحد انتهت بتعادل الفريقين فيها، وكانت تحمل دروسا وعبرا للمسلمين يستطيعون بعدها تقييم النتائج بناء على أفعالهم، وقد وعد الله بنصرة رسوله –صلى الله عليه وسلم– الذي لم يهزم في معركة– قال تعالى: { إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ}[3]، وقوله تعالى: { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}[4] ، وكان من عادة العرب قديما إذا انتصروا على غيرهم المكوث في ساحة المعركة يوما أو يومين بهجة بالنصر، ولم يفعلوا ذلك يوم أُحد، ولم يقع أسرى من المسلمين في أيدي المشركين يومها، ومقتل 70 رجلا من 700، لا يعد هزيمة، إنما هو جرح أصابهم، فالدرس الذي يعلِّم المسلمين النّصر في الكثير لا يُعد هزيمة في القليل.

([1]) آل عمران: 140.

([2]) آل عمران: 165.

([3]) التوبة: 40.

([4]) الروم: 47.

صوّرت الآيات القرآنية معركة أُحد من حيث الاستعداد لها، ووصفت بعض أحداثها والمواقف المؤثّرة في جريانها، ووضحت أسباب تراجع المسلمين وعناية الله بالمؤمنين.

المبحث الأول: الاستعداد للمعركة.

❖ **المطلب الأول: استعداد المسلمين.**

❖ **المطلب الثاني: استعداد المنافقين.**

❖ **المطلب الثالث: استعداد الكافرين.**

❖ **المطلب الأول: استعداد المسلمين.**

كان الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– حريصا على استشارة أصحابه، فأَمْرُهُم شُورى بَينهم، وكانَ من بينهم جماعة مِن الأنصار ومعهم عبد الله بن أُبي بن سَلُول الذين أَشاروا إلى الإقامة في المدينة وعدم الخروج منها، وإن حصل قتال يكون من المدينة، فيما أَشار آخرون إلى الخروج من المدينة وملاقاة قريش وأصرّوا على ذلك حتّى دَخل النّبي ولبس لأمَّته وَقَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَلْبَسَ لَأْمَتَهُ فَيَضَعُهَا حَتَّى يقاتل» وخرجوا بعدها للقتال.[1]

وردت الآيات لتُذكِّر المؤمنين والرّسول – صلى الله عليه وسلّم– بيوم أُحد، وتُعيد إحياء المشهد والمعركة في نفوسهم بكل تفاصيلها التي عاشوها ، وتُشير إلى حضور الله سبحانه وتعالى وسمعه وعلمه لما دار بينهم من حوار و ما خالج أنفسهم وسرائرهم. قال تعالى:

{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [2]

اختلف المفسرون في اسم المعركة التي تتحدث عنها الآية ، وأجمع نفر من المفسرين أنّها معركة أحد[3].

تصوّر الآية استعداد الرسول –عليه الصلاة والسلام– ومن معه للخروج إلى المعركة، وتضمّنت مجموعة من العلاقات النّحوية الدّلالية التي وثّقت هذا المشهد، ومنها:

([1]) ينظر: الرازي: التفسير الكبير.ج8، ص345.

([2]) آل عمران:121.

([3]) قال الحسن: هو يوم بدر، وقال مقاتل: هو يوم الأحزاب، وقال سائر المفسرين: هو يوم أحد ؛ لأن ما بعده إلى قريب من آخر السورة في حرب أحد] ، وقال مجاهد والكلبي والواقدي: غدا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من منزل عائشة– رضي الله عنها– يمشي على رجليه إلى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح. البغوي، أبو محمد: تفسير البغوي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1، دار إحياء التراث العربي، البيروت، 1420هـ، ج1، ص499.

1. **ابتداء الآية بظرف الزّمان (إذ) للتّذكير بذلك اليوم وإعادة إحياءه في النّفوس، " ظرف الزمان متعلق بمحذوف أي اذكر إذ غدوت" [1] ، إذ كان هذا التّذكير استفتاحا للمعركة ودليلًا قويًا على ابتداء سَير المعركة بجدّيّة واجتهاد وتخطيط.**
2. **دلالة الفعل (غَدَوتَ): والغُدو الخروج أول النهار، و" الغدوة: المرة من الغدو، وهو سير أول النهار نقيض الرواح "[2]، فهو يشير إلى الاستعداد، فالعمل في أول النهار يصاحبه نشاط وعزم ، فكان خروجه –صلى الله عليه وسلم– على قدم وساق ، وتوزيعه المقاعد للمسلمين وأماكن المقاتلين بدقة و وعي عال.**
3. **تدلّ الجملة الابتدائية (مِنْ أَهْلِكَ) " على عقيدة الجهاد وتقديمه على الأهل والعشيرة ، فالْأَهْلُ: الزَّوْجُ. وَالْكَلَامُ بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ فِعْلُ غَدَوْتَ أَيْ مِنْ بَيْتِ أَهْلِكَ وَهُوَ بَيْتُ عَائِشَةَ– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–." [3] فخروج الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام– من بيت أهله وأحبابه تاركا إيّاهم في سبيل إعلاء كلمة الله والدّفاع عن المسلمين، يدلّ على أنّ كل الرّوابط الإنسانية تذوب أمامَ رابط العبد مع ربه.**
4. **توضّح الجملة الحاليّة (تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ): الخطّة الحربيّة التي وضعها الرّسول –عليه السّلام– يوم غُدُوّه حينما أنزل كل مقاتل منزله، وتُبوئ بمعنى تُلزم وتُمكّن[4]، فكان حال الغدوّ حال تكليف وتشريف، وترسم صورة النَّبي القيادي –صلّى الله عليه وسلّم– للمسلمين في توزيع المهام والتخطيط الاستراتيجي للدّفاع والقتال. وفي ذلك دلالة على**

([1]) درويش، محي الدين: إعراب القرآن الكريم وبيانه. ج2، ص45.

([2]) لسان العرب: مادة (غدو).

([3]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4،ص70–71.

([4]) لسان العرب: مادة(باء).

الشّمُولية في السَّيطرة على سَير بداية المعركة ، وقوة هذا الإنزال وتوزيع المسلمين في مقاعدهم.

5. **يُضمِر المفعول به الثاني (مَقَاعِدَ) أسباب هزيمة المسلمين في معركة أُحد، فالتّخطيط المحمكم والحنكة الذكية جعلت الّرسول صلّى الله عليه وسلّم يُشير إلى مقاعد لهم، والمقاعد هي الأماكن التي يجب القعود فيها وعدم الحراك منها، لأنّ في معنى القعود ما لا نجده في معنى الجلوس، فالقعود يكون من أعلى إلى أسفل فيحمِل بذلك دلالة التّثبت والتّمسك بالمكان، " وَالْقُعُودُ ضِدُّ الْوُقُوفِ وَالْقِيَامِ، واقتران المقاعد بالقتال قَرِينَةٌ عَلَى أَنَّهُ أَطْلَقَ عَلَى الْمَوَاضِعِ اللَّائِقَةِ بِالْقِتَالِ الَّتِي يَثْبُتُ فِيهَا الْجَيْشُ وَلَا يَنْتَقِلُ عَنْهَا لِأَنَّهَا لَائِقَةٌ بِحَرَكَاتِهِ"[1] ، ويذهب الرّازي إلى أنّ استخدام المقاعد في التّعبير عن الأمكنة جاء لوجهين " الْأَوَّلُ: وَهُوَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَهُمْ أَنْ يَثْبُتُوا فِي مَقَاعِدِهِمْ لَا يَنْتَقِلُوا عَنْهَا، وَالْقَاعِدُ فِي مَكَانٍ لَا يَنْتَقِلُ عَنْهُ فَسَمَّى تِلْكَ الْأَمْكِنَةَ بِالْمَقَاعِدِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِأَنْ يَثْبُتُوا فِيهَا وَلَا يَنْتَقِلُوا عَنْهَا أَلْبَتَّةَ وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُقَاتِلِينَ قَدْ يَقْعُدُونَ فِي الْأَمْكِنَةِ الْمُعَيَّنَةِ إِلَى أَنْ يُلَاقِيَهُمُ الْعَدُوُّ فَيَقُومُوا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الْمُحَارَبَةِ فَسُمِّيَتْ تِلْكَ الْأَمْكِنَةُ بِالْمَقَاعِدِ لِهَذَا الْوَجْهِ". [2]**

صوّرت هذه الآية بداية التّوجه للمعركة ، وتختزل كلمة المقاعد شريط الأحداث؛ لأنّها تفيد الثّبات في الأماكن ، ومخالفة هذا الأمر أدّى للهزيمة والفشل.

([1]) ابن عاشور، التحرير والتنوير.ج4، ص71.

([2]) الرازي: التفسير الكبير.ج8، ص346.

وخلال السّير إلى المعركة انسحب رأس المنافقين عبدالله بن أُبي بن سَلُول بثُلث الجيش، فأضعف ذلك بعض نفوس المسلمين فكادوا أن يضعفوا و يلحقوه بالرجوع عن القتال، لولا أن تولاهم الله ، قال تعالى:

{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[1]

تُشير الآية إلى طائفتين من المسلمين كادتا أن تزيغا قلوبهما فتلحقان بركب المنافقين الذين انسحبوا من القتال، والطّائفتان حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان.[2]

يُشير لفظ (همّت) إلى ما راودهم من فكر وخالج أنفسهم دون أن يفعلوه، و" الهمُّ دون العزم وَأَوَّلُ مَا يَمُرُّ الْأَمْرُ بِالْقَلْبِ يُسَمَّى خَاطِرًا، فَإِذَا تَرَدَّدَ صَارَ حديث نفس، فإذ تَرَجَّح فِعْلُهُ صَارَ هَمًّا، فَإِذَا قَوِيَ وَاشْتَدَّ صَارَ عَزْمًا، فَإِذَا قَوِيَ الْعَزْمُ وَاشْتَدَّ حَصَلَ الْفِعْلُ أَوِ الْقَوْلُ."[3] فكشف الله مكنونات أنفسهم وما جال في خاطرهم، ليعلمهم ويشعرهم أنّه معهم يعلم ما تُسرّ ضمائرهم وما تعلن، فبيّن الضّعف الذي راودهم، والذي كاد أن يؤدي إلى الفشل، والفشل في الحرب: "الجبن والخور".[4]

وتُظهر جملة الحال (الله وليهما) تقوية الله لهم وردّهم إلى الصّواب، وإبعاد وساوس الشّيطان عنهم في الرّجوع عن المعركة، فأشعَرهم بولايته ورعايته لهم. وتقدَّم لفظ الجلالة (الله) ليُبيّن

([1]) آل عمران:122.

([2]) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف، وقيل في تسعمائة وخمسين، والمشركون في ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخذل عبد الله بن أبيّ بثلث الناس وقال: يا قوم، علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبدالله:لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فهمّ الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن ابن عباس رضى الله عنه: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا. ينظر : الزمخشري: الكشاف.ج1،ص409.

([3]) الأندلسي، أبو حيّان: البحر المحيط في التفسير.ج3، ص325.

([4]) المرجع نفسه .ج3، ص325

أنَّه لولا تمكين الله لهم لارتدّوا عن المواجهة، وتقديم (على الله) على (فليتوكل المؤمنون) تبيّن وجوب التّوكل على الله وحده دون سواه، على سبيل القصر. " والفاء هي الفصيحة لأنها دخلت لمعنى الشرط والمعنى إذا حزب الأمر وصعب فتوكلوا".[1] فاستهدفت الآية القلوب، لتُبعد الشّكوك والظّنون، ولتُظهر عناية الله بالمؤمنين حقا، وترشدهم إلى التّمسّك بركن مهم في الحياة وهو التّوكل على الله –سبحانه وتعالى– في الأمور كلها بعد العزم.

تُضمر الآيات أبعادًا دلالية مادّيّة ونفسيّة أسهمت في رسم صورة المعركة وتوضيح زمانها ومكانها والحالة الشّعورية المصاحبة لها على النحو الآتي:

1. **يشير الفعل (غدوت) إلى البُعد الزّماني للمعركة ، أمّا البُعد المكاني فظَهر في قوله تعالى :(مِنْ أَهْلِكَ) وهو ابتداء الغاية المكانيّة، أمّا قوله تعالى: (تُبَوِّئُ مَقَاعِدَ) فيُشير إلى انتهاء الغاية المكانيّة ، فخرج الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– وأصحابه من بيته إلى أرض المعركة وأنزَلهم في أماكنهم.**
2. **صوّرت الآيات خوالج النفوس وخواطرها، ففي نهاية الآية الأولى قال تعالى: (والله سميع عليم) وذلك تنبيه إلى حضور الله سبحانه وتعالى، فهو يسمع سرّهم وعلانيّتهم، ويعلم ما تخفيه القلوب وما تظهره، وفي بداية الآية الثانية قال تعالى: (وإِذْ هَمَّتْ) والهمّ ما خطر على القلب، فتجسيد الصّورة الحسّية والشّعورية وتوثيقها يعمّق من ارتباط الله سبحانه بالأحداث وقدرته الظاهرة والخفيَّة في تسيير المعركة، ويجعل الشّعور بوجوده سبحانه أثبت وألزم لهم على الدّوام، ويعزّز الشّعور بلطف الله الخفي في قوله تعالى: (والله وليهما) فإن تولّاهم الله من يضرهم؟ ويزيد على ذلك أسمى المشاعر التي لا يخلو منها قلب المؤمن وهي أفعال تأتي بعد العمل**

([1]) درويش، محي الدين: إعراب القرآن الكريم وبيانه.ج2، ص45.

والعزم تطمئن قلب المؤمن وتبعد عنه وساوس الشيطان والظنون وتوجهه وتسدِّد خطاه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

وقبل المُضِّي في استكمال الأحداث ذكَّرَهم سبحانه وتعالى بيوم بدر حين توكّلوا عليه، فأيَّدهم بنصره ، قال تعالى: { ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[1] ، ليوازن لهم بين المعركتين ليأخذوا العبرة ، ويتأملوا أسباب النصر وأسباب الهزيمة، ويؤكِّد لهم أنَّ النَّصر من عنده سبحانه وتعالى.

([1]) آل عمران: 123.

❖ المطلب الثاني: استعداد المنافقين.

ظهرت طائفة المنافقين يوم أُحد، وأشار القرآن إليهم في غير آية، وكان على رأسهم عبدالله بن أُبيّ، فلم يقبل رأس المنافقين بقرار النَّبي محمد صلى الله عليه وسلّم بالخروج لملاقاة الكافرين، وكان يفضل البقاء في المدينة، وعندما استشار النبي أصحابه وأخذ برأي الأغلبية استشاط المنافق تكبرا وغرورا وقال: أطاع الولدان وعصاني، فانسحب من جيش المسلمين مع ثلاثمائة رجل ، وبقي مع الرسول سبعمائة مقاتل.[1]

تُشير الآية التّالية إلى موقف المنافقين في معركة أُحد وتقلُّبِهم، قال تعالى:

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}

(2)

تضمّنت الآية شبكة من العلاقات النّحوية الدّلالية التي كشفت عن صورة المنافقين وتقّلبهم في معركة أُحد، وبّينت رسائل الله لهم لتنبيههم وردّهم إلى الصّواب وتنبيه المؤمنين أيضا :

1. **أفادت لام التعليل في (وليعلم) معنى وجوب العلم بالأمر التالي على وجه التّنبيه والتّحذير والتّخويف، فإنّ ما سيعلمهم به يحدّد أمرًا في غاية الأهميّة ويفصِّل لهم صفات المنافقين الذين ذكرهم ويبيّن لهم مكانتهم عند الله ومدى إيمانهم.**

([1]) ينظر: الرازي: التفسير الكبير.ج8، ص346.

([2]) آل عمران: 167.

2. تدلّ صلة الموصول (الجملة الفعلية) في قوله تعالى: (الذين نافقوا) على ديمومة نفاقهم وتجدده، واستحكام النفاق في قلوبهم، ولهذا لم يرد لفظ المنافقين بدلًا من الجملة الفعلية؛ لأنّ نفاقهم أصبح مرئيّا للجميع بعد أن أظهروا ما يسرّون من خلال أفعالهم، ومخالفة ظاهر كلامهم لما في قلوبهم، إذ إنّ " الِاسْمُ يَدُلُّ عَلَى تَأْكِيدِ ذَلِكَ الْمَعْنَى، وَالْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى تَجَدُّدِهِ، وَقَوْلُهُ: وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِمْ مُسْتَقِرِّينَ عَلَى إِيمَانِهِمْ مُتَثَبِّتِينَ فِيهِ، وَأَمَّا نافَقُوا فَيَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِمْ إِنَّمَا شَرَعُوا فِي الْأَعْمَالِ اللَّائِقَةِ بِالنِّفَاقِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ".

(1)

3. يُشير الفعل المبني للمجهول(قِيلَ لَهُم) إلى عدم أهميّة ذكر القائل مقابل أهميّة ذكر القول والردّ عليه، والقائل هنا هو عبدالله بن عمر بن حرام الأنصاري[2].

4. فعلا الطّلب (الأمر) (تَعَالوا قَاتِلوا) أي تعالوا إلى ساحة المعركة وقاتلوا في سبيل الله، توالى الفعلان دون رابط العطف بينهما، وعلّل ذلك أبو السّعود: لكون المقصود بهما أمرا واحدا وهو القتال؛ وإنّما جيء بالأول تمهيدا للثاني وترغيبا في فعل المقاتلة؛ لما

([1]) الرازي: التفسير الكبير.ج9، ص422.

([2]) "وَالَّذِينَ نافَقُوا هُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أبيّ وَمن انخذل مَعَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُمُ الَّذِينَ قيل لَهُم: تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا. قَالَهُ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ حَرَامٍ الْأَنْصَارِيُّ، وَالِدُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لمّا رأى انخزالهم قَالَ لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَتْرُكُوا نَبِيَّكُمْ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا. وَالْمُرَادُ بِالدَّفْعِ حِرَاسَةُ الْجَيْشِ وَهُوَ الرِّبَاطُ أَيِ: ادْفَعُوا عَنَّا مَنْ يُرِيدُنَا مِنَ الْعَدُوِّ فَلَمَّا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ حَرَامٍ ذَلِكَ أَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ وَأَصْحَابُهُ بِقَوْلِهِمْ: لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لاتّبعناكم، أَيِ لم نَعْلَمْ أَنَّهُ قِتَالٌ، قِيلَ: أَرَادوا أنّ هَذَا لَيْسَ بِقِتَالٍ بَلْ إِلْقَاءٌ بِالْيَدِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَقِيلَ: أَرَادُوا أَنَّ قُرَيْشًا لَا يَنْوُونَ الْقِتَالَ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا لَوْ كَانَ قَوْلُهُمْ هَذَا حَاصِلا قبل انخزالهم، وَعَلَى هَذَيْنِ فَالْعِلْمُ بِمَعْنَى التَّحَقُّقِ الْمُسَمَّى بِالتَّصْدِيقِ عِنْدَ الْمَنَاطِقَةِ، وَقِيلَ: أَرَادُوا لَوْ نُحْسِنُ الْقِتَالَ لَاتَّبَعْنَاكُمْ، فَالْعِلْمُ بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ، وَقَوْلُهُمْ حِينَئِذٍ تَهَكُّمٌ وَتَعَذُّرٌ." ينظر : ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص163.

فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون.[1] ففعل الأمر الثاني يتضمن تعليلا سريعا لفعل الأمر الأول ؛ لأنّ طلب مجيئهم معهم يتوجب معه القتال لذلك لم يفصلهما فاصل.

5. **أفاد حرف العطف (أو) في قوله (أو ادفعوا) التّخيير بين المشاركة في القتال– وهذا أمر لا يبتغيه إلا المؤمن– أو المشاركة في تكثير أعداد المسلمين في أعين الكافرين دون القتال وهو أضعف الإيمان، قال الطبري :" واختلفوا في تأويل قوله: (أو ادفعوا)، فقال بعضهم: معناه: أو كثِّروا، فإنكم إذا كثرتم دفعتم القوم. وقال آخرون: معنى ذلك: أو رابِطوا إن لم تقاتلوا." [2] أو دافعوا عن المحارم والأموال؛ " ادفعوا عن أهلكم وبلدكم وحريمكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله تعالى". [3]**

6. **تُبيّن الجملة المستأنفة (قَالُوا لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ قِتَالًا لاتَّبَعْنَاكُم) الردّ على القول السّابق، ولو حرف امتناع لامتناع، فهم لم يتبعوهم للقتال لعدم علمهم به وهذا الادعاء منهم على سبيل المكايدة والمكابرة، وهذه أول صورة للنّفاق انجلت فيها الحقائق، فمن المعلوم أنّ التقاء الجيوش لا يكون إلا للقتال. وقد يُحمل المعنى على الاستهزاء والسخرية " أرادوا أنَّا لا نُحسن القتال ولا نقدر عليه؛ لأنَّ العلم بالفعل الاختياري من لوازم القدرة عليه فعبَّر بنفيه عن نفيها، ويُحتمل أنّهم جعلوا نفي علم القتال كناية عن أنّ ما هم فيه ليس قتالا بناء على نفي العلم بنفي المعلوم؛ لأنّ القتال يستدعي التكافؤ من الجانبين مع رجاء مدافعة أو مغالبة ومتى لم يتحقق ذلك كان إلقاء الأنفس إلى التهلكة" [4]**

وبيّن سبحانه وتعالى موقعهم بين الكافرين والمؤمنين، في قوله :{ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ } فتَصَدّر الضّمير (هم) الجملة تأكيدًا على صفة النِّفاق عندهم وتثبيتًا لها، " وَيَتَعَلَّقُ

([1]) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم.ج2، ص110.

([2]) الطبري، أبو جعفر: جامع البيان في تأويل القرآن. ج7، ص 380.

([3]) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. ج2، ص110.

([4]) الألوسي: روح المعاني. ج2، ص330.

كُلٌّ مِنَ الْمَجْرُورَيْنِ فِي قَوْلِهِ :مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ بِقَوْلِهِ: أَقْرَبُ؛ لِأَنَّ أَقْرَبُ تَفْضِيلٌ يَقْتَضِي فَاضِلًا وَمَفْضُولًا، فَلَا يَقَعُ لبس فِي تعلّق مَجْرُورَيْنِ بِهِ لِأَنَّ السَّامِعَ يَرُدُّ كُلَّ مَجْرُورٍ إِلَى بَعْضِ مَعْنَى التَّفْضِيلِ" [1] وَقِيلَ :هُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ: هُمْ لِأَهْلِ الْكُفْرِ أَقْرَبُ نُصْرَةً مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، لِأَنَّ تَقْلِيلَهُمْ سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ بِالِانْخِذَالِ تَقْوِيَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ [2]، والطباق بين الكفر والإيمان يبين حالة التذبذب والتناقض لدى المنافقين.

والجملة المستأنفة تُوضح سبب اقترابهم من الكفر؛ لأنّهم { يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} فذَكر الأفواه مع القلوب؛ لتصوير نفاقهم لخلاف ما خرج منهما . " وَأَنَّ إِيمَانَهُمْ مَوْجُودٌ فِي أَفْوَاهِهِمْ مَعْدُومٌ فِي قُلُوبِهِمْ، بِخِلَافِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مُوَاطَأَةِ عَقْدِ قُلُوبِهِمْ لِلَفْظِ أَلْسِنَتِهِمْ."[3] والأفواه والقلوب دلالة على العلانية والسر والطباق بينهما يدلّ على التناقض ويؤكد قوله:{ والله أعلم بما يكتمون} أنّ ما في قلوبهم مكتموم عليه يخشون إخراجه، فاكتملت الصورة الدّالة على ابتعادهم عن الحق، ويفيد اسم التفضيل (أعلم) بتفوّق قدرة الله على العلم على ما في أنفسهم ؛ ليوقع ذلك في أنفسهم الرّهبة والخشية والاتعاظ.

وذكرت لفظة الأفواه بدلا عن الألسنة، لتمكُّن النفاق منهم، فالفاه الجزء الأكبر الذي يتضمن اللسان والأسنان والأعضاء المساعدة على النطق، " لفظ (أفواه) يُنبىء عن مبالغة واستحكام وتمكن في اعتقاد أو قصد لا ينهض به لفظ (بألسنتهم)، فلأنّ النفاق استحكم في المنافقين جاء

([1]) ابن عاشور: التحرير والتنوير .ج4، ص163.

([2]) الأندلسي: البحر المحيط. ج3، ص424.

([3]) المرجع نفسه.ج3، ص426.

لفظ (بأفواههم) وذلك أن كل موضع علق الله حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب وتنبيه على أن الاعتقاد لا يطابقه" [1]

(1) عتيق، عمر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم. ص 45.

❖ المطلب الثالث: استعداد الكافرين.

استجمع الكافرون قُواهم وما يملكون لتفتيت قوّة المسلمين، وفي سياق ذكر استعدادهم للمعركة بيّن سبحانه وتعالى نيّتهم اتجاه الإسلام والمسلمين، وتَبَدُد أمانيهم من خلال انقلاب أفعالهم عليهم حسرات وخذلانهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى :

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [1] .

ويبيّن النسيج النحوي في الآية مجموعة من الدلالات:

1. **وردت الأفعال مضارعة للدلالة على استمراريتها، وارتبط حرف السين في الفعل (سينفقونها) للدلالة على المستقبل القريب، وحذفت السّين من الأفعال التالية على الرغم من دلالتها على المستقبل ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ إنفاقهم المال للصّدّ عن سبيل الله ستكون نتائجه السّيئة وحسرتهم وغلبتهم في وقت تال قريب لهذا الإنفاق ، و كله في الحياة الدنيا ، وعندما تحدّث عن الآخرة جاء بجملة جديدة مستأنفة ليفيد بها بعد الزّمنين ؛ فالإنفاق والحسرة والهزيمة في الدنيا، أمّا الحشر ففي جهنم في الآخرة. وتّأخير الفعل (يحشرون) يفيد الحصر أي أنّ لا مكان لهم سوى جهنم فهي مخصصة لهم، ولم ترتبط الأخيرة بحرف العطف (ثم)، وإنما ارتبطت بالذين كفروا لدلالتها العامّة على الكافرين وليس لمن أنفق ماله للصّدّ عن سبيل الله.**

([1]) الأنفال :36. قيل: نزلت في أبى سفيان وقد استأجر ليوم أُحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. والأوقية اثنان وأربعون مثقالا لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . الزمخشري: الكشاف.ج2، ص219.

2. لام التعليل في قوله تعالى: (لِيَصُدُّوا) أَشْعَرَتِ بِأَنَّ الْإِنْفَاقَ مُسْتَمِرٌّ؛ لِأَنَّهُ مَنُوطٌ بِعِلَّةٍ مُلَازِمَةٍ لِنُفُوسِهِمْ وَهِيَ بُغْضُ الْإِسْلَامِ وَصَدُّهُمُ النَّاسَ عَنْهُ.[1]

3. تفيد المقابلة بين ما يتمناه الكافرون وما سيحصل معهم في رسم صورة توازن بين الحاضر والمستقبل، فهم ينفقون الأموال ويجمعون الجيوش والمقاتلين للصّدّ عن سبيل الله، والله يذكر إنفاقهم ويؤكّد عليه ولكنّه إنفاق يتحسرون ويندمون عليه، فاستعدادهم وإنفاقهم للأموال لن يغير من النهاية التي يستحقونها.

تظهر صورة الكافرين الذين يبذلون الغالي والنفيس، وينفقون الأموال، ويعدّون العدّة والرجال ليصرفوا المسلمين عن دين الإسلام ويثبّطوهم؛ لتكون العزة لهم، إلا أنّ هذا الإنفاق يحيلهم إلى واقع آخر وهو الحسرة، والحسرة: أشد الندم[2] على ما فات ومضى ، وهذا الندم الشديد يلحقهم في الدنيا وخزي في الآخرة؛ لأنّ ما أنفقوه لن يجدي نفعا فسيغلبون، وفي الآخرة يكون موعدهم جهنم.

([1]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج9، ص340.

([2]) لسان العرب: مادة(حسر).

المبحث الثاني : وصف أحداث المعركة.

❖ **المطلب الأول: الانتصار الأولي.**

❖ **المطلب الثاني : تأثير الإشاعة على سير المعركة.**

❖ **المطلب الثالث: نزول الرماة عن الجبل.**

❖ المطلب الأول: الانتصار الأولي.

صوّرت الآية الكريمة أحداث المعركة تصويرا بليغا مؤثرا، فشملت في طيّاتها ملخّصا للمعركة من بدايتها حتى نهايتها، من انتصارهم على الأعداء وفشلهم بعد ذلك الانتصار؛ لطمعهم في الغنيمة، ثم عفو الله عنهم ورحمته بهم. وتضمّنت أساليب أسهمت في تعزيز وإيصال الصّورة المتكاملة بدقّة وبلاغة، قال تعالى:

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [1]

تكشف الجملة الخبرية الصّدق الإلهي الذي لا مجال للشّك فيه ، ونزلت الآية ردًا على من سأل:"من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النّصر؟ [2] **، فكان التّأكيد على نصر الله لهم وصِدق وعدِه لهم إجمالًا وتفصيلًا بأداة التّأكيد(لَقَد) لتدلّ على تحقق وقوع الأمر لارتباطها بالفعل الماضي، تأكيدًا لنصره لهم خلال المعركة إذ أمدهم بنصره وفضله، فكان قتالهم بإذنه ومشيئته –سبحانه وتعالى–.**

وبهذا التّفصيل عن كيفية نصر الله لهم ، وحالهم في المعركة يجابهون العدو ويقاتلونه دليل ثانٍ في الجملة على صدق وعد الله لهم، فتجسّدت الصّورة أمامهم. والفعل المضارع (تَحُسّون) جعل الموقف حاضرا في أذهانهم، يذكرون تفاصيله ويشعرون بلذّة النَّصر الأوَّلي التي عاشوها، وإذا علمنا أنّ الفعل (تّحُسّون) يحمل معنى تقتلونهم قتلًا شديدًا وتستأصلونهم [3] **، تراود الذِّهن إلى جانب هذا المعنى مشاعر وأحاسيس لارتباط الحسّ بالإحساس، فدلالة الفعل لا ترتبط فقط بالقيام بفعل القتل، إنما تتعدى إلى الحالة الشعورية إذ يختزل الفعل (تحسونهم) بُعدًا نفسيًّا**

([1]) آل عمران: 152.

([2]) سبب النزول: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ أُصِيبُوا بِمَا أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ :مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا وَقَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ النَّصْرَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ) الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ :(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا) يَعْنِي الرُّمَاةَ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا يَوْمَ أُحُدٍ. **ينظر** : الواحدي: أسباب النزول. تحقيق: عصام الحميدان، ط2، دار الإصلاح، الدمام، 1992م، ص125.

([3]) لسان العرب. مادة (حس)

؛لأنَّ حَسَّ مثل أَوَّهْ . وحَسٍّ بكسر السين والتشديد كلمة يقولها الإنسان إذا أَصابه ما مَضَّه وأَحرقه غفلةً كالجَمْرة والضَّرْبة ونحوه . والحُساسُ الشُّؤْمُ والنَّكَدُ. والمَحْسوس المشؤوم.[1] وتدل هذه الدلالات النفسية أن هزيمة الكفار كانت قتلا وإذلالا .

يُفِيدُ حرف (حَتَّى) انْتِهَاء وَغَايَة، فمَضْمُونَ الْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا غَايَةٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، فَالْمَعْنَى: إِذْ تَقْتُلُونَهُمْ بِتَيْسِيرِ اللَّهِ، وَاسْتَمَرَّ قَتْلُكُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى حُصُولِ الْفَشَلِ لَكُمْ والتنازع بَيْنكُم.[2] وترى الباحثة أن حرف (حتّى) تشكل فاصلا زمنيّا وتحوّلا دلاليّا في صورة المعركة، فالتّركيب النّحوي الذي سبق (حتّى) يجسّد مشهد النّصر ، والتركيب النحوي بعد (حتّى) يجسّد مشهد التراجع والانتكاس. فهو رابط بين النّصر الأَولي وانتهائه بالفشل، وتواليهما بالتّرتيب الزّمني، فلماذا لم يقل : (حتى فشلتم) دون ذكر ظرف الزمان (إذا)؟ إنّ ارتباطه بظرف الزمان (إذا) يُشير إلى حالة زمانية مغايرة فرّقت بين موقف النّصر والتراجع مما يُحمّل المعنى مضمونا آخر؛ ليكشف عن فعل قاموا به قلب المعادلة في ذلك الزمن تحديدا ، واختلاف الزمن ما بين الزمن المضارع لاستحضار مشهد القوة والغلبة ووصف حالة النصر، وربطها بمشيئة الله، و الزمن الماضي الذي صوّر حالة التراجع للإشارة إلى انتهائها وندمهم على هذه الأفعال، تمهيدا إلى ما بعد ذلك من عفو الله لهم، ويدلّ –أيضا– على أهمية الزمن؛ فلو انتظروا قليلا حتى مضى الجيش بعيدا لاستمر النصر، ولكن تسرعهم أودى بهم.

ويظهر أسلوب التّوبيخ في توضيح أفعالهم التّي حالت دونَ نَصرهم ، وهو عتاب وتوبيخ مبطّن غير مباشر يستحي منه المؤمن الحقّ ويتنبه إلى سوء فعله ليجتنبه، فتوالت أفعالهم في قوله تعالى:(حتَّى إِذَا فَشِلْتُم وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم). وَقد رتّبت الْأَفْعَال الثَّلَاثَةُ فِي الْآيَةِ عَلَى حَسْبِ تَرْتِيبِهَا فِي الْحُصُولِ، إِذْ كَانَ الْفَشَلُ، وَهُوَ ضَجَرُ بَعْضِ الرُّمَاةِ مِنْ مُلَازَمَةِ مَوْقِفِهِمْ لِلطَّمَعِ فِي الْغَنِيمَةِ، قَدْ حَصَلَ أَوَّلًا فَنَشَأَ عَنْهُ التَّنَازُعُ بَيْنَهُمْ فِي مُلَازَمَةِ الْمَوْقِفِ وَفِي اللَّحَاقِ بِالْجَيْشِ لِلْغَنِيمَةِ، وَنَشَأَ عَنِ التَّنَازُعِ تَصْمِيمُ مُعْظَمِهِمْ عَلَى مُفَارَقَةِ الْمَوْقِفِ الَّذِي أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ– عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– بِمُلَازَمَتِهِ وَعَدَمِ الِانْصِرَافِ مِنْهُ.[3]

([1]) لسان العرب. مادة حسس.

([2]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج4، ص127.

([3]) المرجع نفسه. ج4، ص128.

وجاءت صيغة الزّمن مضارعا (يريد) في قوله تعالى: { مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنيَا وَمِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الآخِرَة} لاستمرارية هذه الحقيقة وعموميتها في الأوقات جميعها، وعدم اختصاصها بأحداث معركة أُحد. وفيها كشف عمّا تخفيه القلوب وتطمع فيه الأنفس، " وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ، ويعرّفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها" [1] ، وتكشف الآية عن بعدين نفسيين للمشاركين في المعركة: فمنهم من يطلب الدنيا ، ومنهم من يطلب الآخرة . ويُحيل الضّمير (منكم) في الموضعين إلى الأفعال الثلاثة السابقة (فشلتم ، تنازعتم ، عصيتم) ؛ لأن الضمير وما يتصل به " تَفْصِيل لتنازعتم، وَتَبْيِينٌ لِـ (عَصَيْتُمْ) ، وَتَخْصِيصٌ لَهُ بِأَنَّ الْعَاصِينَ بَعْضُ الْمُخَاطَبِينَ الْمُتَنَازِعِينَ، إِذِ الَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ لَيْسُوا بِعَاصِينَ، وَلِذَلِكَ أُخِّرَتْ هَاتِهِ الْجُمْلَةُ إِلَى بَعْدِ الْفِعْلَيْنِ، وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُعَقِّبَ بِهَا قَوْلَهُ: وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِلْجُمْلَةِ مَا أَغْنَى عَنْ ذِكْرِ ثَلَاثِ جُمَلٍ وَهَذَا مِنْ أَبْدَعِ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ."[2]

وفي قوله تعالى:{ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيكُم ولقد عفا عنكم} ، والصرف يعني رد الشيء عن وجهه[3]، فانقلاب حالهم من نصر إلى هزيمة كان ابتلاء لهم ، و يلاحظ ارتباط حرف التّحقيق في الأفعال ذات الشأن الإلهي (لقد صدقكم ، لقد عفا عنكم) فيشير ذلك إلى صدق وعد الله وتحقق عفوه تلطفا وجبرا لخواطرهم.

([1]) قطب، سيد: في ظلال القرآن.ج4،ص494.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج4، ص128.

([3]) لسان العرب.مادة (صرف).

❖ المطلب الثاني : تأثير الإشاعة على سير المعركة.

الإشاعة سلاح فتّاك في الحروب ، يزعزع الصّفوف ويثير بينها الشّكوك، فهي تعمل على تحطيم معنويات الخصوم، وتؤثّر على توازنهم النفسي واستقرارهم الداخلي، والحرب النفسية تقوم على الإشاعات، فهي لا تضرب سهامها نحو الجسد، بل تقصد بسهامها النّفس واستقرارها وطمأنينتها، وتؤثر في العقول والعواطف، ولا سيّما أنها تنتشر انتشارا سريعا كالنّار في الهشيم.

ويعدّ التأثير النّفسي في الحروب عاملًا مهمًا لإحداث التصدّعات في الصفوف المتماسكة، وتزعزعها واضطرابها، وخاصة عندما تمسّ الإشاعة قائد الجيش ومسيّر خطّة المعركة ونبيّ الأمّة الذي بايعوه وآمنوا به وبرسالته ، وأحبوه أكثر من أنفسهم، فكانت إشاعة وفاته –صلّى الله عليه وسلّم– سهما أوقع في النّفس انهزاما معنويًّا وروحيًّا.

شاع بين النّاس أنّ رسول الله –محمد صلّى الله عليه وسلّم– قد قتل، فوهنوا وضعفوا واضطربت صفوفهم، فجاءت الآيات معاتبة لهم وموضحة لهم حقيقة إيمانية تثبت أنّ الموت أجل محتوم للنّاس جميعا، قال تعالى:

{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[1]

([1]) آل عمران: 144–148. لمّا كان يوم أحد انهزم الناس، فقال بعض الناس: قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم، فإنما هم إخوانكم، وقاد بعضهم: إن كان محمد أصيب ألا ما تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به، فأنزل الله تعالى في ذلك: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} إلى {وكأين من نبي قاتل معه ربيون= =كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا} لقتل نبيهم إلى قوله: {فآتاهم الله ثواب الدنيا}. الواحدي: أسباب النزول. ج1، ص125.

ابتدأت الآيات بتذكير المسلمين أنّ محمدا عليه الصّلاة والسّلام رسول كالرّسل الذين توفّاهم الله من قبله ، فإن مات فإن رسالته لا تموت. وكانت هذه الآيات تهيئة نفسية للمسلمين في حال موت الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في المستقبل، فجاء لهم بأمثال أمم من قبلهم ثبتوا وصبروا على الرّغم من الصّعاب، وفي الآيات تراكيب نحوية عالجت الفكر الإنساني وقت الخوف، ووضحت الصورة الذهنية والنفسية جراء تأثير الإشاعة على المسلمين وعالجت هذه الأفكار والوساوس:

1-النّفي والاستثناء في قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) يزيل كل شك وإنكار يجابه هذه الحقيقة، ويُؤكّد على دور الرّسل جميعًا في الدّعوة إلى الله. ومحمد -عليه الصّلاة والسّلام- كغيره من الرّسل الذين توفاهم الله من قبل، فاستخدام الأدوات (ما، إلا) من أقوى أدوات القصر لما فيها من وضوح معنى القصر والتوكيد، لإزالة هذا الشكّ والإنكار[1]، وذلك تمهيدًا لهم لتقبّل فكرة موته في المستقبل، والقصر في قوله تعالى :{ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُؤَجَّلًا} يوضّح حقيقة الموت المقدّرة من عند الله سبحانه وتعالى. وما شاع في معركة أُحد من مقتل الرسول -عليه الصلاة والسلام- بعد أن فقدوا اتصالهم معه، أحبَط جماعة من المسلمين فانتحى بعضهم جانبا وجلس دون قتال، في حين آثر آخرون الموت على الحياة.[2] فكانت هذه الآية دعوة لمن انتكس منهم ليُبيّن لهم حقيقة الإيمان واستمرارية الرّسالة حتّى لو مات الرّسول، وتَحمل معنى العتاب لموقفهم هذا الذي كان سببا من أسباب الهزيمة في المعركة.

2-الاستفهام في أسلوب الشّرط (أَفَإِن مَاتَ) استفهام إنكاري يفيد التحذير، والفاء أصلها التّقديم تأخّرت للاعتناء بالاستفهام[3]، وعطفت الجملة الأولى { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل} على الجملة الثانية { أَفَإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ} لتوضيح سبب الإنكار؛ " لأنّهم لمّا انقلبوا على أعقابهم فكأنّهم اعتقدوا أنّه رسول لا كسائر الرسل في أنّه يموت كما ماتوا ، وأنّه يجب عليهم التّمسك بدينه بعده، كما يجب التمسك بأديانهم بعدهم."[4] وجملة الشّرط تتضمن فعلين(مات أو

([1]) ينظر: بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن. ط1، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2005م، ص122.

([2]) ينظر: عابد، محمد: حديث القرآن عن غزوات الرسول. ص156-157.

([3]) ينظر: الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط. ج3، ص363.

([4]) درويش، محي الدين: إعراب القرآن الكريم وبيانه. ج2، ص64.

قتل) فجعل الموت مقدما على القتل؛ لأنّه أعمّ، والقتل سبب للموت، ونذكر أنّ الرّسول توفاه الله وهو في فراشه وبيته لا في قتال، فقدّم الأول لحقيقة وقوعه مستقبلا، وجاء بالثاني بعده؛ لأنّه موضع الشّك ليدحضه، ويستنبط من ذلك عصمة الرسل من القتل، أمّا الأنبياء فقد يقتلون.

3-يجسّد جواب الشرط قوله تعالى: (انْقَلَبتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم) المَظهر الحسّي والنَّفسِي للمسلمين حين سَمعوا بِمَقْتَلِ الرَّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، وتُصَوِّر العبارة ارتدادهم وانسحابهم من ساحة المعركة وانهزامهم نفسيًّا وفعليًّا، فوقع خبر قتل الرّسول -عليه السلام- قلب حالهم من قوة إلى ضعف ، ومن نصر إلى هزيمة ، فشبههم بمن كان واقفا ثابتا على قدميه ثم انقلب على رأسه، فلم يعد في ثبات ولا توازن. وفيها كناية عن الرّجوع إلى ما كانوا عليه من كفر، والأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخر القدم [1] ، فصوّر من انتكس منهم وتقاعس وراودته الشّكوك بخبر موت الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- بمن عاد إلى جاهليته الأولى وتراجع من أعلى المراتب وشرف الإيمان بالله، إلى أدنى المراتب وآخرها. وتركيب(كأيّن) يفيد معنى الكثير، وهي مركّبة من كاف التشبيه وأيّ الاستفهامية المنوّنة وهي خبرية بمعنى كم، ويرى العكبري أنّ الْأَصْلُ فِيهِ «أَيْ» الَّتِي هِيَ بَعْضُ مِنْ كُلٍّ أُدْخِلَتْ عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ، وَصَارَ فِي مَعْنَى كَمِ الَّتِي لِلتَّكْثِيرِ ; كَمَا جُعِلَتِ الْكَافُ مَعَ ذَا فِي قَوْلِهِمْ «كَذَا» .وَأَمَّا مَوْضِعُ كَأَيِّنْ فَرَفْعٌ بِالِابْتِدَاءِ، وَلَا تَكَادُ تُسْتَعْمَلُ إِلَّا وَبَعْدَهَا مِنْ.[2] فهذا موطن تفخيم وموطن تأسية للرَّسول والجماعة المؤمنة، لما حصل لهم في معركة أُحد، فإنَّ مثل هذا حصَل لمن قبلهم من المؤمنين[3]، فيأمرهم الله -سبحانه وتعالى- بالصّبر أُسوة بالرُّسل وأتباعهم المؤمنين، كما أطلق عليهم سبحانه وتعالى (ربّيّون) أي المنسوبون إلى الربّ وهم الجَماعة الكثير والعلماء الأتقياء[4].

4- جاء النَّعت والمنعوت جمعًا ومفردًا ، فكلمة (ربّيّون) جمع للدلالة على كثرتهم، وأتى بالصفة (كثير) مفرد مع أنّ الموصوف جمع؛ لأنّ لفظ كثير وقليل يعامل موصوفهما معاملة لفظ شيء أو عدد [5]، وفي هذا الوصف دلالة على كثرتهم منهم من تعلمونه، ومنهم من لا تعلمونه،

([1]) لسان العرب. مادة (عقب)

([2]) ينظر: العكبري، أبو البقاء: التبيان في إعراب القرآن. تحقيق: علي البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، دمشق، د.ت، ص297.

([3]) ينظر:السامرائي، فاضل: معاني النحو.ج2،ص343.

([4]) لسان العرب. مادة (رب)

([5]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4،ص118.

فلا تُحصون عددهم، فلستم أوَّل من يواجه ويقاتل في سبيل الله، فهذه سنن من قبلكم من المؤمنين، وفي هذه الآية ضرب أمثال لأمم سبقت وثبتت على الحق وفيها معنيان: الأول: الدّعوة إلى الثّبات والتّحلي بالصبر، والثاني: تَوجيه العِتاب والمَّلامة لما فعلوه.

5-يدلّ أسلوب النّفي في قوله تعالى: { فَمَا وَهَنُوا وَمَا ضَعُفُوا وَمَا استَكَانُوا} على صفة الصّبر والثّبات على ما أصابهم، وفي النَّظر في معاني (الوهن، والضّعف، والاستكانة) كما جاء في لسان العرب[1]: الوهن: الضّعف في العمل والعظم والبدن، أي فما فتروا وما جبنوا عن قتال عدوهم، والضعف: بالفتح يكون في الرأي والعقل، والاستكانة: الخضوع والذل، فجمع القوة البدنية وسداد الرأي وعدم الخضوع إلا لله، وذكر -سبحانه وتعالى- هذه الصّفات مرتّبة تدريجيّا؛ لأنّ وقوع الوهن يورث ضعف الرأي والخضوع والذل.

6-يتضمّن أسلوب القصْر في قوله تعالى: { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} ثلاث مراحل للدعاء، تبدأ بطلب المغفرة فهي بوّابة النّصر والفوز في الدّنيا والآخرة ومفتاحه، وثانيها الدعاء بالتّثبيت والتّصبير خلال المعركة، أما ثالثها فالدّعاء بالنّصر بعد المغفرة والتّثبيت، فتلحظ التّدرّج في التّضرّع والتّوسّل إلى الله -سبحانه وتعالى-، فهذه صورة متكاملة توضح لما كان عليه الأولون من ثبات على دين أنبيائهم ، وما يجب أن يكون عليه المسلمون. وحذفت أداة النداء في (ربنا) لإحساس القرب من الله -سبحانه وتعالى-، وإقصاء كل ما يحول بين العبد وربه.

"وَالْمُرَادُ بِالْإِسْرَافِ فِي الْأَمْرِ التَّقْصِيرُ فِي شَأْنِهِمْ وَنِظَامِهِمْ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى أُهْبَةِ الْقِتَالِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، أَوِ الْحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ، وَهَذَا الظَّاهِرُ مِنْ كَلِمَةِ أَمْرٍ، بِأَنْ يَكُونُوا شَكُّوا أَنْ يَكُونَ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ فِي الْحَرْبِ مَعَ عَدُوِّهِمْ نَاشِئًا عَنْ سَبَبَيْنِ: بَاطِنٍ وَظَاهِرٍ، فَالْبَاطِنُ هُوَ غَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الذُّنُوبِ، وَالظَّاهِرُ هُوَ تَقْصِيرُهُمْ فِي الِاسْتِعْدَادِ وَالْحَذَرِ." [2]

([1]) لسان العرب. مادة (وهن)، (ضعف)، (سكن).

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج4، ص120.

7-يُمثِّل قوله تعالى: (فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ) استجابة رب العالمين للدُّعاء في الآية السَّابقة ، أي أثابَهم الله جزاء ما فعلوه، وجملة (آتاهم) تُفيد الزَّمن الماضي فكان جزاؤُهم في الدُّنيا نصرٌ وغنيمة ، وفي الآخرة رضوان الله وجنته، واقترن ثواب الآخرة ب(حسن) ؛ لأنّه أعظم من ثواب الدنيا وأبقى.

❖ المطلب الثالث: نزول الرماة عن الجبل.

استطاع المسلمون هزيمة قريش يوم أُحد، حتى انسحب جيش قريش بقيادته من الموقع، وبذلك ظنّ المسلمون أنَّ المعركة قد انتهت، فأسرعوا في النّزول عن جبل عينين -الذي ألزمهم الرسول

-عليه السّلام- بعدم تركه مهما حصل-؛ طمعًا في الغنيمة، وذكّرهم عبدالله بن جبير بقول رسول الله، إلا أنّهم طمعوا بالغنيمة ،فنزلوا عن الجبل مخالفين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فتنبّه جيش قريش لذلك فعادوا إلى الموقع ليباغتوا المسلمين من الجبل.

وصف القرآن الكريم حالهم مضطربين يباغتهم العدو ، قال تعالى :

{إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [1]

يفيد ظرف الزمان المرتبط بفعل الزّمن المضارع استحضار أحداث المعركة مترابطة مع الآية السابقة؛ لتكوين مشهد متكامل يثير في عقولهم الأحداث بترتيبها الزمني ويوسّع مداركهم بالنّظر إلى الأحداث من عين بعيدة يترقّبون من خلالها أفعالهم ويقيّمونها، فالآية " ترسم صورة حركتهم الحسّيّة وحركتهم النفسيّة في ألفاظ قلائل.. فهم مصعدون في الجبل هربا، في اضطراب ورعب، ودهش لا يلتفت أحد منهم إلى أحد، ولا يجيب أحد منهم داعي أحد، والرسول -صلى الله عليه وسلم- يدعوهم؛ ليطمئنهم على حياته بعدما صاح صائح: إنّ محمدا قد قتل، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم.. إنّه مشهد كامل في ألفاظ قلائل."[2]

تُسهم التراكيب في الآية في تشكيل الصّورة المتكاملة المرتبطة بالمؤمنين والرّسول صلّى الله عليه وسلّم وعناية الله سبحانه وتعالى على النحو الآتي:

1. **تستحضر الأفعال المضارعة في قوله تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} الأحداث ويعيد تشخيصها أمام الأبصار ، فيبدو المشهد متكامل العناصر من حركة وأحاسيس وصوت مقترنة مع بعضها على النحو الآتي:**

***أولاً: يَدلُّ الفعل (تصعدون) على المشقّة في الحركة، والإصعاد :الذهاب في الأرض[3] ، أي تذهبون في الأرض فارّين ممّا رأيتم ، فيشير الفعل إلى سرعة حركتهم مع المشقة في هذه الحركة**

([1]) آل عمران: 153.

([2]) قطب، سيد: في ظلال القرآن .م1،ج4، ص495.

([3]) لسان العرب. مادة صعد .

فاستخدام الفعل (تُصعدون) دون غيره للدلالة على الفرار يصطحب معه مشقة وصعوبة ،وما يصاحبها من انقطاع للنفس وتسارع لنبضات القلب.

***ثانيا: يَدلُّ الفعل المضارع (يَلوون) على الاضطراب والخوف في قوله تعالى : (ولا تلوون على أحد) من شدّة الاضطراب لا يلتفتون إلى أحد، واقترن الفعل بحرف الجر (على) لارتفاع مكان من خلفهم عن مستوى نظرهم، فصعود المشركين الجبل جعلهم بمكان أعلى من مكانهم، ففروا هاربين لم يلتفتوا إلى من على الجبل.**

***ثالثا: تُجسِّد جملة الحال في قوله تعالى: (والرَّسولُ يَدْعُوكُم إلى أُخرَاكُم) الصّورة الصّوتية المقابلة للصّورة الحركية في سياق الهزيمة، إذ يُسمع صوت النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– وهو يدعوهم ليثبّتهم ويرغبهم، وليبثّ الطّمأنينة في النّفوس بعد الخوف والمشقّة والاضطراب الذي لحق بصفوف الجيش، فدعوته عليه –الصلاة والسلام– دعوة تثبيت وتشجيع وتصبير، وفي ذكر الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– وحده عند دعوتهم عتاب لهم، فالرّسول الذي آمنتم برسالته يدعوكم في أرض المعركة وأنتم تفرون! فيمثل –عليه الصلاة والسلام– الثبات في أرض المعركة وهم يمثلون الهروب منها. وينتهي استحضار المشهد هنا؛ لينتقل إلى الزمن الماضي ليعقب على الحدث.**

2. يكشف أسلوب العدول في قوله تعالى : (فأثابكم غما بغم) عن عقيدة الجهاد في معركة أحد ، فالثواب يكون للخير فكيف يذكر الثواب مع الغم؟ لأن في جوف الكرب يضمر الخير، وفي قلب الضيق يختبر الصبر، ويضيف ابن عاشور: " لأنّهم لمّا خرجوا للحرب خرجوا طالبين الثواب، فسلكوا مسالك باءوا معها بعقاب"[1].

وسمي الغمّ غمّا لاشتماله على القلب[2]، وفي ذلك دلالة على إصابة قلوبهم وانتكاسها، إلا أنّ رحمة الله لا تنفك عن المؤمن ، فما كان ذلك الغم إلا لمنفعة لقوله بعدها (لكي لا تحزنوا)، وحرف الجر الباء في قوله :(غما بغم) يحتمل معنى المصاحبة أي غما مع غم، ويحتمل معنى (على) أي غما على غم وتعدّدت التفاسير حول الغم الأول والثاني، كما ذكر الرازي في تفسيره[3].

([1]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص132.

([2]) لسان العرب.مادة غم .

([3]) ينظر: الرازي: التفسير الكبير.ج9، ص391

3. يربطُ أسلوب التّعليل في قوله تعالى :{ لِكَي لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلَا مَا أَصَابَكُم} عدم الحزن على ما فاتهم وما أصابهم بالآية السابقة، فالجمع بين ما فاتكم وما أصابكم طباق يؤذن بطباق آخر مقدر؛ لأنّ ما فات هو النافع وما أصاب هو من الضار[1] ، فالجملة السّببيّة وضَّحت سبب وقوع الغم عليهم وكلُّه مقدر من عند الله، وذلك لتربية النّفوس وتهذيبها ولإشغالها بالآخرة لا بالدّنيا، فكان ما فاتهم من الغنيمة وما أصابهم من قتل وجرح في أرض المعركة أَهون مصيبة من الغمِّ الذي لحق بهم، (وأرجح أن يكون الغم هو إشاعة مقتل الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام–) فيستصغروا الأمر الذي أصابهم أمام ما أصاب الرسول، فلمّا علموا أن مقتل الرسول إشاعة وكذبة كان ذلك ثوابا لهم ومصدرا لانجلاء حزنهم، فبذلك يكون الغم ثوابا.

فصوّرت هذه الآية انتكاستهم يوم أُحد واضطرابهم، ومن ثم عناية الله بهم ، ففي كل محنة وكرب مغفرة وجزاء.

المبحث الثالث :النكسة والمواساة

([1]) ينظر:ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص133.

❖ **المطلب الأول: التخفيف عن المسلمين بإنزال النعاس عليهم.**

❖ **المطلب الثاني : عفو الله عن الطائفة التي فرت يوم أحد.**

❖ **المطلب الثالث: بيان منزلة الشهداء.**

❖ **المطلب الرابع: مواساتهم بذكر الأمم السابقة**

❖ **المطلب الأول: التخفيف عن المسلمين بإنزال النعاس عليهم.**

كان المسلمون في أصعب موقف في المعركة، حينما انقلب حالهم من نصر إلى هزيمة، فكادت النفوس تفتر وتضعف، ومنهم من انقلب حاله يضرب كفيه على ماحل به، نادما على حضوره في المعركة، وهنا كانت الرحمة الإلهية تتجلى في أسمى معانيها، فبعد التعب الجسدي والنفسي يحتاج الإنسان إلى فاصل يستطيع بعده مواصلة الحقيقة والواقع، فأنزل الله- سبحانه وتعالى- النعاس على المؤمنين؛ ليزدادوا إيمانا ويقينا في أوج الغمّ، وينتقلوا من حالة الشعور بالفشل إلى الصّحوة التي تكشف الملابسات، وتنظر إلى الأمور بالبصر والبصيرة، لتصحح المسار وتعود إلى ثباتها من جديد.

قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ} [1]

صوّرت الآية مشهد الهدوء والأمن بعد الفزع والخوف، استهلّت الآية بكلمة (ثمّ) للدلالة على الترتيب في الأحداث والتّراخي في الزّمن، فبعد نزولهم عن الجبل، واستيلاء الخوف والفزع عليهم، وإحساسهم بالضعف والوهن، نزلت رحمة الله عليهم؛ ليستعيدوا قوتهم، ويجددوا النشاط والفكر، فكان الحرف إيجازا وإتباعا لما سبق من أحداث.

وقدّم سبحانه وتعالى الأمن على النُّعاس في معركة أُحد، لمقتضى الحاجة إلى الشُّعور بالأمن بعد الخوف، فكان النعاس شكلا من أشكال الأمن، فالنّعاس يحتاج إلى الشعور بالأمن أولا؛ فمن يشعر بالخوف والفزع يبقى متيقّظا لا يأتيه النوم، واختص هذا الأمن والنعاس بطائفة منهم لا جميعهم.

---

(1) آل عمران: 154.

وفي معركة بدر، تقدّم النعاس على الأمن في قوله تعالى: { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ}[1] ؛ وذلك لأنّ المسلمين بذلوا جهدا عظيما في السفر من المدينة إلى بدر، فوصلوا الموقع منهكين بحاجة إلى راحة لأجسادهم ولا يكون ذلك إلا بالنوم، أمّا في معركة أُحد فتقدّم الأمن على النعاس؛ لأنّ موقع المدينة لا يبعد عن أُحد كثيرا؛ فبذلك لم يكن الجهد والنعاس باديان عليهم، وإنما هم بحاجة إلى الأمن والأمان أكثر.

ودلّت جملة الصفة في قوله تعالى (يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُم) على تملُّك النُّعاس منهم وكأنّه غشاء يحتويهم مُنزل من عند خالقهم يُهدِّئ من روعهم، مما زادهم إيمانا وثقة بربهم ، فمن معجزاته أن تمالكهم النوم والشّعور بالأمن في أرض المعركة، " وسمي الإغشاء إنزالا؛ لأنّه لمّا كان نعاسًا مقدرًا من الله لحكمة خاصة"[2]؛ لأنه لم يكن نعاسا عاديا يحضرهم خلال اليوم ، إنّما هو منزل من عند الله في ذلك التوقيت خاصة لحكمة إلهية.

عطفا على ما تقدم تتجلّى صورة المؤمنين في المعركة مطمئنين تعمّهم السّكينة والثّقة بالله، يراودهم النُّعاس الخفيف ليغشي على قلوبهم بغشاء الأمن والراحة والهدوء بعد المعمعة، لينطلقوا بعدها ثابتين راضين بقضاء الله.

أمّا الطّائفة الثّانية الذين تملّكهم الفزع والخوف، وانقلبوا على أعقابهم نادمين على انضمامهم لصفوف الجيش، فقد وصفهم سبحانه وتعالى بأدقّ التفاصيل فلا يخفون بعدها على أحد، قال تعالى:

([1]) الأنفال: 11.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج4، ص133.

{ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [1]

صوّرت الآية أحوال الطّائفة الثّانية ، وبيّنت قولهم وجهلهم وسرائر أنفسهم، وتمسّكهم بالدّنيا الزّائلة ، فالمشهد الذي كانوا فيه كشف عن بطائنهم فكانت صفتهم أنهم (قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ) وهذه الصّفة تُظهر اضطرابهم النّفسيّ، وأهمَّتهم أنفسهم بمعنى حدّثتهم أنفسهم بما يدخل عليهم الهم وذلك بعدم الرضا بقضاء الله وقدره، أو أدخلت عليهم الهمّ بالكفر والارتداد،[2] أو بمعنى أنّهم اهتمّوا بأنفسهم لا بالدّين ولا بالرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– ولا بالمسلمين [3] ، فلازمتهم هذه الصفة وتمثلت بهم لأنهم :

1. **{ يظُنُّونَ بالله غَير الحَقِّ ظنَّ الجاهليَّة} والظّنُّ هو شك ويقين إلا أنه ليس بيقين عيان[4]، فظنّهم كان مرتبطا بجذور فكرهم السّابق لعدم استواء إيمانهم وتضعضعه، فكان تبعا لجاهليتهم السابقة ، فقوله –سبحانه وتعالى– (غير الحق) وعدم قوله (الباطل) يشكل أسلوبا بلاغيا يناسب الذّات الإلهيّة فلا يقترن اسمه سبحانه إلا بالحق لا بالباطل، وجاءت لفظة (غير) لتستثني ذلك الحق من ظنونهم ، وجاء قوله تعالى (ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ) وصفًا لما كانوا عليه قبل الإسلام من باطل واستمروا في هذا الجهل غير**

([1]) آل عمران:154.

([2]) ينظر: ابن عاشور : التحرير والتنوير.ج4، ص134.

([3]) ينظر: الزمخشري: الكشاف.ج1،ص428.

([4]) لسان العرب. مادة (ظنن) .

مؤمنين بقضاء الله وحكمته وتيسيره، فهذه أول صورة لهم بأنّهم لا زالوا متأثّرين بجاهليتهم ولم يتطهروا منها خالصا.

2. استخدام أسلوب الاستفهام المجازي بـ(هل) في قوله تعالى: { يَقُوْلُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيء} يفيد بلاغيا التردد، وكأنهم ينتظرون جوابا بالإثبات أو النفي وعدم اليقين التّام، فـ(هل) استفهام لطلب التّصديق ، فهم يسألون ليصدق على سؤالهم بأن لم يكن لهم من الأمر شيء ، والنّفي بالاستفهام أبلغ من النفي بقرائن النفي المألوفة ، فكان سؤالهم لإجابة يعرفونها أضمروها في أنفسهم ليثيروا الشكوك والظّنون في غيرهم ، فنفوا عن أنفسهم اتخاذ القرار للمجيء للمعركة، وكأنّهم أُلزِموا بها تبعا لأمر الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام–، فكان الردّ عليهم (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)، وفعل الأمر هنا موجه للرّسول – عليه الصّلاة والسّلام–؛ أي قُل يا محمد لهم، وفي ذلك دعوة إلى الرّسول للرّدِّ على كل شبهاتهم، ومحاولة إثارتهم للشّكوك وتأكيدا على ثوابت العقيدة بأنّ الأمر كلّه نصر وهزيمة بيد الله وفي قبضته، يتصرف في الأمور كيف يشاء سبحانه، والتوكيد في لفظتي (إنّ، وكلّه) يفيد جوابا أبلغ وتتشكل الصّورة الذهنيّة النفسيّة المتعلقة بالطّائفة التي قالت:(هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ) من ثنائية في الأسلوب اللغوي ، طرفها الأول: أسلوب إنشائي نفي بالاستفهام يصور عجز الطائفة عن واجبها . والثاني : جملة خبرية مؤكدة بثلاثة مؤكدات (إنّ) ولفظ (كلّه) ، والتقديم والتأخير ، إذ تقدم لفظ (كلّه) على لفظ الجلالة .

3. { يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِم مَا لَا يُبْدُونَ لَك} يدُلُّ الطِّباق بين (يخفون، يبدون) على ثنائية الشخصية وتأرجحها بين الحق والباطل نفاقا ، فقد أتوا مع المسلمين إلى المعركة ليُظهروا إسلامهم للناس، أما فكرهم وباطنهم لا يزال متأثرا بالجاهلية.

4. { يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}، وفي هذا الخبر إجابة منهم لسؤالهم السابق: (هَلْ لَنَا مِنَ الأَمرِ شَيء) فهم من سأل ، وهم من أجاب، وسبق سؤالهم وجوابهم :(يقولون) وفي ذلك تأكيد على قولهم وثبات نيتهم ونفاقهم وإصرارهم؛ أي لو كان القرار لنا لما قامت المعركة ، ولما قُتل من معنا، والجملة الشّرطية المكوّنة من (لو كان) فعل الشرط ، و(ما) النّافيّة الواقعة في جواب الشّرط تفيد تَدليسا وتشكيكا بالقيادة وخطّة المعركة؛ ليقلبوا المعادلة إلى صالحهم ، ويُؤثِّروا نفسيّا على بقيّة المسلمين من خلال استخدام الفعل: (ما قتلنا) لنفي وقوع القتل عليهم لو كانوا صناع القرار، واقتران الفعل بـ (نا) الجماعة له تأثير نفسي أيضا ، على الرغم أنّ القتل لم يقع عليهم فهم يجادلون في نهاية المعركة، ولكنّهم شملوا أنفسهم ليصنّفوا أنفسهم من ضمن المقاتلين، فما وقع عليكم فقد وقع علينا فنحن منكم وأنتم منا، ولكن شتّان بين المؤمن الحق والمنافق، وقد فرَّقَ الله بين الطّائفتين تفريقًا واضحًا ، وكان الردّ عليهم بجملة شرطية تناسب جوابهم الشّرطي قال تعالى: { قُلْ لَوكُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الذينَ كُتِبَ عَلَيْهِم القَتْل إلى مَضَاجِعِهِم...} جاء فعل الشّرط مُخاطبًا إيّاهم، والجملة الواقعة في جواب الشّرط مؤكَّدة، لتوضِّح قُوة الردِّ عليهم، وتكشف لهم حقيقة الموت والأجل.

5. الفعل المبني للمجهول(قُتلنا)، يفسر الجهل بالفاعل؛ لأنّ حالة النّاس عشوائية قلقة لا يعرف القاتلُ من قَتَل، ولا المقتول من قتله إلا قليلا، ففي الوغى لا يعرف أحد الآخر، فحسُن أن يكون الفاعل مجهولا في التعبير القرآني، وقد يكون الملمح البلاغي عن عدم أهمية ذكره، فالعلم بالفاعل وعدمه سواء، فالأهم هو أن ينال المتلونون جزاءهم، بما كسبته أيديهم.

وفي سياق الهزيمة، عاتبهم الله –سبحانه وتعالى– على أقوالهم، قال تعالى:

{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [1]

ويمكن رصد الأبعاد النفسية للهزيمة في المعركة على النحو الآتي :

1. **الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَة) يفيد التوبيخ والتقريع، فما عليكم أن تقولوا: كيف أصابنا هذا؟ فما عليكم أن تستغربوا هذه الهزيمة، فقد كانت من صنع أيديكم وأفعالكم. ويُضمر التقريع تذكيرا بحسن صنيعهم سابقا، فقد أصبتم الكافرين يوم بدر ضعف ما أصابوكم يوم أحد ، والاستفهام في (قلتم أَنَّى هذا) بمعنى من أين هذا، هو استفهام تعجبي إنكاري، فتوالى الاستفهامان ليُنكر الأول الثاني، (قل هو من عند أنفسكم) هذا رد على سؤالهم، يضعهم أمام أنفسهم يعاتبهم بسبب فعلهم، وبسبب مخالفتهم لأمر الرسول –عليه الصلاة والسلام–، مما يشعرهم بالخجل والندم.**
2. **قوله تعالى: (أنّى هذا) بمعنى من أين لنا هذا؟ أفاد الخروج عن الأصل في الصيغة المتعارف عليها، فأضاف ذلك قوة في التبليغ وجمالا في التركيب.**

❖ المطلب الثاني: عفو الله عن الطائفة التي فرت يوم أحد

([1]) آل عمران: 165.

قال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } [1]

وُجّه الخطاب إلى الذين ولّوا الدُّبر من المسلمين يوم أُحد، ليبيّن لهم سبب انهزامهم وضعفهم، فكان عصيانهم لأمرِ الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام– بالنّزول عن الجبل طلبًا للغنيمة سببًا لهذا الانهزام ، فتوالت من بعد هذه المعصية وساوس الشّيطان، واستطاع أن يزلّهم ويفكّك جمعهم، إلا أنّ الله –سبحانه وتعالى– غفور حليم بعباده، فقد عفا عنهم وغفرَ لهم.

وفي الآية بعض التراكيب التي عزّزت المعنى وأسهمت في توضيح صورة الانهزام ، ومنها:

1. **تفيد زيادة السين والتاء في (استَزَلَّهُم) التأكيد على إزلال الشيطان لهم، وبيان قبح هذا الزَّلل الذي دفعهم إلى النّزول عن الجبل، والاستعجال لأخذ الغنيمة، وعصيان أمر رسول الله، فوساوس الشيطان دفعتهم إلى الزلل والهزيمة والضعف.**
2. **الباء في قوله تعالى (بِبَعضِ مَا كَسَبُوا) للسّببيّة؛ "بأنّهم انهزموا بسبب بعض ما كسبوا من أعمالهم ، فيلقي اللوم على عاتقهم" [2] ، فلولا اقترافهم الذنب وعصيانهم للرّسول عليه السّلام في بادِئ الأمر لما استطاع الشيطان أن يؤثّر عليهم ويستزلهم، فكان استزلال الشيطان لهم تبعًا لأفعالهم، فالمعصية تجرُّ المعصية والذنب يجرّه ذنب، " وصورة الشيطان غير محسوسة، ولكن أثرها محسوس مجسّد في حركة الفرار من المعركة. وكلمة استزلهم ترسم بجرسها صورة حية للشيطان، وهو يجر قدم المقاتل لتزل**

([1]) آل عمران: 155.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص140.

زلة، تتبعها زلات حتّى ينقاد أخيرا لخطوات الشيطان، فيتبعه في حركة الفرار من المعركة" [1].

وتتلخّص صورة الهزيمة في المعركة، بنبرة العتاب وبيان الأسباب، واستحضار المشاعر من خوف واضطراب أصاب صفوف المسلمين بعد مخالفتهم لأمر الرّسول، وتفرقهم عن بعضهم بعد أن كانوا متّحدين في خطة محكمة رسمت لهم معالم النّصر لولا طمعهم في الغنائم.

(1) راغب، عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن.ص245.

❖ المطلب الثالث: بيان منزلة الشهداء

رسمت الآيات مفهوما جديدا للموت ، وغيَّرت من مفهوم الموت والجهاد في سبيل الله تعالى ، فبعد أن كان المنافقون والكافرون يتربَّصون للمؤمنين ليثبِّطوا من عزيمتهم، ويحرِّكوا الشّكوك في نفوسهم، ويعظموا أمر القتال والقتل عليهم جاءت الآيات؛ لتبيّن المنزلة التي يرتقي إليها من يقتل في سبيل الله ، وكشفت عن أحوال الشهداء وما هم به من نعيم، قال تعالى:

{ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [1]

وتَتَشكّل صورة الشّهداء من النّسيج النحوي واللغوي الآتي:

1. النّهي في قوله تعالى: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا} نهي عن الظّنّ بأنّ الشّهداء أموات كغيرهم. وجاء الفعل المنهي عنه (تَحْسَبَنَّ) مؤكّدا بنون التوكيد الثّقيلة لتعزيز دلالة النّهي في (لا) النّاهية، وحدّد في ذلك (الذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله)، فإذا هم قُتلوا في سبيل الله فهم ليسوا أمواتا، فإن كان ظاهرا موتهم بسبب القتل إلّا أنّ أرواحهم لم تمت، فهنا المفارقة بين القتل والموت، فالموت فيه انقطاع عن الحياة، أمّا

([1]) آل عمران: 169-174.

القتل في سبيل الله فلا تنقطع فيه الحياة بدليل استمرارية الرزق الذي دلَّ عليه الفعل المضارع(يُرزقون).

2. **{ بَلْ أَحْياءٌ} إضراب يفيد تأكيد نفي موتهم ، ويفيد انتقال أرواحهم إلى بارئها ، فهم أحياء يرزقون عند ربهم ، فرزقهم لن ينقطع، بل مستمر دلالة على أنّ حياتهم مستمرة.**
3. **الطّباق بين (أموات، أحياء) يؤكّدُ على منزلة الشهداء عند ربّهم ويعزّز من علُّوها ورفعتها، فذَكَرَ الموت ونفاه نفيًا تامًّا ، والتّأكيد على الحياة ومصاحبة الرزق لهذه الحياة يعزّز من معناها، وقد خولف الإعراب بين المتعاطفين في الظاهر فوردت (أمواتًا) منصوبة على أنها مفعول به ثانٍ، و (أحياء) مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هُم)؛ " للدّلالة على أنّ الموت أمر طارئ يعقبه الهمود والاندثار وعدم تجدد الذكر، أما الرفع وجعله جملة اسمية فهو أبلغ في الدلالة على الديمومة وطروء الذكر وتجدده كل يوم". [1]**
4. **جملة الحال (فَرِحِينَ) تبيّن حالهم عند ربّهم وهم يرزقون، فهذا الرّزق الذي آتاهم الله سبّبَ لهم الفرح والبشارة ، (آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه) فما رأوه ما هو إلا قدر قليل من فضل الله عليهم .**
5. **أضاف على الفرح البشارة، والبشارة ما يبعث في النَّفس السُّرور، والفعل يستبشرون يدلّ على التّلهف والانتظار بما يبعث الفرح والاطمئنان والسرور، فيصوّر ذلك حسن ظنّهم بربهم وعلمهم بعظيم أجرهم ومكانتهم عند الله، فهم {يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ } ، يحسنون الظّنَّ بالله بأن ينعم على إخوانهم المؤمنين الذين لم**

([1]) درويش، محيي الدين: إعراب القرآن وبيانه. ج2، ص108.

يستشهدوا معهم كما أنعم عليهم، يحملون البشارة لهم بأنّهم في أمان لا يخافون ولا يحزنون، والبشارة الثانية: { يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ } فما زال استبشارهم بالله مستمرا بأن ينعم عليهم وعلى إخوانهم ، وجاءت لفظة (فضل) نكرة ، للدَّلالة على أنّ هذا الفضل الذي يستبشرون به مختلف عن الفضل الذي آتاهم إياه من قبل .

6. صفاتهم وأفعالهم: { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }، فهؤلاء المؤمنون الذين لم يلحقوا بإخوانهم ، وأصحابهم يستبشرون لهم هم الذين أطاعوا الله والرسول عليه الصلاة والسلام، وأحسنوا في أقوالهم وأفعالهم واتقوا الله سرا وجهرا، والذين لا يخشون إلا الله ولا يخافون الموت في سبيله، ويتوكلون على الله في كل أمورهم بأن (قَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل) وفيها عطف الإنشاء(نِعْمَ الوَكِيل) على الخبر، وحذف المخصوص بالمدح لتقدمه، فهذه الصّفات مجتمعة في هؤلاء المؤمنين جعلتهم بجوار ربهم فرحين، وفي الإخبار عن صفاتهم وأفعالهم دعوة إلى التحلي بمثل أخلاقهم وانتهاج منهجهم، فهذا المنهج يضمّ الصّورة المتكاملة للمؤمن الحقّ ، فهو يتلقّى كلام الله ورسوله ويستجيب له قولا وفعلا، فاستجابته تكون وفقا لما أمر به الله ورسوله –عليه السّلام–، أمّا أفعاله فتتسم بالإحسان والتُّقى، ومن اليسير أن نتصوّر هذه الشخصية التي ترتسم بهذه الأبعاد الخلقية، وزيادة على ذلك إن سمعوا قولا يدعو إلى الخوف ويثبّط العزيمة طرحوه أرضا وعلو فوق علوهم وازدادوا إيمانا فوق إيمانهم ، أما قولهم بعد الفعل والإيمان والعزيمة (حسبنا الله ونعم الوكيل).

7. يُشير الفعل (انقلبوا) في قوله تعالى: { فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْل} إلى تغيُّر حالهم من حال إلى حال، فبعد أن كانوا في مشقّة الدّنيا وفتنتها انقلب بهم الحال فأصبحوا بنعم الله التي لا تزول، وتنكير (فضل) يشير إلى اتساع هذا الفضل فلا حدود له.
8. تكشف جملة الحال (لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء) عن عظيم إحاطة ورحمة الله بهم ، فإن أصيبوا وجرحوا في ظاهر الأمر، إلاأن هذا الجرح سبب لمغفرة الله لهم، يشكرون الله عليه ويحتسبون الأجر عنده سبحانه، فهم أصحاب عزيمة وثبات وازدياد في الإيمان، ومن قُتل منهم في سبيل الله فهو في نعيم الله فرحا ومستبشرا.
9. تكشف بعض مفردات الآيات عن لون بديعي يؤكّد المعنى ويوحي بالأمان والطمأنينة ، وهو مراعاة النظير، فتناسبت الألفاظ مع المعنى في (فرحين، يستبشرون) ،(لاخوف، لا هم يحزنون)، (نعمة، فضل) ونلاحظ أنّ الكلمة الثّانية تشتمل على معنى الأولى وتزيد عليها، فالبشارة الحقيقية لا تكون إلا بعد الفرح ، والحزن يزول بزوال الخوف، والفضل يزيد عن النعمة، فيكشف ذلك عن تتابع الخير للمؤمن تتابعا يرضيه ويبعث في نفسه اللهفة والتهيئة لدار الآخرة.

❖ المطلب الرابع: مواساتهم بذكر الأمم السابقة

من عظيم رحمة الله تعالى بعباده أنه يواسيهم ويبشّرهم عند المصائب، فهذه الآيات مقام مسح على القلوب ، ومواساة وتصبير وتبشير، قال تعالى:

{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [1]

تربط الآيات الماضي بالحاضر لتستشرف المستقبل ، وتدعوهم إلى النّظرة الشاملة لمجريات الأمور، وتصوّر لهم حقيقة التّوازن بين ثبات السّنن الكونيّة ومشيئة الله المطلقة، فعليكم أن تنظروا إلى أحوال الأمم السابقة وتأخذوا العبرة من قصصهم، فما جرى للمكذبين في الأمس سيجري للمكذبين اليوم، مما يدعو إلى الطمأنينة والحذر.[2] ومن الأساليب التي عززت هذه المواساة:

1. **استهلّت الآية بالتوكيد (قد) تأكيدا على الخبر(خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)، والأمر في قوله تعالى : {فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا} لا يجري مجرى الحقيقة ، فالسّير هنا ليس المشي على الأقدام ، إنّما هو معنوي بالنظر إلى التاريخ وأخذ العبر والإرشادات منه، فسنن الكون ثابتة ونهاية الظّالمين والمكذبين واحدة وهي العذاب، وهذا الإخبار يبعث في**

([1]) آل عمران: 137-140.

([2]) ينظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن.ج4، ص479.

نفوس المؤمنين الطمأنينة والاستبشار، وتتعزّز دلالة الأمر في الفعلين (فَسِيرُوا ، فَانظُرُوا) بالاستفهام في خاتمة الآية في قوله تعالى : {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}.

2. {هَذَا بَيَانٌ للنَّاسِ وَهُدَىً وَمَوْعِظَةً لِلمُتَّقِين}، هذا : إشارة إلى سنن الله الثّابتة في الكون ليتعلم منها البشر، أو أشارة إلى القرآن الكريم[1]، فجعل هذا الأمر بيانه للناس عامة وتوضيح لكيفيّة مسيرة هذه السنن وبيان عاقبة المكذبين، أمّا المتقون المؤمنون فجعل هذه السنن هداية لهم إلى الطريق الصحيح وتعظهم وتحذرهم، فالناس قد يشاهدون آثار من قبلهم ويقرؤون كتبهم لكن المتقين من يتعلمون من هذا التاريخ فيمهّد لهم الطريق، ويكشف لهم عن خبايا يتّعظون من خلالها ويأخذون حذرهم ، ففي هذه دعوة للمتقين والمؤمنين لكي يهتدوا بهذه السنن ويتعظوا منها.

3. النّهي في قوله: { لَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا} فيه خطاب مباشر من الله –سبحانه وتعالى– للمؤمنين، وكأنّ المعنى مواساة وتطمين، فإذا علمنا أنّ الوهن يصيب الجسد ، والحزن يصيب القلب، ترتسم في مخيلتنا حالة المسلمين حينها من ضعف في الجسد وحزن في القلب على ما أصابهم، فظهرت صورتهم لا من خلال الإخبار عنها بل من خلال نهيهم عن هذه الأفعال ، وهو نهي لطيف فيه مواساة ودعم وتسلية ودعوة لهم بأن تبقى عزائمهم قوية.

4. جملة الحال (وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين) بعد نهيهم عن الضّعف والحزن وصفهم بأنّهم الأعلون، وتشكل جملة الحال قمة المواساة والتسلية والتّضامن، تبثّ في نفوسهم الأمل والعمل؛ ليعلموا أنّه مهما حصل سيبقون الأعلى في الدنيا والآخرة، واستخدم ضمير المخاطب (أنتم) لبيان قرب المؤمنين منه ، فهم في منزلة عالية بقربه وتحت كنفه، و

([1]) ينظر: الألوسي: روح المعاني. ج2، ص280.

جملة الشّرط (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) انقلب ركنيها فبدأت بجواب الشرط ، وذلك لتسريع البشارة لهم ومواساتهم.

5. **جملة الشّرط {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَّوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه} فيها تخفيف عن المسلمين، فما أصابكم اليوم في أُحد قد أصاب الكافرين سابقا في بدر، فخففوا عن أنفسكم، فهذه الأيام دول بين الناس، وفي استخدام لفظة (يمسسكم) و (قرح) إشارة إلى الإصابة الجسدية ، فالمس هو إصابة الجسد، فبذلك ينفي المساس بالفكر والعقل، فالمؤمن زادته هذه المعركة إيمانا وقوة ولم تُصب من إيمانه شيء، " والتّعبير عمّا أصاب المسلمين بصيغة المضارع في يمسسكم لقربه من زمن الحال، وعمّا أصاب المشركين بصيغة الماضي لبعده لأنّه؛ حصل يوم بدر" [1] ، والقرح هو الجرح ويحمل معنى أوسع بأن يكون الأثر الذي تركه الجرح، "وكأنّ القرح ألم الجراحات أي وجعها، وكأن القرح الجراحات بأعيانها" [2]**

6. **تقدم المفعول به على الفاعل(فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ) تقديم عناية وأهمية " فأخبرهم أنّ القرح والأذى لم يصبهم وحدهم إنّما أصاب أعداءهم أيضا . وقدّم العدو لأنّه هو الذي يعني المسلمين هاهنا، إذ ليس المهم القرح، وإنّما المهم من أصاب، فقدّم القوم؛ لأنّ إصابة هؤلاء بأعينهم هو الذي يواسي المسلمين ويخفف عنهم الحزن" [3] وليست العناية والأهمية فقط هي ما يُقدّم المفعول على الفاعل، فيتقدم المفعول به حينما يكون الفاعل مكروها نحو العذاب والموت، وتبرز في القرآن الكريم ظاهرة نحوية وهي تأخير**

([1]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص99.

([2]) ابن السكيت: إصلاح المنطق. تحقيق: محمد مرعب، ط1،دار إحياء التراث العربي، 2002م.

([3]) السامرائي، فاضل: معاني النحو. ج2، ص56.

الفاعل المكروه ، أي ما تكرهه النفس ، وتقديم المفعول به ، فغالبا ما يتأخر الفاعل إذا كان بلفظ الموت ، أو كان الفاعل نوعا من أنواع العذاب [1] ، فالقرح أمر مكروه للمسلمين فتأخيره جاء تخفيفا لوطأة هذه الإصابة والهزيمة .

7. **تلك: إشارة للبعيد ، وهي الأيام السابقة، فمن سنن الله في الكون أن تدور الأحداث وتعود الأفعال لأصحابها؛ لتتحقق حكمة الله في الكون، " فالإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن لقصد الاهتمام بالخبر وهذا الخبر مكنى به عن تعليل للجواب المحذوف المدلول عليه."[2]**

8. **لام السّببيّة أو التّعليل (وَلْيَعْلَمِ الذِينَ آمَنُوا) توضح الفوائد من هذا القرح الذي مسّ المؤمنين ، وذلك ليكشف الله لكم الذين آمنوا والمنافقين، (ويتَّخِذ مِنْكُم شُهَدَاء) فقد عبّر عن تقدير الشّهادة لهم بالاتخاذ؛ لأنّ الشّهادة فضيلة من الله، واقتراب من رضوانه. [3]**

([1]) ينظر: عتيق، عمر: علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة.ط1 ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن ، عمان ، 2012م ، ص214.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج4، ص100.

([3]) ينظر: المرجع نفسه .ج4،ص104.

الفصل الثالث

صورة معركة الأحزاب(الخندق)

- **المبحث الأول: الصورة العامة للمعركة.**
- **المبحث الثاني : صورة المنافقين في المعركة.**
- **المبحث الثالث: موقف المؤمنين.**
- **المبحث الرابع: نتائج المعركة.**

مدخل:

معركة الأحزاب حدثت في السّنة الخامسة للهجري، وسُمِّيت بالأحزاب أي الطّوائف، لاجتماع طوائف المشركين على حرب المسلمين وعلى رأسهم قريش وغطفان واليهود، وسُمّيت بالخندق "بسبب الخندق الذي حُفِر حول المدينة بأمرِ النُبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– وكان الذي أشار بذلك سلمان" [1]

بعدَ أن خرج يهود بني النُّضير من المدينة إلى خيبر حملوا معهم أحقادهم على المسلمين، فرسموا خططًا للقضاء عليهم والانتقام منهم، وحرّضوا القبائل العربية على قتال المسلمين ، ونجحوا في ذلك، فاجتمعت قريش ومن تبعها، وغطفان واليهود وجهزّوا عشرة آلاف مقاتل ، مقابل ثلاثة آلاف من المسلمين.[2]

ولمّا علم النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– اجتماعهم لقتال المسلمين، اجتمع عليه الصّلاة والسّلام بأصحابه، فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق، وأُعجب النبي –عليه الصلاة والسلام– بفكرته، فنظّم المسلمون أنفسهم ووضعوا النّساء والأطفال في حُصون منيعة، وجعلوا جبل سلَّع خلفهم وعسكروا هناك.

واستمرَّ حفر الخندق ستَّة أيام باردة، وقد وزَّع الرسول –صلّى الله عليه وسلّم– العمل بالتّساوي، فكان لكل عشرة أربعون ذراعًا[3]، وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم مشرفًا على الحفر ومشاركًا فيه، إذ كان ينقل التّراب معهم حتى اغبر بطنه، وعندما اعترضت صخرة كبيرة في الخندق أخذ الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام– المعول وضربها ثلاث ضربات حتى انتهت. [4]

تفاجأت الأحزاب بالخندق بعد زحفهم نحو المدينة، الذي يحول بينهم وبين المسلمين، فحاولوا الدّخول والبحث عن ثغرات في الخندق إلا أنّهم فشلوا؛ لأنّها محصّنة بقوة، وهكذا أصبحت المدينة

([1]) العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري لابن حجر. دار المعرفة ، بيروت، 1379هـ ،ج7، ص392.

([2]) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية . ج2، ص220.

([3]) خطاب، محمود: الرسول القائد. ط6، دار الفكر، بيروت، 1422هـ، ص228.

([4]) ينظر: عابد، محمد: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول. ص 412–413.

محاصرة بجموع الأحزاب حولها ومنهم الأعراب الذين لم يتعودوا المكث في مكان واحد لفترة طويلة، ويأسوا أكثر مع برودة الطّقس والرّياح الشّديدة التي تقتلع خيامهم، فعزموا على العودة ، إلا أنّ حيي بن أخطب أسرع في إقناع يهود بني قريظة الذين يقطنون في الناحية الجنوبية من المدينة لينقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين، ففعلوا وأرسلوا لجيوش الأحزاب مدداً من البعير المحمّل بالطّعام، فصادرها المسلمون وهي في طريقها.[1]

واشتدّ الحصار على المسلمين، وحاول المشركون تصيّد الثغرات والعبور منها، لكنّ المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، ودعوا ربهم فاستجاب لهم ، وصرفهم عنهم، وأرسل عليهم ريحاً باردة شديدة وألقى في قلوبهم الرّعب، ولمّا جاء نعيم بن مسعود الغطفاني معلناً إسلامه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من بين صفوف المشركين سراً، جعله الله سببا آخرا في تمزيق أواصل الأحزاب وتشتتها، فأرسله الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام– ليبث الدعاية والتشكيك بين جماعات الأحزاب؛ لأنّ علاقة الأحزاب بين بعضهم بالسابق كان يشوبها تصدّع خفيف، فاستغلّ هذا الشّرخ وفكّك عزيمة الأحزاب. [2]

ارتدّت جيوش الأحزاب مدحورة راجفة خائبة إلى ديارها، ونجّى الله المسلمين من عدوّهم، وتنفسوا الصعداء، ولكنّ ذلك لم يدُم طويلاً، فما أنْ وضع الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– سلاحه حتّى نزل عليه جبريل عليه السلام، يدعوه للتوجه نحو بني قريظة لنقضهم العهد الذي بينهم وبين المسلمين، فأسرع المسلمون بأمر من الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– باتجاه بني قريظة، فوجدوا منهم الغرور والتبجح، فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة، فيأس اليهود وباتوا يعرضون الصُّلح على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بشروطهم، فأبى النبي صلى الله عليه وسلّم إلا أن ينزلوا بحكمه دون شرط.

وبذلك انتصر المسلمون على أعدائهم رغم قسوة ما مرّوا فيه في المعركة ، ونجّاهم الله ، وكسر شوكة الكافرين.

([1]) ينظر : عابد، محمد: حديث القران الكريم عن غزوات الرسول. ص413–419.

([2]) ينظر: ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية. ج2، ص229–230.

المبحث الأول: الصورة العامة للمعركة

❖ **المطلب الأول: صورة الحشود المعادية.**

❖ **المطلب الثاني: لغة الجسد في سياق الخوف.**

❖ المطلب الأول: صورة الحشود المعادية

بدَأت الآيات بتذكير المؤمنين بفضل الله عليهم ونعمته إذ نصرهم على أعدائهم وسخّر لهم الرّيح والملائكة جنودًا من عنده؛ ليدفع عنهم كيد الكافرين، ويُمكّنهم في الأرض، فاختزلت الآية أحداث المعركة من بدايتها حتى نهايتها .

قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [1]

تُبيّن الآيات الكريمة صورة الحشود المعادية وقد أتت إلى موقع المسلمين لتقضي عليهم مجتمعة، وقد تَبيّن أنّ الكافرين هم من تقدموا لقتال المسلمين واحتشدوا جماعات وأحزاباً ليفتكوا بهم، وارتسمت هذه الصورة من خلال العلاقات الدلالية للأساليب النحوية الآتية :

1. **نداء المؤمنين (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تعظيمًا ومدحًا لهم باستخدام أداة النداء (يا) التي تفيد التعظيم؛ ليزيدهم ذلك إيماناً واعتزازاً بدينهم ونَبيّهم، والذكر في الفعل (اذكُروا) قلبي وفعلي، كما قال القرطبي : " الذكر اسم مشترك، فالذكر بالقلب ضد النسيان، والذكر باللسان ضد الإنصات، وذكرت الشَّيء بلساني وقلبي ذكراً." [2]**

2. **تنكير (جنود) يدلُّ على الشّمول والعموم والتّعظيم والتّهويل، فارتسمت الصّورة العامّة للحشود بقدومها بأعدادٍ ضخمة مهولة مُهيَّئة من عدة وعتاد، يثير مظهرها الرُّعب والاضطراب في القلوب، ومقابل هذه الصّورة ترتسم صورة المدد الإلهي، مدد ظاهر وآخر مخفي يدعم المؤمنين .**

([1]) الأحزاب:9-11.

([2]) القرطبي، شمس الدين: الجامع لأحكام القرآن-تفسير القرطبي- . تحقيق: أحمد البردوني وغيره . ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م ،ج1، ص331.

3. وتكررت في الآية لفظة (جنود وجنودا) وهو ما يسمى (التكرار الوهمي) فاللفظان يوهمان بالتكرار اللفظي ولكنّهما مختلفان في المعنى، فالجنود الأولى الأعداء، والجنود الثانية الملائكة، فالتكرار الوهمي يرسم صورة ثنائية ضدية بين جنود الكافرين وجنود الملائكة، مما يسهم في تكثيف الانتباه وتعزيز الصورة، فالملائكة المجندة المرسلة من الله – سبحانه وتعالى– تقف ضد جماعات المشركين لحماية المسلمين والدفاع عنهم، فتتمثل هنا ثنائية الخير والشر، وتتناسب الأفعال السابقة مع صورة الجنود، فالفعل (جاءتكم) ارتبط بجنود الكافرين، فمجيئهم وهم محملون بالضغينة والحقد والشر، أما الفعل (أرسلنا) فارتبط بجنود الملائكة الذين أرسلهم الله –سبحانه وتعالى– نصرة للمؤمنين يدفعون شر الحاقدين.

4. جملة الصفة (لم تروها) في قوله تعالى: { وِجُنُودًا لَمْ تَرَوهَا} تفتح الأبواب لتَخيُّل جنود من الملائكة يقاتلون دون أن يراهم أحد، مما يضاعف يقظة المتلقي لمعنى صورة المعركة ويمنح أجواء المعركة سمة الدهشة التي قد تصل إلى العجائبية، فيشعر المتلقِّي بالمدد الإلهي الخفي الذي أصبح ظاهرا بعد تلاوة آياته الكريمة، فيزيد شكره وإيمانه ويقينه بالله.

5. يصور القرآن الكريم المدد الإلهي الذي نصر به المؤمنين على أعدائهم يوم الأحزاب، فجعل الريح والجنود من الملائكة التي لم يرها المؤمنون معينة للنصر، وجاءت (ريحا، وجنودا) بالتنكير لتفيد معنى التهويل والتعظيم والتكثير.

6. العطف في {فَأَرسَلنَا عَلَيهِم رِيحًا} عطف على (جاءتكم) مسوق لبيان النعمة إجمالا، {وَجُنُودًا لَمْ تَرَوها} وهم الملائكة –عليهم السلام– ، وكانوا ألفا بعث الله عليهم ريحا باردة، سفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت

النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبّرت الملائكة في جوانب عسكرهم [1].

7. تأتي لفظة الرّيح في القرآن الكريم غالبا للعقوبة والهلاك، أمّا الرّياح فتحمل معنى البشرى والخير. إنّ هذه الصّورة تؤجج في المخيلة عظمة المدد الإلهي للعباد المؤمنين، فالانتصار في مثل هذه لمعركة كان يُعدُّ من الأحلام ، لضخم أعداد الكافرين وعتادهم ومحاصرتهم للمؤمنين وتكالُب الأعداء عليهم.

8. الجملة الاستئنافية { وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرَاً} تكشف عما لقيه المسلمون من شقّ وتعب وفزع قبل المعركة وخلالها، فالله يعلم ما بذلوه من جهد وتضحية فجازاهم بما هم أهل له.

9. تكرار الفعل (جاء) وغياب البدائل المناظرة له(أتوكم) مثلا؛ فالمجيء في القرآن الكريم يأتي في سياق الصعوبة والمشقة في الغالب، والإتيان في سياق السهولة واليسر في الغالب.[2] فيرسم ذلك مجيء الأحزاب لقتال المسلمين في أيام باردة ورحلة شاقّة.

10. تكررت الجمل الظرفية المبدوءة ب(إذ) في قوله تعالى(إذ جاءتكم\ إِذْ جَاءُوكُمْ) ظرف زمان ، جيء به للتذكير بالنعم الي أنعمها عليهم يوم الأحزاب ، وفي ذلك تجديد لإيمانهم وتخليد لذكرى النّصر، أمّا (إذ جاءوكم) في قوله تعالى: { إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} [3] في الآية التي تليها، فهي بدل[4] مفصّل من مجمل من (إذ جاءتكم)، بدأ فيها في تفصيل الأحداث وكيفية المجيء، ولهذا استخدم واو الجماعة للتدليل على

([1]) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم.ج7،ص93.

([2]) ينظر: السامرائي، فاضل: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. ط3، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، 2003م. ص 98.

([3]) الأحزاب: 10.

([4]) العكبري، أبو البقاء: التبيان في إعراب القرآن. ج2، ص1053.

جنود الكفار، فبعد أن كانوا جميعاً مجتمعين زاحفين باتجاه المدينة لقتال المسلمين ، جاء حزب جديد من محيط المدينة وهم بنو قريظة نقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين وتعاونوا مع الكافرين، فزاد ذلك من أعدادهم وتوسعت دائرتهم ، فأصبحوا يحيطون بهم من فوق المدينة وأسفلها، والفعل (جاءوكم) يدلّ على التَّدفق الواسع والأعداد الكبيرة ، وتحديد الأماكن من فوقكم ومن أسفل منكم، يجعل الصّورة الحركية تكتمل من بداية المجيء والزحف نحو المدينة والتجمع والإحاطة بها.

11. الطباق في { مِنْ فَوقِكُم وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ} يُشير إلى بعدين، الأول البُعد المكاني وهو الظاهر في المعنى ، ويدلّ على توزع الكافرين من فوق المدينة ومن أسفلها كناية شمولية عن جميع الإتجاهات؛ للإحاطة بجموع المسلمين وتضييق الحصار عليهم، أمّا الثاني فهو البعد النفسي، فإحاطة الكافرين بهم وكثرة أعدادهم وتوسع انتشارهم جعل المسلمين في حلقة مغلقة يشعرون بالضيق والتوتر والخوف، فيصوّر الطِّباق في الظَّرف حالة الاضطراب النَّفسي والرَّهبة والفزع. فمجيء (أسفل) بدلا من (تحت) تدلّ على التّشابك والالتحام في الحرب؛ لأنّها تستعمل في وصف شيء يتَّصِل بعضه ببعض، على عكس (تحت) التي تدلّ على ما هو منفصل أو يمكن انفصاله.[1]

([1]) ينظر: داود، محمد: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم. دار غريب، القاهرة، 2008م، ص157.

❖ المطلب الثاني: لغة الجسد في سياق الخوف

فصّلت الآيات السّابقة صورة الحشود المعادية من الكافرين وحصارهم للمدينة والمسلمين، ملتفّين حولهم من فوقهم ومن أسفلهم، صوّرت حال المؤمنين حيال هذا المشهد المهيب وتأثّرهم في هذا الموقف الذي سبب الرّهبة والخوف والفزع في القلوب، فرسمت الآيات تفاصيل الوجوه وانتفاض المشاعر واضطراب الفكر، قال تعالى:

{ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [1]

اتَّضحت صورة المؤمنين في المعركة أيّما وضوح، فصوّرت مشاعرهم وحركاتهم وسكناتهم حتّى تكاد تشعر بخفقان قلوبهم من قوّة التّصوير، فعبَّرت لغة الجسد بأسلوب كنائي عن مكنونات الأنفس، وعن قوّة المشهد وما بثَّه من مشاعر ، فيتَّضح أنَّ " التّعبير الجسدي يختزل بعدا دلاليا ، ويُضمر بعدا نفسيا ، وهما بعدان يتجاوزان الدلالة المعجمية السطحية لألفاظ التعبير الجسدي." [2]

تُضمر الآية أبعادًا دلاليّة حركيّة ونفسيّة تُسهم في توضيح صورة المسلمين حين رأوا الجموع من الأحزاب، فترتسم الصّورة ، وتنتفض الأحداث والوقائع بصورة موحيّة دافقة، تُقرأ وتُرى وتُحس من خلالها كل التفاصيل الدّاخلية والخارجية لتلك اللحظة من المعركة، وتتّضح لغة الجسد في سياق الخوف في المعركة .

تجسّد الآية السابقة الحالة النّفسيّة والفكريّة للمسلمين، فتصوِّر مقدار الفزع والخوف والرهبة ، وأولها الصُّورة البصريَّة الظَّاهرة التي تُصوِّر انحراف الأبصار(زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) ، وهي حائرة لا تدري لأيّ مكان تنظر من كثرة حشود الكافرين، فهي كناية عن الحَيْرة والدَّهشة والخوف الذي يُسيطر عليهم ، فهم حين رأوا جموع الأحزاب بأعدادها الضخمة دُهشوا واضطربوا فانحرفت

([1]) الأحزاب:10-11.

([2]) عتيق،عمر: لغة الجسد في القرآن الكريم. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، م9، ع(1\أ) ،2013م، ص82.

أبصارهم، وحارت عيونهم في النظر، وجاء في لسان العرب: زاغت الأبصار: أي مالت عن مكانها كما يعرض للإنسان عند الخوف [1] وذلك؛ لأنّ البصر يرتبط بالأفكار وإدراك المشهد والصّورة المتكاملة، ممّا يعلّل اختيار لفظ (البصر) دون غيره من الألفاظ المناظرة كلفظة (العين) مثلا، فلم يقل سبحانه وتعالى (زاغت العيون)؛ أمّا العين فهي الوسيلة التي تنتقل من خلالها الصورة إلى الدماغ لتُشكّل الإحساس فهي أداة الإبصار، فيفصحُ اللفظ عن الإحساس المدرك والحالة الشعورية النفسيّة المتشكلة من المشهد، من خوف وفزع واضطراب، "وَالْبَصَر اسْم للرؤية وَلِهَذَا يُقَال: إِحْدَى عَيْنِيَّة عمياء .وَلَا يُقَال: أحد بصريه أعمى ، وَرُبمَا يجْرِي الْبَصَر على الْعين الصَّحِيحَة مجَازًا وَلَا يَجْزِي على الْعين العمياء، فيدلك هَذَا على أَنه اسْم للرؤية . وَيُسمى الْعلم بالشَّيْء إِذا كَانَ جليا بصرا يُقَال لَك فِيهِ بصر يُرَاد أَنَّك تعلمه كَمَا يرَاهُ غَيْرك.[2]

ويؤكد هذه المشاعر التصوير الدّاخلي للحالة الجسديّة التي يلصقها انفعال شعوري وإحساس بالضّيق وهي قوله تعالى: { بَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِر} لتحديد معنى الخوف الشديد الذي يؤذن باقتراب الأجل من شدّة وقعه على النفس.

أمّا ثانيها فهي الصّورة الباطنة، فمن شدّة الاضطراب كادت القلوب من شدة خفقانها أن تبلُغ مخرج الحنجرة، صور القلوب في خفقاتها واضطرابها كأنها وصلت إلى الحلقوم، ففيها كناية حركية، إذ تحركت القلوب من مكانها لتصل إلى الحناجر من شدة خفقانها خوفا، وعند الحناجر يكون مخرج الروح، فتكاد تشعر بالاختناق من هول الموقف (كناية عن غاية الشدة والفزع)، فهذه الصورة الصّامتة البليغة، تتدفّق فيها مشاعر القلق والرّهبة حتّى يكاد يشعر الانسان باقتراب الموت لا محالة .

أمّا ثالثها فهي الصّورة الفكريّة فتصوّر ما يدور في الأذهان من أفكار وظنون وأوهام {وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا} (كناية عن الاضطراب في الفكر)، و يُفضي رصد النسيج النحوي إلى دلالات معنوية منها:

([1]) لسان العرب، مادة زوغ.

([2]) ينظر: العسكري، أبو هلال: الفروق في اللغة. تحقيق : محمد إبراهيم سليم . دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت، ص82.

1. **حذف الاقتصار[1] في قوله تعالى: { تَظُنُّونَ بِاللهِ الظّنُونَا} وهو اقتصار على نسبة فعل الظَّنِّ لفاعله، والمقصود من هذا التنزيل أن تذهب نفس السامع كل مذهب ممكن [2] ، قال الحسن البصري: "ظنّ المنافقون أنّ المسلمين يستأصلون، وظنّ المؤمنون أنَّهم ينصرون، فالمؤمنون ظنّوا خيراً، والمنافقون ظنّوا شراً، وقال ابن عطية: كاد المؤمنون يضطربون ويقولون: ما هذا الخلف للوعد؟ وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها، وأمّا المنافقون فتعجّلوا ونطقوا وقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا" [3] ، وإنَّما جمع الظنّ لاختلاف أنواعه؛ لأنّ من خلص إيمانه ظنّ أنّ ما وعدهم الله به من النّصر حقّ، ومن ضَعف إيمانه اضطرب ظنّه ومن كان منافقا ظن أن الدائرة تكون على المؤمنين فأخلفت ظنونهم[4]، فنزل الفعل (ظنّ) منزلة الفعل اللازم ، وحذف مفعوليه ليفتح الباب أمام المعاني الكثيرة المشتملة عليه.**
2. **استخدم الفعل المضارع لاستمرارية ظنِّهم بالله ، فالمؤمن ظنّه خير حتّى في الشدائد، فيعلم أنّ في الابتلاء خيراً مضمرا له ، أمّا المنافق فظنّه شر لاضطراب عقيدته وازدواجيتها ، وذكر ابن عاشور أنّ في استخدام صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم لإدماج العتاب بالامتنان[5]، ونلاحظ أسلوب العطف الذي يدلّ على تتابع مشاهد المعركة وتسلسل أحداثها ونقلها من الذاكرة إلى صورة تنبض بكل المشاعر والحالات النفسيّة المصاحبة لها.**

([1]) حُذِفَ مَفْعُولَا تَظُنُّونَ بِدُونِ وُجُودِ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِهِمَا فَهُوَ حَذْفٌ لِتَنْزِيلِ الْفِعْلِ مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ، وَيُسَمَّى هَذَا الْحَذْفُ عِنْدَ النُّحَاةِ الْحَذْفَ اقْتِصَارًا، أَيْ: لِلِاقْتِصَارِ عَلَى نِسْبَةِ فِعْلِ الظَّنِّ لِفَاعِلِهِ ١ ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج21، ص281.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج21، ص281.

([3]) الصابوني، محمد: صفوة التفاسير.ط1، دار الصابوني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م، ج2، ص472.

([4]) درويش، محيي الدين: إعراب القرآن الكريم وبيانه.ج7،ص613.

([5]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج21، ص281.

3. **{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُون}: أصابتهم الشدة والضيق اختبارا وتمحيصا لهم، " وابتلاه الله أي امتحنه، والبلاء يكون في الخير والشر"[1] ، كما قال تعالى: { وَنَبْلُوَكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَة}[2].**

4. **{ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}: صوّر حالة الرّعب والاضطراب التي وقعت في النفوس والأبدان بالزّلزال الشّديد الذي يضرب الأرض فيجعلها مضطربة متذبذبة لا يثبت من عليها ، فكان وقع الأحداث على المسلمين من تجمُّع الأحزاب وتكالب الأعداء والإحاطة بهم من كل جانب مشهدا زلزل نفوسهم واضطربت فيه أبدانهم، فهذه الزلزلة التي وقعت بهم تصوّر الحالة الشّموليّة من الاضطراب الداخلي والخارجي، جاءت بعد التفصيل في الآية السابقة ، ويدلّ هذا العموم بعد التفصيل على صعوبة الموقف وشدّة الابتلاء .**

([1]) لسان العرب: مادة بلا.

([2]) الأنبياء: 35.

المبحث الثاني: صورة المنافقين

❖ **المطلب الأول: صورة المنافقين في أقوالهم.**

❖ **المطلب الثاني: صورة المنافقين في أفعالهم.**

❖ **المطلب الثالث: تقبيح أفعالهم وأقوالهم.**

تحدّث القرآن الكريم عن المُنافقين في معركة الأحزاب مطوّلاً، فكانوا ظاهرين ومنتشرين ، ويمارسون نفاقهم علانِية، فكُشف الغطاء عنهم يوم الأحزاب، وظهر خور القلب وضعف العقيدة لديهم، فنطقت ألسنتهم بما كانوا يخفونه في قلوبهم، وكشفتهم أفعالهم وأقوالهم كشف العيان، وكانوا فارّين ومنسلخين عن المؤمنين، فعرضت الآيات مواقفهم المخزية، وأقوالهم الشنيعة.

❖ المطلب الأول : صورة المنافقين في أقوالهم .

بيّن القرآن المكنونات النّفسيّة وما يُضمره المنافقون في قلوبهم من خلال أقوالهم ، قال تعالى:

{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا } [1]

تفصّل الآية موقف المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ولكنَّهم يُخفون الكفر، والذين يتلوّنون في إظهار إيمانهم تارة، وإخفاء كفرهم وانسلاخهم عن المسلمين تارة أخرى ، فهم يعانون من مرض في قلوبهم ، فالإنسان السَّوي صاحب المبدأ والعقيدة السَّوية الصحيحة لا يتأرجح حسب هواه بين موجب وسالب ، فحرف العطف(الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ) يحمل دلالتين، الأولى: أن يكون المنافقون هم أنفسهم الذين في قلوبهم مرض والواو تفصل بين وصفين " والعطف لتغاير الوصف، كقوله: إلى الملك القرم وابن الهمام." [2] والدّلالة الثّانيّة: أن يكونوا فريقين: الأول: المنافقون، والثاني: الذين في قلوبهم مرض ، ومرض القلوب هو ضعف إيمان تتخلله الشكوك والشُّبهات والوساوس، قال الآلوسي: " ظاهر العطف أنّهم قوم لم يكونوا منافقين، فقيل: هم قوم

([1]) الأحزاب: 12-14.

([2]) الألوسي: روح المعاني.ج11، ص156.

كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشُّبهة عليهم، وقيل: قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام". [1]

وأميل إلى أنّه وصف للمنافقين أنفسهم ، لأنّهم يتقاطعون في القول والفعل والتفكير ومرض القلوب، فكان قولهم: { مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا }[2]، وهذا القول من أشنع الأقوال وأقبحها فيه أسلوب القصر، فهو نفي مرتبط بوعد من الله ورسوله ومحصور بصفة الغرور، فمن ينفي ويشكك بوعد الله ورسوله ويجعله باطلا وضربا من خيال، لا شكَّ أنه لا يملك من العقيدة إلا اسمها، والغرور كما جاء في لسان العرب: " الأباطيل."[3]

يصوّر قولهم مرض القلوب ونفاقها، والظنّ بالله ورسوله ظنّ السُّوء، فهم أبعد ما يكون عن الإيمان الذي يصحبه ثقة بالله وحسن ظنٍّ ورضا بقدره، ففي هذا المشهد ظهرت حقيقتهم فلم يستطيعوا إخفاء نفاقهم وجبنهم وانسلاخهم عن المؤمنين، فما نطقت به ألسنتهم في يوم الفزع انبثق من دواخلهم وما يفكرون به.

ونلاحظ أنّ مفردة (المنافقون) معرفة وجمع ، فهي معرفة للدَّلالة على تأصّل النِّفاق وتثبت صفته بهم، فأصبحوا ظاهرين لمن حولهم بأقوالهم، وزاد تعريفا بهم بقوله: { وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، والجمع فيها للدَّلالة على كثرتهم .

ومن الأحوال النّفسيّة التي يصوّرها ضمير المتكلم في قولهم: (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) التبّجح والتّعالي وكان هذا شاهدا على التزعزع الإيماني والنفاق الجماعي، وتقديم الضمير المتكلم للمنافقين في (وعَدَنا) على (الله ورسوله) يبين أن المنافقين هم محل الحديث ، ولأن نفيهم لوقوع وعد الله عليهم منسوب لهم دون غيرهم ، فلو قالوا (ما وعد الله ورسوله إلا غرورا) لاختلف المعنى ودلَّ وقوعه على كلِّ الفئات، ولكنّ كل حرف في كتابه –سبحانه وتعالى– وضع في موضعه فيه آيات محكمات، ليدلّ هنا على أن أراجيفهم ملتصقة بهم لا بغيرهم من المسلمين.

([1]) الألوسي: روح المعاني. ج11، ص156.

([2]) قال معتب بن قشير –وهو من المنافقين–: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر و لا نقدر أن نذهب إلى الغائط. الزمخشري: الكشاف.ج3، ص526.

([3]) لسان العرب .مادة (غر) .

أسلوب القصر بالنفي والاستثناء {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} يدلّ على نفي الخير عن وعد الله كليًا، وفي هذا انقطاع عن حسن الظنّ بالله والقبول بقضائه وقدره، وإنكار لفضل الله عليهم أن جعلهم مسلمين موحدين ولكل خير آخر، فنفوا الخير عن الله ورسوله، ونسبوا له الباطل حاشاه.

بعد أن وصف المنافقون وعود الله ورسوله بالباطل ، انتقلوا ليفسدوا صفوف أهل المدينة ويزعزعوا ثباتهم ويدسّوا السّم بألسنتهم ، فكان قولهم: { يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}، ويفضي رصد النسيج اللغوي إلى مجموعة من الدلالات التي تؤكد مرض المنافقين:

1. **الجمع في قوله تعالى :(طَائِفَةٌ مِنْهُمْ) : والطّائفة هي المجموعة ، وجاء في لسان العرب أنّها "المكوَّنة من اثنين فأكثر، والطائف: العاس في الليل" [1] ، فكانت هذه المجموعة الأولى من المنافقين، عبّر عنها –سبحانه وتعالى– بالطّائفة لدلالة معنوية تختص بهذه المجموعة دون غيرها من المنافقين، يطوفون ويدورون حول المسلمين، ولم يُذكر في كتب السِّيَر زمن قولهم هذا، ولكنّه في الغالب قد يكون في ساعات الليل يبُثّون فيهم الخوف ويربكونهم ويشتتون فكرهم، فاختير لهذه المجموعة هذا اللفظ لِدِقَّته في وصف فعلهم وقولهم، فأسهم السياق المعجمي في فهم المشهد ودلالة كلمة طائفة التي تتجاوز معنى المجموعة من الناس إلى معنى العاس في الليل، فرسمت مشهد الخبث الذي يبطنه المنافقون في بث الأراجيف بينهم في ساعات الليل التي يكثر فيها الوساوس والخوف بسبب الظلام. و"الطَّائِفَة فِي الأَصْل الْجَمَاعَة الَّتِي من شَأْنهَا الطوف فِي الْبِلَاد للسَّفر وَيجوز أَن يكون أَصْلهَا الْجَمَاعَة الَّتِي تستوي بهَا حَلقَة يُطَاف عَلَيْهَا ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى سميت كل جمَاعَة طَائِفَة."([2]) ، ولكن السياق الذي وردت فيه لفظة طائفة أضاف للمعنى المألوف دلالات تنسجم مع صفات المنافقين.**

([1]) لسان العرب. مادة (طوف).

([2]) العسكري، أبو هلال: الفروق في اللغة. ص278.

2. **النداء للبعيد في قولهم { يا أهل يثرب}[1] " وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بحرف نائب مناب أدعو" [2]، ونداؤهم بأهل يثرب دون المؤمنين أو المسلمين هو نداء فيه تغريب وانفصال عنهم، " إذ عدلوا عن الاسم – الذي وَسَمَها به النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– من المدينة وطيبة مع حسنه– إلى الاسم الذي كانت تُدعى به قديمًا مع احتمال قُبحه باشتقاقه من الثرب الذي هو اللَّوم والتعنيف إظهارا للعدول عن الإسلام" [3]، فهذا النداء نداء مكر مدسوس بالنوايا الخبيثة، وأفادت أداة نداء البعيد (يا) مع قربهم منهم هنا التحقير لأهل المدينة؛ ليرجعوا إلى المدينة وإحباطهم ليتركوا موضع الخندق.**

3. **نفي العموم بـ (لا) النافية للجنس في قوله تعالى: { لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا } فلا موضع قتال لكم، ولن تحققوا النصر(فارجعوا) يأمرونهم بالرُّجوع، فلم يكتفوا بتوليتهم الأدبار وخذلانهم للمسلمين، بل أرادوا أن يثبِّطوا عزائم المؤمنين في المعركة ويسببوا الهزيمة لهم، فحديثهم يلبسه النفاق والايقاع بالمسلمين. وعندما يصحب النِّداء أساليب أخرى لها تأثير قوي كالأمر تكون أشدّ وقعا وأثرا على النفس.**

4. **الفعل المضارع في قوله: { وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا } إشارة إلى أنّهم يُلِحُّون في الاستئذان ويكررونه [4]، وما هي إلا أعذار واهية يستخدمونها لينسحبوا من الجيش، وفي استخدام التّوكيد إلحاح منهم ودعوة إلى تصديقهم بتأكيد عورة بيوتهم، فتصوير البيوت وما فيها بالعورة المكشوفة على الأعداء يثير الغيظ والتوتر والخوف بين صفوف الجيش ، ولكن هذه العورة التي وَصفوا بيوتهم بها إنَّما وصفت دواخلهم وجبنهم، فقال تعالى : { وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ } تكذيبا لهم، ويؤكد ارتباط خبر(ما) المشبهة بـ(ليس بعورة) كذبهم ونفاقهم؛ فبيوتهم كانت**

([1]) المراد بالطائفة الذين قالوا : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه، وقال الأكثر: هو أوس بن يقظي أحد بني حارثة. ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج21، ص284.

([2]) دراز، صبّاح: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم. ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، 2015م، ص254.

([3]) البقاعي: نظم الدرر.ج15، ص306.

([4]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج21، ص285.

محميّة، فكان ادعاؤهم زيفا: { إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا } كشف الله عن مكرهم وخداعهم وحقيقة ما في نفوسهم، وأسلوب النفي يؤكِّد على حقيقتهم وبيان مقصدهم ونواياهم، فيصور موقفهم مع النبي –صلى الله عليه وسلم– جبنهم اللامتناهي وضعف نفوسهم، واستخدامهم لأسلوب الكذب ليفرُّوا من المعركة.

5. **يندرج ما تقدّم في ثنائية الإثبات والنفي في قوله تعالى: { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} فالإثبات جاء جملة خبريّة مؤكدة ب(إنَّ)، والنفي جاء مؤكدا بالباء في خبر(ما) فالمنافقون حرصوا على إثبات الباطل (عورة بيوتهم) والردّ الرَّباني جاء منافيا لما أراد المنافقون إثباته، ليصوّر موقف المراوغة ، ووهن العقيدة.**

6. **دلالة الفريق والطائفة: سبق أن وصف سبحانه وتعالى مجموعة من المنافقين بالطائفة (وإذ قالت طائفة منهم) وكان الوصف بالطائفة يناسب القول والفعل الذي أتى بعده ، فكانوا يطوفون حول المسلمين حين قالوا: { يَا أَهلَ يَثْرِب لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارجِعُوا} وهذا الطواف فيه مكر بالمسلمين، أمّا المجموعة الثانية فوصفها بالفريق(ويستأذن فريق منهم) والفريق أيضا مجموعة ولكنه مشتق من (فرق) أي الفرقة والانفصال، الفريق: الطائفة من الشيء المتفرق [1] وتناسبت هذه اللفظة مع قولهم وفعلهم –أيضا– لافتراقهم وتفرقهم عن المسلمين وانسحابهم من أرض المعركة والمسلمون في أشد الحاجة لهم.**
7. **يجسّد أسلوب الالتفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب في قوله تعالى: { يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ }، فهم قالوا (بيوتنا) أمّا –سبحانه وتعالى– فذكر بيوتهم بضمير الغائب (هِيَ)، فلماذا لم يقل (وما بيوتهم أو بيوتكم بعورة)؟ فلمّا قالوا بيوتنا نسبوا الحديث إلى بيوتهم، ولم ينسبوا سبب التخلف عن الجهاد إلى أنفسهم لكيلا يظهر جبنهم وتقاعسهم، فتمس كرامتهم ورجولتهم، وعندما ذكر –سبحانه وتعالى– بيوتهم قال :(هي) بضمير الغائب؛ لغياب صفة العورة عنها أولا، واستعلاءً منه سبحانه وتعالى عن ذكر بيوت المنافقين الذين يضمرون الكفر؛ ولأن البيت سكن وراحة وسُترة وعز**

([1]) لسان العرب. مادة(فرق).

للإنسان، فهم عندما جعلوا بيوتهم عورة أزالوا عنها هذه الصفات، فعندما نفى –سبحانه وتعالى– صفة العورة عن بيوتهم، لم يذكرها بلفظ البيت الذي هو سكن وعز .

8. أفادت جملة الشرط: { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} تأكيدا على تكذيبهم وضعف نفوسهم ، فلو عُرضت عليهم الرّدة لقبلوها مسرعين غير متردّدين ، فهذه الصورة ترسم الوهن والضعف لدى المنافقين .

9. أسلوب القصر في وقوله: { وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} يثبت انكسارهم وخذلانهم ونفاقهم، ويدفع الشّكّ بأمر نفاقهم وقتالهم مع المؤمنين؛ لأنَّ أسلوب القصر بـ (ما وإلا) يكون لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، وفي ذلك ذم لهم ولأقوالهم ، ووصف لجبنهم ، فإن طلب منهم الكفر فعلوا، وما تمسكوا بالإيمان ،إلا يسيرا وهذا القدر اليسير في النهاية قد يتهاوى وينعدم .

10. الثنائية الزّمَنيّة في الفعلين المضارع(يقول)، والماضي (قالت) يدُلّ على ديمومة الحدث الكلامي ، فتوالت الأفعال (يقول) و(قالت) و(يقولون) دلالة على أنَّ نفاقهم ظهر قبل المواجهة وخلالها، وفتنتهم مستمرة لا تتوقف.

11. التناوب بين العموم والخصوص، فالمنافقون عموم، والطائفة خصوص، فهما يشتركان في أمر النفاق بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، ويفترقان في أمر الفتنة العلنيّة فكان منهم طائفة يثبطون المؤمنين ويوسوسون لهم بالقول الظاهر والفعل الظاهر بانسحابهم من جماعة المسلمين.

❖ المطلب الثاني: صورة المنافقين في أفعالهم

أشار القرآن الكريم في معركة أُحد إلى المنافقين الذين كادوا أن يفشلوا وينسحبوا كما في قوله تعالى:{إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}[1]، وجبنوا ثم تابوا وعاهدوا النبي –صلّى الله عليه وسلم– أنّهم لا يولون الأدبار في غزوة بعدها[2]، فذكّرهم الله سبحانه وتعالى بعهدهم، وواجههم مواجهة عنيفة بفعلتهم يوم الأحزاب ونقضهم للعهد، قال تعالى:

{ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } [3]

أفضى النسيج النحوي واللغوي إلى مجموعة من الدلالات التي أسهمت في رسم صورة المنافقين وبيّنت أفعالهم:

جاء وصف عهد المنافقين بجملة خبرية مؤكدة بمؤكدين(اللام ، وقد)، ويشتمل الفعل (كانوا) على دلالة توكيد أخرى؛ لأن دلالة الماضي تفيد الحدوث والثبوت في قوله تعالى: { وَلَقَدْ كَانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْل}، إنّ التوكيد بنوعيه يُضمر عتابا وتعريضا بالمنافقين الذين نقضوا العهد، ومواجهتهم لكشف ما في صدورهم، فتجدد موقفهم ، وتجددت الحوادث ليظهر بذلك التواء طباعهم ونفاقهم المتأصل، فإن تولّاهم الله وعفا عنهم وثبّتهم يوم أُحد فاليوم كشفهم وفضح زيفهم.

والعهد: الموثق واليمين الذي يحلف به الرجل [4]، وسبقت بحرف التحقيق المقترن بلام التوكيد؛ لتأكيد وقوع الأمر وبالتالي وجوب العاقبة عليهم، وتولية الأدبار كناية عن الفرار من الزحف، والانهزام فإن الفار يولي دبره لمن فر منه، وكان عهد الله مسؤولا عن الوفاء به مجازي عليه وذلك يوم القيامة، وقيل: أي كان عند الله تعالى مسؤولا عن الوفاء به أو مسؤولا مقتضى حتى يوفى به." [5]

([1]) آل عمران:122.

([2]) ينظر: البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1418 هـ ، ج4، ص227.

([3]) الأحزاب:15-17.

([4]) لسان العرب.مادة (عهد).

([5]) الألوسي: روح المعاني.ج11،ص159.

وتلاحظ وجود الفعل الناقص(كانوا) بين حرف التّحقيق والفعل الماضي (عاهدوا) في قوله: (كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ)، فلماذا أتى بالفعل الناقص ولم يقل (لقد عاهدوا) مباشرة؛ لأنّ الفعل الناقص (كان) يدل على استغراق مضي الزمن، فهم عاهدوا في معركة أحد، ولم يعاهدوا في معركة الأحزاب أو قبل بدايتها، والتّفريق بين حرف التحقيق وفعل العهد والبعد بينهما يُضعف تحقّق الفعل وهذا ما كان فعلا، فهم نقضوا العهد وأفسدوه. وجيء بالفعل الماضي(عاهدوا) لانقضاء زمنه ووقوعه، أمّا (يولون) فجاءت بالزمن المضارع؛ لاستمرارية توليتهم الأدبار ونقضهم للعهود.

المقابلة بين الفعل (عاهدوا) المسند للمنافقين، والمصدر(عَهْدُ)(وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا) المضاف لرب العالمين، تشير إلى خطورة نقض عهد الله، وفيه أسلوب تهديد ووعيد وتنكيل بفعلتهم، والتشديد على أهمية الوفاء بالعهد، ونفاق من ينقضه.

تُفضي كثافة التأكيد على الزمن الماضي في قوله تعالى:{ كانُوا عَاهَدُوا الله مِنْ قَبْل}، بتوالي فعلين ماضيين، وظرف زمن ماض، إلى ربط الأحداث الماضية بالحاضرة، وبيان المفارقة بين الأفعال والأقوال، واستحضار الأحداث السابقة بكل مكنوناتها ومشاعرها؛ ليُحمّلهم عتابا ولوما على فعلتهم، ويكشف عن بشاعة فعلتهم في هذه المعركة.

تقدّم جواب الشّرط على فعله في قوله تعالى :{ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ}؛ للتّنبيه على عاقبة الفرار ونقض العهد، والتقديم هنا تقديم عناية للتّأكيد على أمر فرارهم من المعركة خوفا من الموت، فقدّم { لن ينفعكم الفرار} لمخاطبة النفس والعقل لتدرك ، إذ لا مفر من أمر الله وقدره، فلا حامي لكم من الموت أو القتل أحد، فإنه واقع عليكم لا محالة. وذكر لهم الموت والقتل، أما الموت فأعم والقتل أخص منه، فهم إن كانوا خائفين من القتل في المعركة، فذكرهم بالموت الذي قد يكون بلا قتال، فهو حق عليهم لا فرار منه. وجاء أسلوب القصر في قوله تعالى: { وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} تأكيدا لهم على متاع الدنيا الزائف القليل.

خرج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي في قوله تعالى :{ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً} والمعنى المجازي للاستفهام هو النّفي، والنّفي بالاستفهام أكثر تأثيرا على المنافقين من النّفي الصريح؛ لأنّه يجعلهم يجيبون في أنفسهم عن الحقيقة التي علموها ولم يعملوا بها، عاشوها يوم أُحد ونجّاهم الله يومها وثبّتهم، وكرروا

فعلتهم يوم الأحزاب، فلا يدرون ما يصنع الله بهم، فترى ملامحهم يتدفق منها الخوف والفزع من مصير الموت المحتوم، ومن مصير مجهول بعقاب قد يُوقِعه الله عليهم، إذ يُضمر الاستفهام معنى الوعيد والتّهديد، فتتسارع نبضات قلوبهم جبنا؛ لأنّها الصّفة التي لا تنفك عنهم، يخشون أرض الوغى، وجزاؤهم قد يكون أعسر مما قد رأوه فيها. والنّفي في قوله: { وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} ؛ للتّأكيد على أنّه لا عاصم لهم من الله أحد، فيحضّهم على الطّاعة، والابتعاد عن المعصية.

الطّباق بين الرّحمة والسّوء في قوله تعالى: { إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً} يفتح مجالا للتّوبة والعودة إلى الرشاد، فالأصل أنّهم يعذَّبون لفعلتهم، وقدَّم السّوء هنا على الرَحمة؛ لأنّها الأجدر بهم على فعلتهم، وجعل الرحمة بعدها في حال توبتهم.

تجسّد الآيات حوارا بالفعل المكرر (قُل) بين طرف حاضر وهو الرسول –صلى الله عليه وسلم، وطرف غائب وهم المنافقون، والمتلقي يستحضر مشهدا حواريا يكشف عن الأبعاد النفسيّة لصورة المنافقين فتراهم يائسين، يتلقّون قول الله تعالى وهم في ذهول، بعد أن فُضح أمر نقضهم للعهد أمام جمع المسلمين. وقد عفا عنهم الله وثبّتهم يوم أُحد، فما مصيرهم يوم الأحزاب بعد نقضهم العهد؟ وقد جاءت مواجهتهم بفعلتهم عنيفة تحمل تهديدا ووعيدا، تكشف صورة ملامحهم وخذلانهم تراهم نادمين ومذعورين أمام حقيقة الموت الذي لا فرار منه، وخجلين من جبنهم الذي ظهر للعيان للمرة الثانية.

❖ المطلب الثالث: تقبيح أفعالهم وأقوالهم.

قال تعالى:

{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا } [1]

يؤكد سبحانه وتعالى علمه بأولئك المتخاذلين المنسحبين المفسدين من المنافقين، ووصف أفعالهم ، وشنّعها، ووصف حالتهم النفسية والوجدانية والفكرية ، يقول سيد قطب: يرسم لهم صورة نفسية مبدعة تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكروه في الناس، صورة للجبن والانزواء والفزع والهلع في ساعة الشدة ، والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء، والشح على الخير والضن ببذل أي جهد فيه ، والجزع والاضطراب عند توهّم الخطر من بعيد. [2]

أسهمت التراكيب النحوية في تصوير المنافقين وبيان بشاعة أفعالهم وأقوالهم على النحو الآتي:

1. **توكيد الفعل المضارع بـ (قد) في قوله تعالى:{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ} وهو ما يسمى العدول، نعلم أنّ الحرف (قد) إذا اتصل بالفعل المضارع يفيد التشكيك أمّا إذا اتصل بالماضي فيفيد التحقيق، فلماذا اتصل حرف التحقيق هنا بالفعل المضارع؟ إنَّ المعنى يفيد حدوثه في الماضي فيكون بمعنى قد علم الله المعوّقين منكم ، إن اتصاله بالفعل المضارع يدلّ على استمرارية علمه –سبحانه وتعالى– وعدم انقطاعه، فيؤكد علمه سبحانه وتعالى بالمرجفين والمُخَذِّلين من المنافقين، فحرف (قد) هنا حرف تحقيق وتأكيد " والتّحقيق هنا أتى من موضوعها وهو علم الله سبحانه وتعالى ، لا من ذاتها" [3] ، فانصرف المضارع إلى الماضي " ذكر بعض النحويين أن مما يصرف المضارع إلى**

([1]) الأحزاب:18–20.

([2]) ينظر : قطب، سيد: في ظلال القرآن.ج5، ص 2840.

([3]) عابد، محمد: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول– صلى الله عليه وسلم–. ص464.

الماضي (قد) في بعض المواضع" [1]، إذ إن " (قد) للتّحقيق لا للتّقريب ولا للّتقليل وفائدة ذكرها التّأكيد والمضارع هنا بمعنى الماضي".[2]

2. **يفيد المفعول به في قوله تعالى: { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المعوّقين منكم} إلى الكشف عمَّن يسعون إلى التخذيل في صفوف الجماعة المسلمة، واستخدام لفظة المعوِّقين يدلّ على قصدهم خذلان المسلمين وتثبيطهم، فالتّعويق كما جاء في لسان العرب تربيث الناس عن الخير [3]، وفيه تكثير ومبالغة وشدّة، وجاءت معرفة لعلم الله المطلق بهم ، وللتّعريف بهم وفضح أراجيفهم.**
3. **يفيد أسلوب العطف في قوله تعالى: {المعوقين منكم وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا } اشتراك المعوِّقين والقائلين بصفة الكفر وتثبيط عزيمة المسلمين. ويجوز أن يكون القائلون لإخوانهم (هلم إلينا) هم المعوِّقون أنفسهم، فيكون من عطف صفات الموصوف الواحد، ويجوز أن يكونوا طائفة أخرى وإخوانهم هم الموافقون لهم في النفاق[4]، وقد يكون المراد بالإخوة " الصحبة والجوار وسكنى المدينة وما يجامع الأخوة في النسب، وظاهر صيغة الجمع يقتضي أن الآية نزلت في المنافقين القائلين ذلك ، والأنصار المخلصين المقول لهم، وجواز كونها نزلت في جماعة من الإخوان في النسب مجرد احتمال وإن كان له مستند سمعي فلتحمل الأخوة عليه على الأخوة في النسب ولا ضير.[5] فهم يسعون إلى نشر الفتنة بين المسلمين وتثبيط عزائمهم ، بأن يقولوا للمسلمين أقبلوا إلينا، واستخدام كلمة (هلُّم) دون غيرها،" فهو مركب من ها التي للتنبيه ولم "[6] ، وهو أخف في النطق في ساعة القتال من قولهم: أقبلوا، وفي الهاء تنبيه وتحذير للمسلمين أن أقبلوا إلينا لئلا تقتلوا، فهم يريدون النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– أن يقاتل وحده.**

([1]) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط .ج2، ص21.

([2]) عُضيمة، محمد عبد الخالق: دراسات لأسلوب القرآن الكريم. تصدير: محمود شاكر، دار الحديث، القاهرة، د.ت، ج2، ص302.

([3]) لسان العرب. مادة (عوق).

([4]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج21، ص294.

([5]) ينظر: الألوسي: روح المعاني. ج11، ص161.

([6])الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط.ج8، ص463.

4. **وصفت جملة الحال في قوله تعالى: { وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} جبنهم وضعفهم في نصرة الحق حفاظا على أرواحهم، فكانوا لا يشهدون الجهاد إلّا قليلا، دفاعا عن أنفسهم لا دفاعا عن شريعتهم، " يخرجون مع المؤمنين، يوهمونهم أنهم معهم، ولا نراهم يقاتلون إلا شيئا قليلا إذا اضطروا إليه، كقوله: ما قاتلوا إلا قليلا. وقلّته إما لقصر زمانه، وإما لقلّة عقابه، وإنّه رياء وتلميع لا تحقيق."[1]**
5. **يؤكد الابتداء بالحال (أَشِحَّةً) بشاعة صفاتهم ووصف حال المنافقين في حضور المؤمنين، والشُح أشدُّ البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل؛ وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها، والشُح عام؛ وقيل: البخل بالمال، والشُح بالمال والمعروف [2] ، فكان شُحهم عاما لكل ما فيه منفعة للمؤمنين، وفي استخدام لفظة (أشحة) الدّالة على الجمع بأقل الحروف دون (أشحاء) دلالة أكبر ومبالغة أكثر على شحهم .**
6. **تختزل جملة الشرط دلالات لغة الجسد للمنافقين في قوله تعالى : { فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} تكشف عن صورة شاخصة واضحة تُبيّن موقف المنافقين وتكشف الحالة النفسيّة والسلوكيّة المتذبذبة لهم في حالتي الخوف والأمن، مما تثير السخرية منهم. وترى التّعبير القرآني يصوّر الخوف وكأنّه شخص قد جاء إليهم، إنَّما هو كناية عن ما وقع في نفوسهم من رؤيتهم للأحزاب مجتمعين، واتضحت لغة الجسد في سياق الخوف لدى المنافقين، فحين الخوف(تدور أعينهم) يقول عمر عتيق:" وهو موقف صامت، تقوم العينان بالوظيفة التعبيرية النفسية، ولأن دوران العينين يحتمل دلالة مختلفة غير الخوف، نحو: الترقب والحيرة والتدبر والرفض والتشكيك...الخ فقد جاء تشبيه دوران العين (كالذي يغشى عليه من الموت) لتحديد معنى الخوف دون غيره من المعاني الأخرى" [3] فشبه دوران عيونهم كدوران عيون من يغشى عليه من الموت ووجه الشبه شدة الخوف والفزع، والتشبيه يرسم المشهد ويثبت معانيه في الذهن، إضافة إلى سحر البيان وتأثيره في النفوس، يقول الرازي في تفسيره: " إذا ذكر المعنى**

([1]) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط . ج8، ص463.

([2]) لسان العرب.مادة (شحح).

([3]) عتيق، عمر: لغة الجسد في القرآن الكريم. ص86.

وحده أدركه العقل، ولكن مع منازعة الخيال، وإذا ذكر معه التشبيه أدركه العقل مع معاونة الخيال، ولا شك أن الثاني يكون أكمل"[1]

صورة نفسيّة مجسّمة في حركة حسّيّة، وهي دوران العيون من شدّة الخوف والفزع، ثم قورنت هذه الحركة بحركة العيون عند سكرات الموت، لرسم منتهى الفزع وذروة الخوف، واعتماد الصّورة على الفعل المضارع (تدور) يجعلها حاضرة شاخصة، وكأنّنا نرى حركة العيون وهي تدور يمينا وشمالا، بحركة مثيرة للسُّخرية والضّحك، وهي حركة مشابهة لحركة العيون عند الموت، عندما يفقد الإنسان السَّيطرة على أعصابه، فيظهر ما في نفسه من خوف على عينيه دفعة واحدة، فتدور في حركة سريعة مضحكة.[2] فالتّشبيه في {تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت} تمثيلي؛ لأنّ وجه الشبه منتزع من متعدد. وجاء الفعل (يُغشى) مبنيا للمجهول ، دلالة أن الموت بيد الله وأمره، فهم لا يجلبونه ولا يدفعونه. إنما مروا في الحالة نفسها التي يمر فيها الميت ليعلموا أن الموت أقرب إليهم مما يظنّون، ولعلهم يتّعظون، ولكنّهم أصروا على نفاقهم وخذلانهم.

لجأ المنافقون إلى التّعبير عن تذمرهم من أمر الجهاد بالعيون، فلو اعترضوا بالقول لكشف أمرهم ، فقد أخفوا ما في أنفسهم وفضحتهم لغة عيونهم.[3] أمّا حين ذهاب الخوف (سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ) فهذا الموقف يجسد سلوك المنافقين وتبجحهم، فما يستطيعون فعله هو التّنظير والتّقوُّل بأبشع صوره، فوصف سبحانه وتعالى حديثهم مع المؤمنين بالسَّلق، والسَّلق كما جاء في لسان العرب رفع الصوت، وسلقه بلسانه يسلقه سلقا: أسمعه ما يكره فأكثر، وسلقه بالكلام سلقا إذا آذاه، وهو شدة القول باللسان[4]، "بألسنة حداد"؛ لأنّه حديث مؤذ لاسع جارح، يثير الفتنة والتشكيك، يدل على بشاعة ما ينطقون وما يبطنون. و الاستعارة مكنية {سلقوكم بألسنة حداد} شبّه اللسان بالسّيف المصلت وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية، ولفظ {حداد} ترشيح يلائم المشبه به .

([1]) تفسير الرازي. ج1، ص155.

([2]) راغب، عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن .ص247.

([3]) ينظر: عتيق، عمر: لغة الجسد في القرآن الكريم. ص86.

([4]) لسان العرب : مادة سلق.

يقول سيد قطب: " فخرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة، ونفشوا بعد الانزواء"[1]

ففي حالة الخوف والفزع تراهم صامتين تعبر عنهم أجسادهم وتنطق بما لا ينطقون، فهم بذواتهم لا يستطيعون النطق ، وكأن مناطق الإدراك لديهم من شدة الفزع تجمدت، أما في حال الأمن فتنطق ألسنتهم وهم يدركون ما يقولون ، فتوافقت أفعالهم وأقوالهم في حالة الإدراك وعدمه.

ما تقدم يشكل أسلوب مقابلة بين موقفين للمنافقين ويكشف عن طبائع النفس الإنسانية بأدنى صورها التي يصاحبها بخل في تقديم الدعم النفسي والمادي في القول والفعل، والجبن والانخذال والخوف في الدفاع عن الحق، وتبجح ومبالغة في ردة الفعل وإلقاء اللوم على الآخرين.

وينبغي الإشارة إلى الحركة البصرية للمؤمنين حين رؤيتهم للأحزاب: {وإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}[2] ، ونظرات المنافقين حين رأوا الأحزاب {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [3]

ففي وصف حالة المؤمنين قال تعالى: (زاغت الأبصار)؛ أي مالت عن مكانها كما يعرض للإنسان عند الخوف[4] ، والبصر إدراك العين وحسّها، والبصر: نفاذ في القلب. وبصر القلب: نظره وخاطره [5]، وفي وصف حالة المنافقين ، قال تعالى : (تدور أعينهم)، ولم يقل تدور أبصارهم لانعدام صفة الإدراك والحس الحقيقي لديهم ، فالمتأمل باللفظتين يجد أنّ زيغ البصر عند المؤمنين أي انحرافه يمينا ويسارا كان لدهشة وتعجب مما نتج عن هذه الرؤية من خوف جعل القلوب وكأنها تستقر مكان الحناجر وتضيّق بهم السُّبل، أمّا المنافقون فتلاحظ الحركة الدائرية لأعينهم (تدور أعينهم) وفي دورانها دلالات عدّة، منها تفكير يدور في أذهانهم ويرتسم في نظراتهم، أنّها تدور بحثا عن ثغرة تمكنهم من الفرار والهروب من المعركة، فشمل دوران العين وجفونها وكل ما فيها وما يتصل بها من فكر وحركة واضطراب و إشعار بالإغماء والموت .

([1]) قطب، سيد: في ظلال القرآن.ج5 ، ص 2840.

([2]) الأحزاب:10.

([3]) الأحزاب:19.

([4]) لسان العرب. مادة (زيغ).

([5]) لسان العرب.مادة (بصر).

يتجلّى مما تقدم أنّ دلالة النّظرات مرتبطة بالحركة التّعبيرية للعين، فإذا كانت الحركة غمزا فإنّ الدلالة سخرية واستهزاء، وإذا كانت اتساعا وضيقا في حدقة العين، واضطرابا في زاوية النظر فالدلالة تشاور واتفاق على الهرب من المكان.[1] فمن كان وقع رؤية الأحزاب عليه أكبر المؤمنين أم المنافقين؟

7. **تقرر الجملة الاسمية حال المنافقين وعقابهم في قوله تعالى : {أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} فقد أحبط الله أعمالهم ، والحبط في قولهم: حبطت الدابة حبطا، إذا أصابت مرعى طيبا فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت، وإذا عمل الرجل عملا ثم أفسده قيل حبط عمله [2] ، فأحبط الله أعمالهم وأبطلها بعد أن كانت في ظاهرها صالحة، وبعد أن كشف الغطاء عن نواياهم تبيّن فساد سريرتهم ففسدت أعمالهم، والفاء توضّح سبب إحباط أعمالهم، فهم مهما فعلوا من أمور ظنّوها خيرا لهم قد أحبطت؛ لأنّهم فقدوا الأساس لقبول الأعمال وهو الإيمان، فنفاقهم لن ينفعهم في الدنيا ولا الآخرة .**
8. **توضح الجملة الاستئنافية في قوله تعالى: {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} الحالة النفسيّة والشّعوريّة للمنافقين، فهم مرتعشون متخاذلون لا تستطيع عقولهم ولا قلوبهم التّصديق بأنّ الأحزاب قد ذهبوا وحلّ الأمان، فتتمثل الصورة من جديد لتصف ضعفهم وهوانهم ، فترسم موقفا يثير السخرية لما كانوا عليه من جبن.**
9. **يكشف أسلوب الشّرط عما يُضمره المنافقون في قوله تعالى ١: { وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ } فأمنيتهم ألا يكونوا معكم في القتال ، إنّما يتمنون لو أنّهم من الأعراب لا من أهل المدينة ، يتمنون لو أنهم أغراب يسألون عن أحوالكم من بعيد " مبالغة في البعد والانفصال والنجاة من الأهوال" [3]، والجملة الشرطية تكشف عن الرغبات الدفينة للمنافقين وعداوتهم للمسلمين ، ففي المحنة يتمنون لو أنّهم من أهل البادية ينظرون إليكم ويتحسون أخباركم ولا ينصرونكم.**

([1]) ينظر: عتيق، عمر: لغة الجسد في القرآن الكريم. ص85.

([2]) لسان العرب. مادة (حبط).

([3]) قطب، سيد: في ظلال القرآن. ج21، ص2841.

10.تُعزِّز جملة الشرط دلالة الكشف عن نوايا المنافقين في قوله تعالى : { وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا }، فلو وقعت المعركة لرأيتهم من القاعدين لا يجابهون العدو إلا قليلا، والاستثناء هنا ليست مشاركتهم في القتال من أنفسهم إنّما تماشيا مع الحاجة إلى الدفاع عن النفس، وتكرر أسلوب القصر في سياق النص في المعنى نفسه { وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا } تأكيدا على جبنهم وانسلاخهم عن المؤمنين.

المبحث الثالث: موقف المؤمنين

صوّر الله –تعالى– غزوة الأحزاب، وقعود المنافقين عنها، وتثبيط العزائم، فأمر المؤمنين بالاقتداء بالرسول الكريم في صبره وثباته، وتضحيته وجهاده . وكان رسول الله –صلّى الله عليه

وسلم- الأُسوة الحسنة والقدوة الأعلى ، فهو مصدر الأمان والثقة بالله والاطمئنان على الرغم من الفزع والضيق والكرب، فكان عليه الصّلاة والسّلام القائد المتعاون المُبَشِّر بالنَّصر والفتح، قال تعالى:

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا }[1]

يتجلّى الاقتداء بالرّسول عليه الصّلاة والسّلام والتّأسِّي بأخلاقه في هذه الآية من خلال رصد شبكة العلاقات النحوية الدلالية الآتية:

1. **أسلوب التوكيد بحرف (قد) المقترن باللام الواقعة في جواب قسم محذوف الذي يفيد التّثبيت واليقين بأنّ الرّسول -عليه الصّلاة والسَّلام- هو الأُسوة والقدوة الذي يجب اتباعه والتأَسِّي به، وهذا الخطاب فيه معنيان، الأول: خطاب للمؤمنين للتّأسي بالرّسول عليه الصّلاة والسّلام، والثاني: توبيخ لمن لم يتَّخذ الرسول أُسوة له من المنافقين، " فلذلك أتي بالضمير مجملا ابتداء من قوله (لكم)، ثم فصل بالبدل منه بقوله: (لِمَنْ)؛ أي: بخلاف لمن لم يكن كأولئك" [2]**
2. **جاء النّعت (حسنة) مخصصا ومحددا لنوع القدوة؛ لأنّ للفظ المنعوت دلالتين متناقضتين, فإنّ النّعت يلازمه ليخصصه ويبين نوعه, إذ إنّ عزل النّعت عن المنعوت يقدح في معنى السّياق؛ لأنّه قد يعرض دلالة المنعوت إلى الدلالة غير المقصودة. فقد لازم النعت (حسنة) المنعوت (أسوة) في ثلاثة مواضع[3], فالمنعوت يحتمل معنيين متباينين؛ لأن "الأسوة والأُسوة كالقدوة والقُدوة, وهي الحال التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره, إن حسنا وإن قبيحا, وإن سارا وإن ضارا" [4].**
3. **التّقديم والتّأخير: في اسم كان وخبرها { كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} تقدّمت (لكم)؛ لأنّه أسلوب خطاب، ولتقديمها وقع أكبر للنفوس وجذب الانتباه لتلقي ما بعدها.**

([1]) الأحزاب: 21.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج21، ص 302.

([3]) الأحزاب: 21 \ الممتحنة: 4،6.

([4]) الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن. ص76.\ وينظر : عتيق : عمر : ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم . ص126.

4. **يفيد حرف الجر(في) الحرص على الاقتداء بالرّسول –عليه الصّلاة والسّلام– ؛ أي في أفعاله وأقواله وصفاته ظاهرها وباطنها، فما يمكث في القلب تُظهره الجوارح. وفي وصف الأسوة بأنها أسوة حسنة، إشارة إلى أن هناك أسوة سيئة، يقوم على رأسها كبير من كبار المنافقين، يدعو إلى النكوص على الأعقاب والفرار من مواجهة الأحزاب.** [1]
5. **البدل في قوله تعالى: { لِمَنْ كَانَ يَرْجُو} (لمن) بدل من (لكم) وهو بدل اشتمال؛ لأنّ من كان يرجو الله واليوم الآخر هم جزء من المخاطبين ب (لكم)، فهنا اتّضحت صورة الشخص المقتدي بالرسول الكريم، فهو من كان يرجو لقاء الله ويرجو الآخرة لا الدنيا، ويذكر الله على الدوام. و يفيد الأخذ بهذه المعاني والأفعال، واتخاذها منهجا وطريقا، فلا ترجو من الدّنيا سوى التقرب من الله.**

كان الرسول –عليه الصلاة والسلام– الأسوة الحسنة في أقواله وأفعاله في معركة الأحزاب وغيرها، يبدأ بنفسه في قتال المشركين، ولا يدعو للقتال وهو بعيد عن المعركة، فشارك الرسول –صلى الله عليه وسلم– في حفر الخندق، وحمل التراب معهم وكسّر الصّخر بيديه الكريمتين، وصبر على الجوع حتى ربط الحجر على بطنه، ليرفع من معنوياتهم ، فتعدّى دوره من القائد المخطط المسيّر للمعركة، والمرتب للصفوف إلى دور الجندي المساعد الصابر المشجع والمحفز والمؤثر في النفوس في أقواله وأفعاله.

يظهر تأثر المؤمنين برسولهم الكريم يوم الأحزاب، فتعلّموا منه الحلم والصبر وحسن الظنّ بالله، فلم يهنوا عند اشتداد الكرب والخوف، بل صدّقوا وعد الله لهم، وثبتوا ثبات المتيقن من النصر، قال تعالى:

([1]) الخطيب، عبد الكريم: التفسير القرآني للقرآن.ج11، ص678.

{ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [1]

ترسم الآيات صورة المؤمن المطمَئن الواثق بنصر الله ، يواجه الأعداء بقلوب يملؤها الإيمان والطمأنينة بأنّ الله لن يخذلهم وسينصرهم على الرغم من الكرب وأعداد الأحزاب الضخمة والفزع، إلا أنّ صلتهم بالله لا تنقطع ، فهم ثابتون بثبات عقيدتهم، ويظهر ذلك من خلال العناقيد النحوية واللغوية الآتية:

1. **يفيد ظرف الزمان (لمّا) استرجاع الحالة الزمنية التي ذكرها الله في الآيات السابقة ، وإقامة المفارقة بين حال المؤمنين حين رؤيتهم للأحزاب وحال المنافقين كذلك ، فالتصديق وحسن الظن بالله هو الفارق، وحسن الظن لا يكون إلا بحسن الإيمان . فقال المنافقون { مَا وَعَدَنَا الله ورَسُوله إِلَّا غُرُورَا}، وقال المؤمنون في الموقف نفسه { هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}. فيصوّر ردة فعل المؤمنين حين رأوا الأحزاب كانوا في موقف مزلزل ومهيب إلا أن قولهم كان في غاية الأدب مع الله ورسوله، فهم صدّقوا نبيهم وآمنوا بما وعدهم ربهم من اشتداد الكرب ومن ثم النصر المبين.**
2. **تظهر العلاقة التكاملية بين الفعل (وعد) والفعل (صدق) ، فالوعد إيمان ينبع من انتظار واثق ، والصدق تصديق وإثبات يتبع زيادة في الإيمان والتسليم ، فيرسم بذلك اتّزان النفوس وثباتها وتسليمها لقضاء الله مهما اشتد الكرب.**
3. **الإطناب بتكرار الاسم الظاهر(الله ، رسوله) في قوله تعالى: { هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } يفيد التشريف والتعظيم، وفي ذلك ردا على المنافقين الذين كذبوا وعد الله ورسوله وقالوا { ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا} ، فجاء الوعد وصِدق الوعد كلاهما مقرونان باسم الله ورسوله تثبيتا وتأكيدا وتعظيما لهما.**
4. **أسلوب القصر في قوله تعالى:{ وَمَا زَادَهُم إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيْمًا} يتضّمن معنى الزّيادة في الإيمان عند تحقّق الوعد، فلما رأوا الأحزاب استرجعوا في ذاكرتهم وعد الله ورسوله، فصدقوه وثبتوا وجاهدوا مطمئنين مؤمنين بنصر الله لهم، على عكس المنافقين لما رأوا الأحزاب كذبوا وعد الله وارتابوا بنصر الله للمؤمنين.**

([1]) الأحزاب: 22.

5. يدلّ فعل الرؤية البصرية (رأى) (رَأَى الْمُؤْمِنُونَ)على عزيمة المؤمنين الذين لم تخيفهم جيوش الأحزاب ، ولم تضعضع موقفهم وإيمانهم، وهم إن فزعوا وزلزلوا في مواقف الحرب لطبيعتهم البشرية ، إلا أنهم استرجعوا قواهم المستمدة من قوّة إيمانهم بالله ورسوله، ويقينهم بنصر الله لهم، وتشكّل هذه الصّورة ثنائية مع صورة المنافقين الذين مَلأ الرعب قلوبهم لنفاقهم وعدم تحقق الإيمان في قلوبهم مما دفعهم للفرار من المعركة.

جاءت هذه الآيات لتؤكد المعنى الحقيقي للإيمان الذي يترجم بالأفعال والأقوال، ولعلّ الصّفة التي تميّز المؤمن في هذه الآية حسن الظنّ بالله ، وتصديق وعده تصديق المطمئن الواثق بالله، وعندما ذكر الله –سبحانه وتعالى– صفات المؤمن هنا، سبقها بوصف مواقف المنافقين التي تنافي الإيمان، وإنما الشيء يثبت ويحسن بذكر ضده.

ويتوالى وصف المؤمنين في قوله تعالى :

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } [1]

فهذه الصّورة المشرقة للمؤمنين تُكمل صورة الإيمان، مقابل صورة النفاق، " فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ مَعَ بَقِيَّةِ آيِ السُّورَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ فَهِيَ تَذْكِيرٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ، وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ يَوْمَ أُحُدٍ فَمَوْضِعُهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِنَّمَا هُوَ بِتَوْقِيفٍ مِنَ النَّبِي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَهُوَ تَنْبِيهٌ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَلَى تَقْدِيرِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ مَعَ سُورَةِ الْأَحْزَابِ" [2]

وصف سبحانه وتعالى المؤمن الحق ، ليرتسم المعنى في قلوب المؤمنين جميعا، وأسهمت في ذلك مجموعة من العلاقات النحوية واللغوية الدلالية الآتية:

1. حرف الجر «من» للتبعيض أي بعض المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم الذين سلموا من النفاق، إذ ليس كل المؤمنين على درجة واحدة في إيمانهم، بل هم

([1]) الأحزاب:23.

([2]) ابن عاشور: التحرير والتنوير. ج21، ص307.

درجات في الإيمان، كما أنهم درجات عند الله. [1] وفي تنكير «رجال» معنى التفخيم، والتعظيم. وتحفز دلالة التبعيض المتلقي على تذّكر مواقف الأبطال في المعركة؛ لأنّ الثّناء على فئة أكثر إثارة من الثّناء على الجماعة، فما تحققه فئة محددة في المعركة تعجز عنه الجماعة، فالعبرة ليست بالعدد، إنّما بالفعل والثبات والصّدق في العمل، وبهذا يتضح المنهج الرّباني في الحياة في نصر المؤمنين الصادقين المستحقين للنصر ولو كانوا قلّة، وتخذيل الكافرين الظالمين المناصرين للباطل ولو كانوا كثيرين.

2. **جملة الصفة {صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْه} تكرَّر لفظ الصّدق المرتبط أولا بصدق الله والرسول، وثانيا بصدق المؤمنين، وهذا الارتباط يشير إلى العلاقة التي تجمع بين الله وعباده، حقيقة الصدق والتصديق، فلا محل للظُّنون والتّشكيك بين علاقة العبد وربه، وبذلك تعززت الصورة الإيمانية التي يتمتع بها المؤمن مقابل الإيمان الهش لدى المنافقين الذين لم يوفوا بالعهد لمجرد رؤيتهم الأحزاب دون وقوع القتال بعد. فلولا ثباتهم وتصديقهم لوعد الله لما انتهت المعركة بنصرهم، فتراهم صابرين على البرد القارص، وصابرين على الجوع لأيام متتالية، لم ينسحبوا ويلوذوا بالفرار، ثابتين على الرغم من تفوّق أعداد الكافرين عليهم.**
3. **التقسيم في قوله تعالى: { فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَه وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر} لبيان القسمين من المؤمنين، والنّحب كما جاء في لسان العرب: النذر، أي قتلوا في سبيل الله، فأدركوا ما تمنوا، فذلك قضاء النحب [2]، والاستعارة في (قضى نحبه) أي نذره، استعيرت للموت؛ لأنه نهاية كل حي، (ومنهم من ينتظر) أي ينتظر الموت في سبيل الله، فإن لم يموتوا بعد في سبيل الله إلا أنهم يشتركون مع إخوانهم في صدق العهد مع الله، فالمؤمنون ينذرون أنفسهم وأرواحهم وأموالهم في سبيل الله لا يخشون إلا الله .**
4. **النفي في المفعول المطلق في قوله تعالى:{ وما بدّلوا تبديلا} يؤكد على ثباتهم في المعركة وصدقهم وتمسكهم بدينهم، فهم لا يولون الأدبار ولا يتفلتون من عهودهم ، وجاء المفعول المطلق؛ ليفيد معنى التأكيد على ثباتهم، وهذا التأكيد بثباتهم وصدق عهودهم إنما جاء تعريضا بالمنافقين لكذبهم بالعهود.**

([1]) ينظر: الخطيب، عبد الكريم: التفسير القرآني.ج11، ص680.

([2]) ينظر: لسان العرب، مادة (نحب).

المبحث الرابع: نتائج المعركة

❖ **المطلب الأول: هزيمة الأحزاب.**

❖ **المطلب الثاني: هزيمة بني قريظة.**

كان من نتائج المعركة رجوع الكفار إلى ديارهم ، دون أن يحققوا أهدافهم ومكائدهم ، وباتوا بغيظهم يتقلبون، ودبّ الرعب والفزع الشديد في قلوبهم ، وأبعد سبحانه وتعالى القتال عن المؤمنين، فكانت تسير الأمور بحكمته وقدرته فأعز المؤمنين، وأذل المشركين ، وهزم الأحزاب.

❖ المطلب الأول: هزيمة الأحزاب

تُعدّ معركة الأحزاب من أشد المعارك وأصعبها على المسلمين ، فقد وصف ذلك سبحانه وتعالى بقوله: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}[1] فاجتهد فيها المسلمون في حفر الخندق،

([1]) الأحزاب:11.

وصبروا على البرد والجوع والأذى النفسي، وخذلان المنافقين لهم، وانسحابهم من بين صفوف المسلمين، ونقض اليهود ميثاقهم وعهدهم مع النبي –صلى الله عليه وسلّم–، ولكن الله ثبّتهم ومكّنهم لصدق إيمانهم .

أسهمت بعض الأحداث في رسم نهاية المعركة، تفاجأ المشركون بالخندق الذي أقامه المسلمون، فحطم ذلك أمانيهم، فهم لم يألفوا هذه الخطط الحربية ، فاضطروا للرباط أمام الخندق لليال طوال، و صعبت الليالي على المشركين، لبرودة أيام الشتاء في المدينة، وهم لم يعتادوا على هذه البرودة، وأرسل الله –سبحانه وتعالى– ريحا شديدة أطفأت نيرانهم ، واقتلعت خيامهم . وأرسل سبحانه جنودا من الملائكة تدافع عن المسلمين، فلم يطب لهم المقام، وكان الأعراب في الجيش ممن لا يطيق المكوث في مكان واحد لفترة طويلة، فهمّ رجال قريش بالرحيل ، ولكنهم بُشروا بالقضاء على المسلمين من الناحية الجنوبية التي يقطن بها بنو قريظة.[1]

نقض اليهود عهدهم مع النبي، ففرحت قريش بغدر بني قريظة وارتفعت روحها المعنوية، وأرسل اليهود إلى الأحزاب قافلة من الطعام لتقويهم على البقاء، ومن حسن تدبير الله أن رجالا من الأنصار صادروها وأتوا بها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–.[2]

واستخدم الرسول –صلى الله عليه وسلم– سلاح الخدعة والتشكيك للتفريق بين جموع الأحزاب، حينما جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني وقد أسلم سرا، فجعله الرسول يدخل على الأحزاب ويفسد بينهم ، حتى كسرت شوكتهم، وتفككت أحزابهم ، وهبطت عزيمتهم، وانسحبوا من مكان الخندق دون قتال يذكر مع المسلمين[3]، ولكنهم خسروا خسارة نفسية ومادية، وتأزمت العلاقات بين جموعهم وظهرت البغضة بينهم ، وكفى الله المؤمنين القتال.

قال تعالى : { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}[4]

([1]) ينظر: عابد، محمد: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول –صلى الله عليه وسلم–. ص 431–433.

([2]) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية. ج2، ص220–222.

([3]) ينظر: المرجع السابق: ج2، ص229–231.

([4]) الأحزاب: 25.

هذه الآية تملؤها العزة والقوة ، فنسب الله الأفعال إلى نفسه ، (ردّ الله ، كفى الله ، وكان الله)، فلولا مشيئة الله ما كان النصر، وذكر في بداية الآية الكفار ، ثم المؤمنين، ثم ذيل الآية بالتأكيد على قوته وعزته، وفي ذلك دلالة على أن التغيير في هذه المعركة كان ضد الكافرين، فانقلبت أفعالهم وشرورهم عليهم، فرُدّوا خائبين منهزمين بغيظهم وكيدهم بعد أن جمعوا أنفسهم ألوفا وساروا مسيرتهم وأجهدوا أنفسهم وكانوا يستبشرون بانتصارهم على المسلمين، وفي الآية بعض العناقيد الدلالية التي ترسم النتيجة النهائية لمعركة الأحزاب، وهي كالآتي:

1. **دلالة الفعل ردّ: { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ } ، فأرجعهم الله –سبحانه وتعالى– حاملين غيظهم معهم يثقل كاهلهم ويدمي جراحهم، والغيظ : الغضب، وقيل: هو أشد من الغضب، وهو سورته وأوله [1] ، فهم لم يعودوا لا بأعدادهم ولا بعتادهم ولا بقوتهم، فذلك لا وزن له عند الله فإن شاء يخسفهم وما معهم خسفا ، ولكنه سبحانه وتعالى ردهم بما جاؤوا به من بغيضة وحقد وغيظ يحملونه في قلوبهم، وظنوا أنهم سيطفئون حقدهم وغيظهم، إلا أنّهم عادوا به وزيادة، فكان حالهم حين مجيئهم كحالهم حين ردّهم الله، فغيظهم وكيدهم وحقدهم هو الذي حركهم للزحف نحو المسلمين لقتالهم، وظنّوا أنهم مطفئو نارهم، إلا أنهم اشتعلوا بها وبغيظهم، وردّوا إلى ديارهم خائبين متشتتين لا يجمعهم إلا الهزيمة، فزاد ذلك من الأثر النفسي والضغط المضاعف عليهم، جروا خيبتهم أمامهم ووراءهم، فلم تنفعهم الأموال التي أنفقوها، ولا الأعداد، ولا الأحزاب من اليهود والقبائل العربية، ولا المنافقون المتخاذلون، فانقلب تعبهم عليهم حسرات وخيبات تتوالى.**

2. **أفاد الحال في قوله تعالى: { لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا} نفيا عاما للخير الذي كان المشركون ينتظرونه، فهم كمن عاد بخفي حنين، خرجوا لغاية ولم يجدوها، كما أنَّ التنكير(خيرا) في جملة الحال يتيح للمتلقي تخيل ذلك الخير الذي أضمره المشركون وتمنوه، فتوقعوا بأموالهم وأعدادهم سهولة القضاء على الإسلام واستئصال المسلمين جميعا، فرسموا بخيالهم أحلاما كبيرة تنهي معاناتهم وحقدهم، وتشرح صدورهم، وتخلي السّاحة لهم يفسدون ويرتعون كما يشاؤون، لكنّهم صدموا بالحقيقة والواقع وجروا أذيال خيبتهم ونالوا الهزيمة والقهقرى.**

([1]) لسان العرب: مادة (غيظ).

3. تفيد الجملة المعطوفة { وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَال} مفارقةً بين الفعلين (رَدَّ) و(كَفَى) فلم يقل سبحانه وتعالى الفعل(ردّ) للمؤمنين؛ لأنَّ من تقدّم وتجهّز وزحف هم الكافرون، فمجيئهم يقابله ردا إلى أماكنهم، أمّا المؤمنون فقد كفاهم، وكفاية المؤمنين القتال نعمة تستوجب الشكر والحمد.
4. التذييل في قوله تعالى: { وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} قدَّم القوَّة على العزَّة حسب السياق والمقام، وتقديم القوة على العزة؛ لأنَّه قوي فعز أي غلب، فالقوة أول.
5. تضمَّنت الآية أطراف المعركة، وهم الكافرون والمؤمنون والله القوي العزيز، وقوة الله وعزته هي المسيطرة على طرفي المعركة، فالله قوي على الكافرين، ومُعز للمؤمنين. ويفيد التذييل أن قدرة الله لا تقتصر على هزيمة المشركين في ميدان المعركة ، وإنما تشمل هزيمتهم النفسية وإفشالهم دون وقوع المعركة، فكانت الرياح جندا من الله أخافتهم وأرعبتهم دافع بها الله عن المؤمنين، قلبت قدورهم ، وأزاحت خيامهم، وأوقعت في نفوسهم الخوف والرّهبة، واشتدّ البرد عليهم حتى ضعفوا وملّوا فانسحبوا.

❖ المطلب الثاني: هزيمة يهود بني قريظة والغنائم

ظهرت في معركة الأحزاب أهمية العهد، فصوّرت الموقف من عهد الله ، وابتدأت بالمنافقين الذين كذبوا العهد مع الله ، فولّوا الأدبار من المعركة رغم قولهم وعهدهم بأن لا يولوا الأدبار، ثم وضح –سبحانه وتعالى– صدق المؤمنين في عهدهم وثباتهم في المعركة؛ فنصرهم سبحانه وتعالى ورفعهم، وأخيرا صوّر سبحانه وتعالى الهزيمة الكبرى ليهود بني قريظة الذين خانوا العهد مع المسلمين، وظاهروهم مع الأحزاب ليقاتلوهم وينقضوا عليهم.

وبعد عودة الأحزاب إلى ديارهم خائبين وحلفائهم اليهود من بني قريظة الذين نقضوا العهد مع الرسول –عليه الصلاة والسلام–، وظنّوا أنهم قادرون على خداع المؤمنين ومباغتتهم من فوقهم ومن تحتهم، أبى الله إلا أن يعلمهم درسا يفهمون به ميزان العهد وقوامه، ومن يحنث بالعهد ينال عقابه، فجعل الله كيدهم في نحورهم وأذلَّهم وقذف الرعب في قلوبهم فباتوا يطلبون رضا المسلمين ورحمتهم ، قال تعالى :

{ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [1]

غزوة بني قريظة امتداد لمعركة الأحزاب، فجاءت ردا من –الله سبحانه وتعالى– على من خالف العهد مع المسلمين من اليهود[2]، وصورّ القرآن الكريم هذا الامتداد ، فالآيات جاءت متتالية لتؤكّد على قوله تعالى: { وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤولًا}، وفي الآيات مجموعة من الدلالات النحوية واللغوية :

1. **دلالة الفعل (أنزل) في قوله تعالى: { وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ}، فلم يقل أخرج؛ لأنَّ النُّزول يقتضي الهبوط بعد الارتفاع ، فهم عندما عاهدوا المسلمين كانوا في مأمن وفي مرتبة أعلى من غيرهم من الكافرين ، فلمّا خانوا العهد انحطت مرتبتهم .**
2. **يؤكّد المحور الرأسي للتركيب باختيار لفظة (ظاهروهم): بمعنى عاونوهم وناصروهم، والظِّهْرَةُ هُمْ ظَهْرُ الرَّجُلِ وأَنْصاره، بِكَسْرِ الظَّاءِ[3]، على أنَّ معاونة اليهود للأحزاب بلفظة (ظاهروهم) بدلا من عاونوهم أو ناصروهم يدل اللفظ على معنى المعاونة المصحوبة بالخداع والغدر، فإذا علمنا أنّ الظهر هو ما غاب عنك[4]، فإنّ ذلك يشير إلى أنّ معاونة اليهود للأحزاب كانت بغير علم المسلمين، فقد كان المسلمون**

([1]) الأحزاب:25–27.

([2]) سبب النزول: أوحى الله إلى نبيه محمد– صلى الله عليه وسلم– صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب أن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فأذن في الناس أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلينّ العصر إلا في بني قريظة، فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب فقال لهم النبي: أتنزلون على حكمي؟ فأبوا، فقال: أتنزلون على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس فرضوا به فحكم فيهم فقال: إني أحكم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء. فقال النبي لقد حكمت بحكم الله ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقا وقدمهم، فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة. (بتصرف) سيرة ابن هشام.ج2،ص234.

([3]) لسان العرب:مادة(ظهر)

([4]) لسان العرب.مادة (ظهر)

على عهد موثق مع اليهود ولم يعلموا أنهم يباغتونهم ويغدرون بهم، وبذلك خص سبحانه وتعالى الحديث عنهم وقال سبحانه وتعالى: {مِنْ أَهْلِ الكِتَاب} والمقصود بهم اليهود فهم المخصوصون بهذا المعنى.

3. يضيف المحور الرأسي للآية في لفظة (صياصيهم) على الإذلال والهزيمة، وهي دلالة لا تتوافر في النظائر اللغوية الأخرى، إذ إن صِيصِيَّة الثَّوْرِ: قَرْنه لاحْتِصانِه بِهِ مِن عَدُوّه [1]، فمعنى صياصيهم حصونهم، وكل ما يمتنع به، وعندما كانت الصياصي أو القرون في أعلى الرأس رمزا للعزة والكرامة والشجاعة، فإن إنزالهم منها يدل على إذلالهم وإخضاعهم ، فهو انحطاط بعد علو.

4. التقديم والتأخير في قوله تعالى: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} قدّم شبه الجملة (في قلوبهم) على ما وقع فيها من رعب؛ لأنّ القلوب هي بوصلة المشاعر، وهي المحرك الأساسي لأغلب الأفعال فتقديمها للعناية والاهتمام، والقذف يدل على الإلقاء بسرعة، ولا تخفى الحالة النفسية المثقلة بالخوف عندما شاهدوا المسلمين.

وناقش عمر عتيق ملازمة الفعل (قذف) للمفعول به (الرعب) في موضعين، وذلك في قوله تعالى: { وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}[2] ، وقوله: { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[3]. وسياق الآيتين هو الحرب وهزيمة اليهود. ويتجلى التقاطع الدلالي بين الفعل والمفعول به (القذف والرعب) وفق الخلايا الدلالية الآتية:[4]

<u>الخليّة الأولى</u>: يتقاطع الطّرفان مع الصّورة الفنيّة المائيّة التي تصوّر الخوف الذي ملأ قلوب يهود بني النضير؛ فالقذف: الماء، وقذفا الوادي والنهر: جانباه. وسيل راعب: ماء كثير يملأ

([1]) لسان العرب: مادة (صيا)

([2]) الأحزاب: 26.

([3]) الحشر: 2.

([4]) عتيق ، عمر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم . ص 110.

الوادي، ورعب الحوض: ملأه[1] فقد ملأ الرعب قلوبهم، كما ملأ الماء النهر والحوض، ولم يبق في قلوبهم ثبات أو عزيمة، فخرجوا من حصونهم مهزومين. وتحتمل الصّورة الفنية بعدا آخر؛ فكأني أرى الرعب ماء اخترق حصونهم فامتلأت عليهم فاختنقوا فخرجوا مهزومين مستسلمين.

<u>الخليّة الثانية</u>: يتقاطع الطرفان مع السياق الحربي؛ فالقذف: الرمي بالسهم والحصى، والقذاف: المنجنيق، والقذيفة: شيء يُرمى به. والرعبوب: الضعيف الجبان[2]، فقد اشتمل الفعل الملازم على أدوات الحرب، واشتمل المفعول به على دلالة الهزيمة. وبهذا يتجلى الانسجام بين الفعل (قذف) وسياق هزيمة بني النضير الذين لجأوا إلى الحصون والقلاع ظنا منهم أنّها قادرة على حمايتهم. وبهذا –أيضا– يتضح الفرق بين دلالة الفعل (قذف) في هذا السياق ودلالة الفعل (ألقى) في قوله تعالى: { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ} [3] وقوله: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚسَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[4]، إذ لم يأت الفعل (لقي) في سياق حرب القلاع والحصون[5].

وما كان لهذا التوافق الدلالي أن يتحقق بين الفعل والمفعول به لولا تجاور الطرفين في السياق الذي وقعا فيه، فالتقاطع الدلالي أو تشكل الخلايا الدلالية يتحقق بالتجاور الذي ينهض بمقتضيات السياق[6] ، " فالكلمة خارج التأليف محايدة حيادا تاما في حين أنّها داخل التأليف تشكل وضعا فضائيا، وتخضع لطبيعة العلاقات المتولدة عن هذا الوضع. ومن ثم فإن قيمتها تكون نتاج هذا الوضع ومتولدة عنه، وليست نتاج خصائص ذاتية" .[7]

([1]) لسان العرب، مادتا قذف ورعب.

([2]) لسان العرب. مادتا قذف و رعب.

([3]) آل عمران: 151.

([4]) الأنفال: 12.

([5]) ينظر: عباس، فضل (وسناء فضل عباس): إعجاز القرآن الكريم. المكتبة الوطنية، عمان، 1991م، ص184. 185.

([6])عتيق، عمر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم. ص110.

([7]) النعمان، طارق: اللفظ والمعنى بين الأيدولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة، 2003م ، ص75.

5. **أسلوب التقسيم في قوله تعالى: {فَرِيْقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرِونَ فَرِيْقًا}، قسم اليهود إلى فريقين، الفريق الأول الرجال وهم الذين وقع عليهم القتل لخيانتهم العهد، والفريق الثاني النساء اللواتي وقع عليهم الأسر، و تقدّم المفعول به فريقا على الفعل تقتلون، في حين لم يتقدم في الفعل تأسرون، قال الشوكاني في ذلك: " أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة، وكان الوارد عليهم أشد الأمرين هو القتل، كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام." [1]**

6. **التنكير في (أرضا) في قوله تعالى : { وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا} لا يحدد أي أرض هي، ولا شك أنها تختلف عن الأرض السابقة التي ذكرها –سبحانه وتعالى– { وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ} فالمعنى هنا أرض يهود بني قريظة، أما { أَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا} فتشير إلى أرض أخرى، وكأنّ هذه الغزوة كانت بابا ينطلق منه المسلمون للانتصار، و تعددت التفاسير حول مكان الأرض أحيبر هي، أم حنين، أم مكة، أم فارس والروم[2]، أم أرض بني النضير[3] أم أنّها كل أرض تفتح إلى يوم القيامة [4]، و {لَمْ تَطَئُوهَا} أي لم تدخلوها، والوطأة: الأخذة الشديدة [5]، فلم تفتحوها بغزوة أو قوّة، ويرجح ابن عاشور أنها أرض بني النضير لأنّ الله أفاء بها على رسوله والمسلمين من غير إيجاف. [6]**

([1]) الشوكاني: فتح القدير.ج4، ص316.

([2]) الشوكاني: فتح القدير.ج4، ص316.

([3]) ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج21، ص313.

([4]) تفسير القرطبي. ج14، ص161.

([5]) لسان العرب: مادة(وطأ).

([6]) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير.ج21، ص313.

الخاتمة

تناول البحث صورة المعركة في القرآن الكريم من خلال التّراكيب النّحوية الواردة في الآيات دراسة بلاغيّة ، فاحتوى البحث على ثلاث معارك وردت في القرآن الكريم وهي معركة بدر الكبرى ومعركة أُحد ومعركة الأحزاب، درست الباحثة أثر التّراكيب والألفاظ الوارد في الآيات في تشكيل صورة المعركة، وذلك بعد تقسيم موضوعات المعركة حسب ما ورد في القرآن الكريم ، فتشكّلت صورة معركة بدر من خلال المقدمات النّفسية للمعركة، ووصف المعركة ونتائجها، أما معركة أُحد فتشكّلت صورتها من خلال وصف الاستعداد للمعركة ، ووصف أحداثها، والنكسة والمواساة، ومعركة الأحزاب(الخندق) تمثّلت في الصّورة العامة للمعركة وسياق الخوف، وصورة المنافقين وتقبيح أفعالهم وأقوالهم ، ونتائج المعركة.

أبرز النتائج التي توصلت إليها الباحثة تتمثل فيما يأتي:

1. **صورة المعركة في النّص القرآني دقيقة شاملة لمقاصد رب العالمين، فيها تحليل للأسباب والنّتائج، وحيوية في التّصوير والإيحاء وبيان لخلجات النّفس، ومعالجة للفكر الإنساني.**

2. أكّدت الدّراسة أنّ قوّة العقيدة تغلب قوّة الأعداء وكثرة العتاد ، كما تجلّى في انتصار معركة بدر . وتُبشِّر الدِّراسة أنّ الوعد الرَّبَّاني يُفضي إلى انتصار الفئة المستضعفة.
3. عزّزت الدراسة الالتزام بتعليمات قائد المعركة، وحذّرت من مخالفة التّعليمات التي تؤدّي إلى الهزيمة، كما حدث في معركة أُحد.
4. كشفت الدراسة عن خفايا النّفس الإنسانية من حيث الطَّمع في الغنائم ، وذلك تحقيقا للمثل "تقطع أعناق الرجال المطامع".
5. حذّرت الدّراسة من الاعتماد على اليهود الذين نقضوا العهد مع المسلمين في معركة الخندق.
6. بيّنت الآيات أهميّة النّظرة الشمولية لمجريات الأمور، وربط الأحداث بعضها ببعض، فصوّرت الآيات حال المؤمنين بضعفهم وقوّتهم، وبصبرهم وثباتهم، وصوّرت حال المنافقين بخوفهم وتقلبهم، ومخالفة أقوالهم لأفعالهم، وصوّرت الكافرين بتكبّرهم وغرورهم وهشاشة قلوبهم.
7. الألفاظ القرآنية لها دلالتها في سياق التركيب فلا يمكن أن يرادف لفظ لفظا آخر، بل إنّ الكلمة ذاتها تتكرر في غير سياق لتدلّ على معنى آخر، والألفاظ المناظرة لا يمكن أن تؤدّي أحدها الدّلالة التي تؤدّيها أختها، وعليه فإنَّ للسياق دورا كبيرا في تحديد معاني الألفاظ ، مما يتيح تفسير التّعبير القرآني وتحليله بقيمته الجمالية والفنية.
8. حلّلت تراكيب صور المعركة معنى الشرط، أي وجود علاقة تلازميّة (السّبب والمسبب)، وهذا ملمح نفسي في الترغيب والترهيب؛ لأنَّ فطرة الإنسان مجبولة على تبادل المنفعة لأيِّ عمل يقوم به.
9. تنوّع التّراكيب النّحوية بين الخبرية والإنشائية، مع غلبة الأسلوب الخبري في التّعبير عن صورة المعركة، وذلك مايتناسب مع الإخبار عن المعركة وأحداثها وأسباب النّصر والهزيمة، إلا أنّه لم يغب توافر الأساليب الإنشائية، من نداء وأمر واستفهام وغيرها تحمل دلالات عميقة ومؤثرة في مشاهد المعركة ترسم أبعادا مختلفة.
10. استخدام الأفعال المضارعة على الرغم من أنّ الأحداث كانت في الماضي، وذلك لاستحضار المشاهد ونقلها إلى الواقع والتّفاعل معها والتّأثّر بمجرياتها لتمكينها في

النّفوس وأخذ العبر. و ورود الفعل الماضي جاء ليدلّ على الثّبوت، واستخدام الأفعال المؤثرة في صياغة المشهد.

11. ورود المحسنات البديعية في سياق صورة المعركة كالطّباق والمقابلة يفسّر الحالة النّفسية والاجتماعية، ويكشف عن طبائع النّفس الإنسانية، بين سلب وإيجاب، وتذبذب وثبات، ويدعو إلى الأخذ بأسباب النّصر والابتعاد عن أسباب الهزيمة.

12. تنوعت معاني الاستفهام في سياق صورة المعركة، فالاستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى الوعيد والتوبيخ والتكذيب والتعجب، والاستفهام التقريري ليزيل الشّكوك، واستفهام بمعنى النفي ليعطي تأثيرا أكبر.

13. رسمت الآيات صورة مغايرة لمفهوم الموت والجهاد في سبيل الله، فبيّنت منزلة الشهداء والنعيم الذي يقيمون فيه؛ لدحض وساوس المنافقين وتأثيرهم على المؤمنين.

14. إيجاز الحذف في الآيات يفتح الباب أمام تزاحم المعاني الكثيرة .

15. وصف الآيات لمكان المعركة، ليس وصفا عاديا يبيّن المنطقة الجغرافية وأهميتها، إنَّما هو وصف يحمل في طياته دلالات ذات أبعاد نفسيّة واجتماعية.

16. تميّزت معركة بدر الكبرى في تكثيف صورة الوعد الرّباني للمسلمين التي ظهرت في التّراكيب النّحوية واللغوية المتنوعة، لبثِّ الطمأنينة والبشرى في قلوبهم، كونها المعركة الأولى بين المسلمين والكافرين .

17. تركّزت معاني المقاصد الإيمانية والتربويّة في صورة معركة أُحد، في توضيح صورة المنافقين وتناقض أقوالهم وأفعالهم، وأشارت إلى حقيقة الموت، والالتزام بالإيمان والحق، فعلى الرغم من الهزيمة إلا أنّ المسلمين خرجوا من المعركة بمفاهيم إيمانية جديدة تعلموا منها دروسا للمستقبل.

18. تميّزت معركة الأحزاب في التّراكيب اللّغوية والنّحوية التي وضّحت الحالة النّفسية والفكرية، إذ كانت من أشدّ الأيام وأصعبها على المسلمين واتضحت الصورة من خلال تكثيف لغة الجسد ، وركّزت صورة معركة الأحزاب على المنافقين الذين انسحبوا خلال المعركة، وعرضت أقوالهم وأفعالهم، وكشفت عن خفايا نفوسهم وحقيقة إيمانهم، وقد ظهرت صورة المنافقين في معركة أُحد، ولكنّها تكثفت في معركة الأحزاب لتفضحهم وتعرّي نواياهم ، لتَكَرُّرِ فعل النفاق وتشبثهم فيه.

19. كشفت الدراسة عن رؤية فكرية عقائدية للمعركة من حيث أسبابها وخططها ونتائجها.

وفي الختام توصي الباحثة بما يأتي:

1. دعوة الباحثين إلى الجمع بين علمي النحو والبلاغة في الدراسات القرآنية.

2. توجيه عناية الباحثين إلى العلاقات النّحوية التي تُسهم في بناء الصّورة لكي لا تبقى دراسة الصورة مقصورة على العناصر الفنية.

3. دعوة مؤلفي المناهج المدرسية لإبراز العلاقة التكاملية بين النَّحو والبلاغة.

وفي ختام الخاتمة لا بدّ من القول أنّ القرآن الكريم معين لا ينضَب ، وجنّة لا تنقضي ثمارها، فمهما بلغ الباحث في استقصاء بلاغة آياته وتأمُّل معانيه لن يبلغ من بحره إلا القليل اليسير، فما في البحث من صواب فمن فضل الله وكرمه وتوفيقه، وما فيه من خلل وزلل فمن نفسي وضعفي وتقصيري، وأسأل الله تعالى أن يجعلني من الموفقين.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإسكافي، الخطيب: درة التنزيل وغرة التأيل. تحقيق: مصطفى آيدين. ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 2001م.
- الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن. تحقيق: صفوان الداودي. ط1، دار القلم، دمشق، 1412هـ.
- الألوسي: روح المعاني. تحقيق: علي عطية. ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.
- الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط في التفسير. تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
- البخاري: صحيح البخاري(كتاب أحاديث الأنبياء).تحقيق: محمد الناصر. ط1، دار طوق النجاة، 1422هـ.
- بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن. ط1، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2005م.

- البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود : معالم التنزيل في تفسير القرآن. تحقيق : عبد الرزاق المهدي. ط1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،1420 هـ .
- البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
- البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1418 هـ
- ابن تيمية: مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، 1995م.
- الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون. ط4، مكتبة الختنجي، القاهرة، د.ت.
- الجرجاني، عبد القاهر:
  - أسرار البلاغة. تحقيق: محمود شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، د.ت.
  - دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود شاكر. ط3، مطبعة المدني، القاهرة، 1992م.
- الجوهري:الصحاح. تحقيق: شهاب الدين أبي عمر. ط1، دار الفكر، بيروت، 1418هـ.
- حسان، تمام:
  - اللغة العربية معناها ومبناها. ط5، عالم الكتب، 2006م.
  - مناهج البحث اللغوي. دط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955م.
- خضيّر، علي: دلالة السياق في النص القرآني. رسالة ماجستير، إشراف:عبد الإله الصائغ، الأكاديمية العربية في الدانمارك، كوبنهاغن،2014م.
- خطاب، محمود: الرسول القائد. ط6، دار الفكر، بيروت، 1422هـ.
- الخطيب، عبد الكريم: التفسير القرآني للقرآن. دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- الخنين، ناصر: النظم القرآني في آيات الجهاد. ط1، رسالة دكتوراة، إشراف: فريد النكلاوي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض. مكتبة التوبة، 1996م.
- داود، محمد: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم. دار غريب، القاهرة، 2008م.
- دراز، صبّاح: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم. ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، 2015م.

- درويش، محيي الدين: إعراب القرآن وبيانه. ط4، دار الإرشاد للشئون الجامعية، سوريا، 1415هـ.
- الرازي: التفسير الكبير. ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
- الراغب، عبد السلام أحمد: وظيفة الصورة الفنية في القرآن. ط1، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، 2002م.
- الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: محمد أحمد، ط 4، دار المعارف، بيروت، د.ت.

- الزمخشري:
  - أساس البلاغة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ.
  - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط3، دار الكتاب العربي، بيروت،1407 هـ.
- السامرائي، فاضل:
  - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. ط3، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، 2003م.
  - معاني النحو. ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، الأردن، 2000م.
- السعدي، عبد الرحمن: تيسير الكريم الرحمن. تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط1، مؤسسة الرسالة، 2000م.
- السعران، محمد: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي. ط1، دار الفكر العربي، 1997م.
- أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ابن السكيت: إصلاح المنطق. تحقيق:محمد مرعب. ط1، دار إحياء التراث العربي،2002م.
- سيبويه: الكتاب. تحقيق: عبد السلام هارون. ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1988م.
- السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
- الشوكاني: تفسير فتح القدير.ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1414هـ.

- الصابوني، محمد: صفوة التفاسير .ط1، دار الصابوني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.
- الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن. تحقيق: أحمد شاكر. ط1، مؤسسة الرسالة،2000م.
- الطلحي، ردة الله: دلالة السياق. ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ،1424هـ.
- عابد، محمد: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم. ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1994م.
- ابن عاشور: التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر، تونس،1984م.
- العامري، خليل: السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني. مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مج9،ع2، 2010م.
- عباس، فضل (وسناء فضل عباس): اعجاز القرآن الكريم. المكتبة الوطنية، عمان، 1991م.
- عبد القادر، عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية. ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2002م.
- عتيق، عمر:
  - ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم. ط1 ، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010م.
  - علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة. ط1 ، دار أإسامة للنشر والتوزيع . الأردن ، عمان ، 2012م.
  - لغة الجسد في القرآن الكريم. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية،جامعة آل البيت، م9، ع(1\أ) ،2013م.
- ابن عرفة: تفسير ابن عرفة. تحقيق: جمال الأسيوطي. ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م.
- العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري لابن حجر. دار المعرفة ، بيروت، 1379هـ.
- العسكري ، أبو هلال : الفروق في اللغة . تحقيق : محمد إبراهيم سليم . دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ، د.ت.
- عُضيمة، محمد عبد الخالق: دراسات لأسلوب القرآن الكريم. تصدير: محمود شاكر، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

- العكبري، أبو البقاء: التبيان في إعراب القرآن. تحقيق: علي البجاوي. عيسى البابي الحلبي وشركاه، دمشق، د.ت.
- علي، محمد: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية. ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007م.
- عمايرة، خليل: في التحليل اللغوي. د.ط، مكتبة المنار، الزرقاء، 1987م.
- عودة، خليل: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم. ط1، مكتبة المنار الزرقاء، الأردن، 1985م.
- الغزالي، محمد: فقه السيرة. تخريج الأحاديث: محمد الألباني. ط1، دار القلم، دمشق 1427هـ.
- فتحي، إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبية. ط1، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين،1984م.
- فقيهي، محمد حنيف: نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر. ط2، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987م.
- القرطبي، شمس الدين: الجامع لأحكام القرآن–تفسير القرطبي– . تحقيق: أحمد البردوني وغيره. ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م.
- قطب، سيد: في ظلال القرآن. ط1، دار الشروق، القاهرة، 1972م.
- المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب. ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م.
- ابن منظور: لسان العرب. ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- منير، وليد:النص القرآني من الجملة إلى العالم. ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مصر،1997م.
- الميداني، عبد الرحمن: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها. ط1، دار القلم، دمشق، 1996م.
- النعمان، طارق: اللفظ والمعنى بين الأيدولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة، 2003م.
- الهاشمي، أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م.

- ابن هشام: السيرة النبوية. تحقيق: عمر تدمري. ط3، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1990م.

فهرس الآيات القرآنية

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية	رقم السورة	ة
28	216	{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }	2	
81	12	{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ}	3	ران
64	13	{ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}		
94	121	{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}		
155-97	122	{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}		

{ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}	123	55-77-99		
{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}	124	53-54		
{ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}	125	57		
{ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}	126	58-59		
{ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}	127-128-129	82		
{ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ}	140	91		
{ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ}	151	179		
{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}	152	108		
{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا}	165	91		
{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}	167	100		

17	43	{لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ}	4	
79	98-97	{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً }		
10	141	{وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا}		
11-10	37-36	{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}	5	
17	90	{ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ}		
11	82	{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }	6	
87-24	1	{ يسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}	8	
29-24-51-32	8-7-6-5	{ كَما أَخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَريقًا مِنَ المُؤمِنينَ لَكارِهونَ ﴿٥﴾ يُجادِلونَكَ فِي الحَقِّ بَعدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقونَ إِلَى المَوتِ وَهُم يَنظُرونَ ﴿٦﴾ وَإِذ يَعِدُكُمُ اللَّـهُ إِحدَى الطّائِفَتَينِ أَنَّها لَكُم وَتَوَدّونَ أَنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُم وَيُريدُ اللَّـهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ		

		بِكَلِماتِهِ وَيَقطَعَ دابِرَ الكافِرينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ الباطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمونَ ﴿٨﴾}	11-10-9	-52-50 -59-60 -54-61 121
		{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}		
		{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمْ الأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }	16-15	73-72
		{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حسنا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }	17	75
		{ إِن تَستَفتِحوا فَقَد جاءَكُمُ الفَتحُ وَإِن تَنتَهوا فَهُوَ خَيرٌ لَكُم وَإِن تَعودوا نَعُد وَلَن تُغنِيَ عَنكُم فِئَتُكُم شَيـًٔا وَلَو كَثُرَت وَأَنَّ اللَّـهَ مَعَ المُؤمِنينَ }	19	36
		{ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }	26	78
		{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}	36	105
		{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}	41	88-45

45-49	42	{ إِذ أَنتُم بِالعُدوَةِ الدُّنيا وَهُم بِالعُدوَةِ القُصوى وَالرَّكبُ أَسفَلَ مِنكُم وَلَو تَواعَدتُم لَاختَلَفتُم فِي الميعادِ وَلـكِن لِيَقضِيَ اللَّـهُ أَمرًا كانَ مَفعولًا لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيى مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّـهَ لَسَميعٌ عَليمٌ }		
42-63	43	{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}		
63	44	{ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}		
38-14	47	{ وَلا تَكونوا كَالَّذينَ خَرَجوا مِن دِيارِهِم بَطَرًا وَرِئاءَ النّاسِ وَيَصُدّونَ عَن سَبيلِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ بِما يَعمَلونَ مُحيطٌ }		
40-39	49-48	{وَإِذ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعمالَهُم وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ وَإِنّي جارٌ لَكُم فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيهِ وَقالَ إِنّي بَريءٌ مِنكُم إِنّي أَرى ما لا تَرَونَ إِنّي أَخافُ اللَّـهَ وَاللَّـهُ شَديدُ العِقابِ* إِذ يَقولُ المُنافِقونَ وَالَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دينُهُم وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى اللَّـهِ فَإِنَّ اللَّـهَ عَزيزٌ حَكيمٌ}		
69	50	{وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}		
70	66-65	{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}		

		{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}	-67-68 -96—96 71-70	84
	9	{ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ}	40	91
	12	{ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ }	85	71
	16	{وأَنزلنا عليكَ الكتاب تِبْياناً لكلّ شيءٍ}	89	30
	21	{ وَنَبْلُوَكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَة}	35	147
	22	{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّـهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}	39	22
	27	{ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}	27	14
		{ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}	28	15
		{ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ "فَانظُرِي" مَاذَا تَأْمُرِينَ}	33	15
		{ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ "فَنَاظِرَةٌ" بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}	35	15
		{ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ}	41	15
	30	{ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}	47	91
	31	{ يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}	13	11

33	{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}	11-10-9	140-142-144-162-172
	{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا }	13-12-14	149
	{ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}	16-15-17	155
	{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا }	19-18-20	158-162
	{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا }	21	165

		{ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}	22	167
		{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا }	23	168
		{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا *وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا *وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}	25-26-27	173-176-178
		{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}	45-46	18
	54	{ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ }	45	34
	59	{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}	2	178
ة	75	{ فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر}	7-9	14

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
إقرار	أ
قرار لجنة المناقشة	ب
تفويض	ت
الإهداء	ث
الشكر والتقدير	ج
الملخص باللغة العربية	ح
الملخص باللغة الإنجليزية	خ
المقدمة	1
التمهيد	6
الفصل الأول: صورة معركة بدر الكبرى	
المبحث الأول: مقدمات معركة بدر	20-35

المطلب الأول: الاستعداد النفسي للمسلمين	**22**
1.كرههم للقتال	**24**
2.جدالهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم	**29**
3.تفضيلهم ملاقاة العير على النفير	**32**
المطلب الثاني: الاستعداد النفسي للمشركين	**41-36**
1.طلبهم النصر	**36**
2.حالتهم عند الخروج	**38**
3.وسوسة الشيطان لهم	**39**
المطلب الثالث: التأثير النفسي لعدد المقاتلين قبل المعركة	**43-42**
المبحث الثاني: وصف معركة بدر	**75-44**
المطلب الأول: الفضاء المكاني للمعركة	**45**
المطلب الثاني:الاستغاثة	**50**
المطلب الثالث:الاستجابة	**65-52**
1.أمدهم بالملائكة	**52**
2.أنزل عليهم المطر والنعاس	**61**
3.تقليل عدد المؤمنين والكافرين في عيون بعضهم بعضا	**63**

المطلب الرابع: المواجهة بين المسلمين والمشركين	**75-66**
1.قتال الملائكة	**66**
2.قتال المؤمنين	**70**
المبحث الثالث: نتائج معركة بدر	**89-76**
المطلب الأول: نصر الله للمؤمنين	**77**
المطلب الثاني: مصير الكافرين	**79**
المطلب الثالث: أسرى معركة بدر	**84**
المطلب الرابع: غنائم معركة بدر	**87**
الفصل الثاني: صورة معركة أحد	
المبحث الأول: الاستعداد للمعركة	**106-93**
المطلب الأول: استعداد المسلمين	**94**
المطلب الثاني: استعداد المنافقين	**100**
المطلب الثالث: استعداد الكافرين	**105**
المبحث الثاني: وصف أحداث المعركة	**118-107**
المطلب الأول: الانتصار الأولي	**108**
المطلب الثاني: تأثير الإشاعة على سير المعركة	**111**

المطلب الثالث: نزول الرماة عن الجبل	**116**
المبحث الثالث: النكسة والمواساة	**135-119**
المطلب الأول: التخفيف عن المسلمين بإنزال النعاس عليهم	**120**
المطلب الثاني: عفو الله عن الطائفة التي فرت يوم أحد	**126**
المطلب الثالث: بيان منزلة الشهداء	**128**
المطلب الرابع: مواساتهم بذكر الأمم السابقة	**132**
الفصل الثالث: صورة معركة الأحزاب (الخندق)	
المبحث الأول: الصورة العامة للمعركة	**147-139**
المطلب الأول: صورة الحشود المعادية	**140**
المطلب الثاني: لغة الجسد للمؤمنين في سياق الخوف	**144**
المبحث الثاني: صورة المنافقين في المعركة	**164-148**
المطلب الأول: صورة المنافقين في أقوالهم	**149**
المطلب الثاني:صورة المنافقين في أفعالهم	**155**
المطلب الثالث: تقبيح أفعالهم وأقوالهم	**158**
المبحث الثالث: موقف المؤمنين	**170-165**

المبحث الرابع: نتائج المعركة	**180-171**
المطلب الأول: هزيمة الأحزاب	**172**
المطلب الثاني: هزيمة يهود بني قريظة والغنائم	**176**
الخاتمة	**181**
ثبت المصادر والمراجع	**185**
فهرس الآيات القرآنية	**197-190**